سيرة وطن في مسيرة زول
جعفر عباس (صدر عام 2012)

المؤخرة

كتب مقدمة آخر كتاب لي (زوايا منفرجة وأخرى حادة) الذي صدر عام 2009، الحبيب الراحل الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي، الذي كان يزن ويطن في أذني كي أواصل جمع مقالاتي وأصدارها في كتب، حتى تكتوي الأجيال المقبلة بما اكتوت به الأجيال المعاصرة، التي قرأت لي ما كتبت في الصحف والمجلات، وافتتحت الكتاب والآخر الذي سبقه، بما أسميته "المؤخرة"، واعتقد أنها تسمية موفقة، لأن الكتابين، وثالثهما هذا، تضم مقالات لي نشرت في عدد من الصحف والمجلات، فكان من الأمانة أن تحمل كلمات تقديمي لتلك الكتب اسم "المؤخرة" باعتبار أنها آخر شيء كتبته قبل الدفع بكل كتاب الى المطبعة، وبعبارة أخرى فهذه ثالث "مؤخرة" لثالث كتاب أصدره

من أكثر الأشياء التي تغيظني، الإجابة التي أسمعها من الشعراء أو المطربين أو التشكيليين عن أقرب أعمالهم إلى قلوبهم، فيجيب معظمهم: كلهم مثل أولادي لا استطيع ان أفضل عملا على آخر. شخصيا كتبت آلاف المقالات، وقد ظللت أمارس كتابة المقال اليومي طوال العشرين سنة الأخيرة – قل أعوذ برب الفلق... ومن شر حاسد إذا حسد – ولكن مجموعة المقالات التي يضمها هذا الكتاب، هي الأقرب والأحب إلى قلبي، ولم يحدث قبلها قط أن كتبت أكثر من عشر مقالات متتالية بينها رابط، اي فيها "وحدة الموضوع"، وعن تجربة/خبرة صحفية لا بأس بها أعرف أن القراء يملون المواويل الطويلة (ولكنهم لا يملون المسلسلات المكسيكية والتركية التي أجزم بأنها أكثر ركاكة حتى من المقالات التي كنت أكتبها في حصص الإنشاء في المدرسة الابتدائية)، ولهذا عمدت إلى كتابة كل مقال وكأنه موضوع قائم بذاته، واحتفظت لنفسي بالخيط الخفي الذي يربط بينها، وحاولت قدر جهدي استدراج القارئ للعبور معي من محطة إلى أخرى، دون أن يحس أنه مع نفس الرفقة أو في نفس الأماكن التي مرّ بها من قبل

وقد اسمتعت كثيرا بكتابة هذه "المسيرة" لعدة أسباب، أهمها، أنني وجدت نفسي أزور مجددا أماكن وأناسا ومحطات لها مكان خاص في قلبي وكبدي، فمجموعة المقالات التي يضمها هذا الكتاب ليست "سيرة ذاتية"، فرغم أنني اعتقد انني عشت حياة خصبة حافلة بالأفراح والأتراح، إلا أنني لم أكن مميزا عن ملايين الناس في وطني أو خارجه بما يبرر كتابة قصة حياتي، ومع هذا فمعظم السرد في هذه المقالات بضمير المتكلم، وكان ذلك تحريا للأمانة، فقد تناولت فيها جوانب من وقائع في سيرة وطني كشخص عايشها، واستعنت في السرد بشهادات أشخاص عايشتهم أو معروفين لدى الكثيرين، وقد يجد البعض السيرة مبتورة، وبها قفزات وشقلبات وشطحات.. بل و"فبركات". ليس بمعنى انني اختلقت أحداثا وشخصيات ومواقف، بل بمعنى أنني اخترت اسلوبا في الكتابة،

يمنحني حرية أن أصنع من القبة حبة والعكس. وعلى السبيل المثال فقد أنسب لشخص ما كلاما قاله، ولكنني اعطي نفسي حرية إضافة الفلفل والكمون والشطة عليه، وزي ما تجي، تجي!
وقد يلاحظ البعض أنني تجنبت في سردي للأحداث إيراد تواريخ معظمها، وذلك لسببين: أولهما أن إيراد تواريخ للوقائع والأحداث قد يوقعني في الخطأ غير المتعمد، ولكوني مدركا أنني لا أكتب مادة أكاديمية أو علمية، فكل ما في الأمر هو أنني أترك الخواطر تتداعى فأهرب الى الأمام تارة وأتقهقر الى الماضي تارات كثيرة. وثانيهما أن ذكر التاريخ يفضح عمري البايولوجي، فمن أثقل الناس على قلبي أولئك الذين يشكون من "عامل السن"، ويتبجحون في كل مناسبة: إيييه راحت علينا، ثم يحدثونك عن السكري والضغط والتهاب المفاصل والقولون والجيوب الأنفية والبروستات وكأنها "إنجازات". وكما أردد كثيرا في مقالاتي فإن عدد سنوات عمر أي آدمي أمر لا يهم إلا جهة العمل، أو السلطات العدلية، أو أهل من يرغب في الزواج به/بها والطبيب، وحتى الطبيب ليس معنيا جدا ما إذا كان عمرك 43 أو 48 سنة، ولو قلت له "عمري كذا وأربعين سنة" فإنها معلومة توصله للاستنتاج/ التشخيص/ وتوصيف الدواء الصحيح.
وعموما فإن التبجح بالتقدم في العمر يهم من هم دون الخامسة والعشرين، فالطفل الذي يبلغ من العمر أربع سنوات، يتضايق لو قلت له إن عمره سنتان، وتسأل شابا عن عمره فيجيب: سيكون عمري 19 سنة بعد تسعة أشهر، ثم تبدأ التنزيلات بعد تجاوز الخامسة والثلاثين. وبالتأكيد، فإنني أعرف سنوات عمري جيدا لأن والدي رحمه الله وسامحه!! كان حريصا على استخراج شهادات ميلاد أصلية لكل عياله، في حين أن معظم أبناء جيلي في السودان من مواليد الأول من يناير من اي عام حسب التساهيل، لأن شهادات ميلادهم صدرت بالتسنين والتقدير، ومع الهرج والمرج الذي ساد الخدمة المدنية في السودان مؤخرا اكتشفت أن أشخاصا كنت أنادي الواحد منهم "يا عمي"، هم أصغر مني سنا حسب الأوراق الرسمية، بل أعرف شخصا له ثلاثة أعمار، ظل يستخدمها في التقديم للوظائف – حسب مقتضى الحال – في منطقة الخليج التي عشت فيها سنوات أطول من سنوات عيشي في السودان. نعم أعرف كم عمري بالضبط ولكنني لا أقيسه أو أحسبه بالأرقام واللوغريثمات، ويعرف كل من يعرفني أنني لست متصابيا، فلم يحدث قط أن واريت الشيب "المبكر" في رأسي بأي صبغة.. ربما لأنني من جيل كان يعتبر الرجل الذي يستخدم كريمات ودهانات ترطيب البشرة ناقص الرجولة (كان يسمى بالتحديد "سحسوح")، وكان اللوشن على أيامنا هو زيت الطعام
وحتى لا يشتري من يقرأون مقالاتي "الترام" باقتناء هذا الكتاب، فقد أضفت إليه فصولا كثيرة، وأشبعت ما نشر منها تعديلا وتحويرا، ورغم أنني حرصت في السنوات الأخيرة على نشر مقالاتي في صفحاتي في فيسبوك إلا أنني لم أنشر ولا سطرا من محتويات هذا الكتاب في فيسبوك. وأنصح وزارتي الإعلام والثقافة السودانيتين بشراء صمتي بشراء آلاف النسخ من هذا الكتاب، وإلا فإنني وكصاحب قاعدة جماهيرية عريضة في فيسبوك (لدي فيه أربع صفحات، أتواصل من خلالها مع نحو 140 ألف من الأصدقاء) سأقود

الثورة "الكتاب وجهية" اي الفيسبوكية السودانية، دون ان يثبط عزيمتي عدم وجود "ميدان تحرير" أو "تغيير" في الخرطوم، فكل سايبيريا التي هي عالم السايبر الافتراضي ميدان لي فيه مليشيات من كل قبائل السودان، بل إن بعض أعداء قومي النوبيين التاريخيين، من أمثال الشايقية والجعليين، صاروا جعفريين، ومنهم متطرفون لا يقبلون اي مساس ب"سي. دي. أبو الجعافر" صاحب السيف الباتر، سليل العناتر الذي تتوزع بركاته بقوة مليون فيقابايت عبر ملايين الفلاشات والهارد ديسكات، لتصيب كل مغضوب عليه منه ب"ديسك" تعجز الإبر الصينية والمواسير الدارفورية عن علاجه.

أرجو أن تجدوا في هذا الكتاب المتعة التي وجدتها في تسطير محتوياته، وأن تلمسوا فيه مدى حبي لكل شبر وآدمي في السودان، مع الأخذ في الاعتبار أنني لا أعترف باتفاق نيفاشا الذي أعطى أهل جنوب السودان حق تقرير المصير فاختاروا الانفصال، وكانت معارضة هذا الاتفاق جريمة سياسية، ثم أثبتت الأحداث أن الاتفاق هو الجريمة

وإذا مد الله في أيامي فاستكمل السيرة والمسيرة في كتاب آخر استعرض فيه سنوات عيشي في منطقة الخليج كخبير أجنبي (هذا لقب يناله كل منه هو غير عربي، ولهذا ألت وأعجن كثيرا لتذكير القراء بأنني نوبي، الذي بينه وبأن ما بين النوبي والعروبي كالذي بين طالبان وروبي)

جعفر عباس

Jafabbas19@gmail.com

****

اسمي بالكامل جعفر عباس سيد أحمد حاج محمد حاج شيخ موسى حاج، ويظل اسم حاج يتكرر عند أجدادي عدة مرات، مما يؤكد أنني من شجرة مباركة نال مؤسسها لقب "حاج" عن استحقاق، في زمن صعب، وتسمى عائلة والدي بأحفاد حاج كلتوما، وبالنوبية "هاج كلتومن أسي"، واستبعد ان جدي السابع أو الثامن كان ابن سيدة اسمها كلتوما، رغم أن النوبيين لا يرون غضاضة في الانتساب لأمهاتهم، بل وحتى أبناء جيلي من النوبيين كانوا يُعرَّفون بالنسبة لأمهاتهم، وإلى يومنا هذا لا أجد غضاضة في أن يناديني بعض أهل منطقتي ب"جافر آمنن تود" اي جعفر ابن آمنة.. ويُذكر المصطفى عليه السلام في ألسنة النوبيين دائما مقرونا دائما باسم أمه آمنة، فيصبح باللسان النوبي "ميمد آمنن تود"، وحرف الحاء لا مكان له في حلوق وألسنة وشفاه النوبيين تماما مثل الثاء والخاء والذال والزاي والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين، والقاف عند النوبيين غير مقلقلة بل كالقاف العامية او اليمنية

واستبعد أن يكون جد عائلتي الأكبر لجهة الأب قد نسب إلى أم تحمل اسم "كلتوما" لأن اسم كلتوما لا يطلق على النساء النوبيات بينما اسم كلتوم (بالتاء) شائع في عموم بلاد السودان، وبالتالي فإنني أرجح ان لي جدا يحمل اسما نوبيا صرفا هو "كلتوما"، وإن كنت لا أعرف للاسم معنى، وهو الحال مع كثير من الأسماء النوبية، والنسائية على وجه الخصوص: دوانة ودانة وهولا، ومسكة، وألقية، ودارا وفرين، التي ما تزال متداولة إلى يومنا هذا وقد ضاعت منا معانيها، بسبب التجريف والتصحر الذي أصاب

اللغة النوبية بعد أن تحولت من لغة مكتوبة لآلاف السنين، الى لغة محكية بعد دخول الاسلام (وقبلها كانت اللغة النوبية تكتب بما يسمى بالحروف القبطية التي هي اليونانية القديمة)، وبعد ان اصبحت ديار النوبة جزءا من دولتي السودان ومصر المركزيتين، فلم نعد نعرف معاني أسماء نوبية صرفة مثل ساتي وهولا وفرين وأليسا (نعم هو اسم نوبي قديم وشائع وإن كان كثيرون لم يسمعوا به إلا عند المطربة اللبنانية ذات التضاريس البركانية)

وموطني في السودان هو جزيرة بدين التي هي جزء من كرمة، عاصمة الدولة والحضارة النوبية العريقة، وبالتالي فإنني نوبي قح، وأجيد اللغة النوبية وأعشقها، بل يعتبرني الكثير من أهلي ومعارفي حجة ومرجعا في شؤون اللغة النوبية، وجدي لأبي، "سيد أحمد" (وهو اسم واحد مركب)، حفيد حاج كلتوما، من جزيرة سِمِد الواقعة الى الشمال من بدين، ويبدو أن أبو السيد كان "شبعان وصاحب جيب مليان"، لأنه تزوج جدتي حفصة، وهي من إحدى أكبر العائلات في بدين وهي عائلة فقير، وصار اسم عائلتنا هو فقير نسِّي Nassi (سلالة فقير) والفقير عندنا في السودان لقب يطلق على رجل الدين العالم الزاهد، وفي العامية السودانية يسمى الفقيه فقير أو فكي. وصاحبكم سليل "فقراء" اي فقهاء بالجهتين، فمن ناحية الأم فإنني حفيد "شوقتي حامد" الذي تم تحريف اسمه الأول إلى شوكت، وقباب أجدادي وأضرحتهم، تشغل حيزا كبيرا وسط مقابر حي أب جاسي العتيق في جزيرة بدين.

ولد أبي في جزيرة بدين وطفش منها وعمره نحو 17 سنة. فديار النوبة ذات طبيعة قاسية ولهذا يسمى القسم الأعظم منها "كدين فاكي Kidin fakki أي أرض الحجر"، فالصحراء النوبية تنتهي في ديارنا بمناطق جبلية وصخرية تخنق حوض النيل ولا تترك إلا فسحة ضيقة من الأرض تصلح للزراعة، وهكذا عرف أجدادنا الهجرة الى السودان الأوسط ومصر والسعودية منذ مطلع القرن 18، ومن هنا اكتسب النوبيون شهرة كطباخين في القصور وبيوت الأثرياء في وادي النيل والجزيرة العربية، وصار من يحسبون أنفسهم عربا، في السودان يتندرون بالقول بأن النوبي إذا أفلح يصبح "طباخا"، وفات على المتندرين ان الطباخة هي عصب الحياة، وأنها فن لا يجيده إلا أصحاب الحضارات ومن لديهم "ثقافة طعام"، وقد ورثت عن أجدادي مهارات الطبخ، ويشهد لي الجميع بإجادة طبخ الفول المدمس!! هناك من سيضحك ويقول إن طبخ الفول لا يحتاج الى اي مهارة، لأنك تضعه مع بعض الماء على النار و"خلاص"!! ولكن هل تعرف أن إضافة بضع حبات من التمر أو العدس الى الفول وهي يغلي يعطيه طعما ومذاقا أفضل؟ نفعكم الله بعلمي الغزير

****

حدثني أبي بأنه لم يكن قط راغبا في امتهان الزراعة. وكان شقيقه (عمي الطيب)، وكان اسما على مسمى وصاحب دعابة، يعمل في شركة جنرال موتورز في الإسكندرية، فقرر أبو العبس أن يسير في دربه، وتسلل هاربا من بلدتنا (بدين) مع صديق له، وشقا طريقهما سيرا على الأقدام حتى وصلا أسوان في جنوب مصر بعد مسيرة أكثر من

شهر، وكان زادهما بعض التمر والشاي (ولكن كلما مرا ببلدة استضافهما أهلها للطعام والمبيت)، ومكث أبي في أسوان قرابة اسبوعين إلى أن بعث له الطيب بتذكرة القطار، وانطلق إلى الاسكندرية، وهناك أكرم أخاه الطيب وفادته لعدة أيام ثم أتاه بتذكرة سفر وقال له: أدينا عرض أكتافك، أي عد إلى السودان، ولما طنطن أبي ونقنق محتجا ومبديا رغبته في البقاء في مصر اضطر الطيب (كما روى أبي) إلى صفعه "قلمين" وقال له ما معناه: أنت أصغرنا نحن الأشقاء الذكور الأربعة، وعليك أن تحرس "العَقاب"، وهي بفتح العين تعني "الأهل والثروة"، وغادر أبي الاسكندرية وقرر البقاء في القاهرة، ولكن أخاه الطيب سمع بالأمر وجاء وداهمه وسحبه من أُذنه وأركبه القطار، ولم يغادر الطيب الرصيف إلا بعد ان انطلق القطار بأقصى سرعته.

ومن الواضح أن والدي ورث عني "نشفان الرأس" الذي هو العناد، فبدلاً من ان يعود الى بدين ليحرس "العقاب" الذي هو الإرث والعائلة، واصل أبي رحلته الى الخرطوم ونجح في الحصول على وظيفة في بواخر مصلحة النقل النهري، وكان مقرها الخرطوم بحري التي فيها ولدت ناطقا باللغة العربية (والتي نسيتها تماما بعد قضاء سنتين في بدين عندما أعاد أبي العائلة الى جذورها لنلتحق بمدارسها)، وكان مولدي في الأول من سبتمبر من عام ... (اختلف المؤرخون حول سنة مولد سي. دي. أبو الجعافر، فهناك من يقول إن ذلك كان بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وغيرهم يقول إنه كان في السنة التي وصل فيها الأمريكان الى القمر، وفئة تزعم إنه لم يكن قد تم تحديد أسماء وأرقام للسنوات عندما ولد أبو الجعافر)، وأمي اسمها آمنة فقيرحامد شوكت، وقد يمثل هذا مفاجأة حتى لبعض أهل بدين الذين يعرفون عائلتنا جيدا، ذلك ان الاسم الشائع لجدي لأمي هو "فقير بحرية" وتعني "فقيه المنطقة الشمالية"، وكان رجل علم ودين ومعلما للقرآن. وقباب أجدادي "المشايخ" لا تزال تزين حلة (حي) أب جاسي متوسطة المقابر. نشأت وأنا أسمع ان جدي الأكبر اسمه شوقتي Shogatti ولسبب لا أعرفه صار شوقتي "شوكت" وهو اسم تركي لا يمكن ان تحمله عائلة نوبية عريقة، خاصة وأنه لم يكن للأتراك خلال حكمهم للسودان مقر او ممثل في جزيرة بدين.. وفي عصور غياب الوعي بالهوية كان النوبيون يحسون بالدونية، وصاروا يعربون أسماء الأفراد والأماكن بطريقة جبر الكسور، فصار شوقتي شوكت وصارت عمتي فرين "فرحين" وصارت هولا خولة. هذا تعريب قسري، وفي تقديري معيب، فللنوبيين أسماء خاصة بهم مثل أرصد وأُرو وأرباب (وكلهما تعني الرأس/ السيد) وساتي. ولكن الأسماء النوبية كانت وما تزال أكثر شيوعا بين النساء: أليسا، دوانه، ودارا، وستونه ومياسة ومسكة وشيرا وهجلة إلخ

ولأجدادي مسجد عتيق وعريق في حي أب جاسي، يعود الى عدة قرون، وبالتحديد الى فترة انتقال النوبيين من المسيحية الى الإسلام، ويسمي النوبيون المسجد "مسيد" وبما ان علماء النوبة هم من نشر الإسلام في السودان الأوسط، فقد انتقلت هذه المفردة معهم، وما تزال مستخدمة لوصف المباني التي يتم فيها أداء الصلوات وتحفيظ القرآن في السودان الأوسط "العربي"..... بالتجنس

****

عندما أتيت جزيرة بدين صغيرا وناطقا بالعربية، بحكم المولد في الخرطوم بحري، وسنوات الطفولة الأولى في كوستي في السودان الأوسط، كان الشخص الذي يتولى الترجمة بيننا (أنا وإخوتي) وبقية أهل الجزيرة سيدة من قريباتنا، اسما ستنا مختار إدريس، وستنا وتعني "سيدتنا"، هو نفس اسم ستونة الشائع في شمال السودان النوبي، من حيث المعنى، لأنه يتألف من شطرين الأول "ست" والثاني "أونا"، ويعني "بتاعتنا/ خاصتنا"، ومشتقات هذا الاسم والتراكيب القريبة منه ما تزال شائعة في بقية السودان الذي استعرب: ست النفر، وست الأهل، وستِّي، وستيّة، وكانت ستنا مختار، وبذكاء فطري، قد التقطت بعضا من مفردات اللغة العربية، مع أنها لم تكن وقتها قد غادرت موطنها الناطق بغير العربية قط، وكنا نصيح في غياب أمي – مثلا- "مش عايزين ملوخية" فيرسلون مندوبا على ظهر حمار لاستقدام المترجمة لتقول لهم: مُلكييق فرقمنا.. فيسألونها: منقا فرقنا .. ماذا يريدون؟ فتطرح علينا السؤال بالعربية.. وهكذا دواليك.

وفي مدرسة بدين الابتدائية، عانيت خلال سنتي الأولى من العزلة الاجتماعية بسبب حاجز اللغة فلم أكن أفهم النوبية، ولا زملائي يعرفون شيئا من العربية العامية، وشيئا فشيئا صرت أفهم ثم أتكلم النوبية، وشيئا فشيئا نسيت العربية تماما وصار اسمي جافر أباس، وكنت – بدون فخر – من أكثر تلاميذ المدرسة بلادة وبؤسا أكاديميا، لأن حاجز اللغة منعني من تكوين بنية أساسية/ تحتية قوية تكون نقطة انطلاقي المدرسي. ففي بادئ الأمر لم أكن استطيع التواصل مع أقراني، مما جعلني انطوائيا، وبعد أن نسيت العربية، صرت لا أفهم شرح الدروس بالعربية! وعجيب أمرنا نحن النوبيين: نكتب مواضيع إنشاء بالعربية الفصحى ونتفوق فيها على الأعراب، ولكننا نعجز عن التواصل بالعربية بلغة الحياة اليومية.

وبالانتقال الى المرحلة المتوسطة حدثت لي الطفرة الأكاديمية الكبرى، ففي تلك المرحلة بدأنا تعلم الانجليزية، وكانت قصة حب من أول كلمة، فمنذ تلك المرحلة صارت الإنجليزية هواي وعشقي، وبانتهاء السنة الثالثة من المرحلة المتوسطة كنت قد قرأت جميع الروايات الانجليزية في مكتبة المدرسة، أي تقريبا جميع كلاسيكيات الرواية الإنجليزية وكانت في تلك المرحلة معادة الصياغة ومختصرة كي تسهل قراءتها على غير المتبحرين في الإنجليزية، وكانت الدرجات العالية التي أحصل عليها في اللغة الإنجليزية، تعوضني الدرجات المتلتلة التي كنت أخسرها في الرياضيات، وبدون فخر لم يحدث قط أن نجحت في حل مسألة جبر طوال مسيرتي الدراسية، وكان سر فرحي بدخول الجامعة هو أنه لم يكن واردا تدريسي الرياضيات تحت اي ذريعة.

كانت الأيام الأولى في مدرسة البرقيق المتوسطة في منتهى القسوة، فقد كان لزاما علينا أن نقيم في المسكن التابع للمدرسة والمسمى في السودان "داخلية"، تخيل: صبية صغار أكملوا فقط اربع سنوات من التعليم الابتدائي، وتتراوح أعمارهم ما بين 10-11 سنة يفارقون أهلهم ليقيموا في عنابر تضم أناسا من قرى وبلدات مختلفة، وكل واحد منهم يعاني مرارة فراق الأهل لأول مرة، والبرقيق، حيث كانت المدرسة، لم تكن بلدة او

قرية بالمفهوم المتعارف عليه، بل كانت منطقة في معظمها خالية من البيوت السكنية، ولكنها كانت منطقة شديدة الرخاء لأنه كان بها مشروع زراعي ضخم يغطي مئات الآلاف من الأفدنة، وكان الناس يتوجهون الى حقولهم على ظهور الحمير ويعودون الى بيوتهم في مناطق متفرقة في أول المساء، وبازدهار المشروع تحولت قرية "كرمة البلد" التاريخية الى بلدة مترامية الأطراف (هناك كرمة النزل – بضم النون - الى الشمال من كرمة البلد وسميت كذلك لكونها كانت محطة ينزل فيها الناس ويركبون القطار والشاحنات متجهين شمالا أو جنوبا، وكرمة هي مركز الحضارة النوبية التي تحمل اسمها، وبها قلاع تسمى الواحدة منها دفوفة تحرسها كباش منحوتة من الصخر تعود الى آلاف السنين، و"دِفِّي" بكسر الدال، وكسر الفاء المشددة، كلمة نوبية تعني القصر أو القلعة، وفي المتحف البريطاني في لندن قسم كامل لحضارة كرمة سرق الإنجليز محتوياته من شمال السودان النوبي خلال سنوات حكمهم للسودان (1899-1956)

****

كنا ونحن صبية قد تشبعنا بخرافات كثيرة عن الشياطين الذين يتخذون هيئات البشر، ولكن بحوافر حمير أو هيئات كلاب أو بعير، وكان بكل قرية من قرى بدين نقطة تجمع ليلية للجن. وتخيل نفسك مضطر للسير ليلا من حيّ الى آخر فتسمع همهمة تيس او حمار ولا تستطيع ان تجزم ما إذا كان حيوانا عاديا او شيطانا، وكان هناك كائن شرير اسمه سورنق جَدِّي soring Jaddi أي "شفاط الأنوف"، وكان - على ذمة أهلنا - يقيم عادة في حقول الذرة، وإذا أمسك بك يشفط السوائل من أنفك - ليس لتخليصك من التهاب الجيوب الأنفية - بل حتى يشفط مخك فتسقط ميتا، ولم نسمع قط عن شخص مات ضحية الشفط من سرنق جدي، ولكن التحذير من غدره كان يلازمنا كلما دخلنا المزارع. وكان هناك السحاحير (ومفردها سَحَّار) وهم أصلا بشر مثلي مثلك، ولكنهم يتحولون ليلا إلى كائنات شريرة لها ذيول يهجمون على بني البشر اللي من غير ذيول ويقتلونهم، ولم نسمع قط عن شخص مات أو أصيب على يد سحار، ولكن الخوف منهم كان متجذرا في كبارنا وصغارنا، ومن الشائع في السودان الشمالي أن القيادة القومية للسحاحير هي جزيرة ناوا، وأهلها نوبيون، ولبست فيهم تهمة التحول الى كائنات شرسة كما لبست السودانيين تهمة "الكسل"، ولكن لا بأس ففي مصر آلاف النكات عن "قصور فهم" الصعايدة كما هو الحال بالنسبة لأهل حلب في سوريا والخليل في فلسطين، مع أن مروجي تلك النكات أصلا أهالي تلك المناطق/ المدن ذات العراقة والأصالة

وكان هناك كائن آخر اسمه دُقُر dogor وكان أيضا يعتدي على الناس ويقتلهم او يلحق بهم إصابات جسيمة، وأتينا مدرسة البرقيق وثقافة الرعب متمكنة منا، فإذا بنا أمام خطر حقيقي شاهده المئات وشاهدته نفسيا عدة مرات: الضباع!! فلأن منطقتنا محاصرة بما يعرف بالصحراء النوبية، وبما ان مزارع المشروع الزراعي التي كانت المدرسة تتوسطها، لم تكن مأهولة ليلا، فقد كانت الضباع تتسلل الى المدرسة كل مساء. خذ في الاعتبار أننا كسائر السودانيين كنا ننام في الفضاء المفتوح (الحوش) وليس داخل الغرف صيفا، وأن المدرسة لم يكن بها سوى سور من نبات يسمى العوير والأهبل (الأبله)، عن

استحقاق وجدارة ولم أر في حياتي نبتة في بلاهة وعباطة "العوير" ذاك، فلو كسرت اي جزء منه وغرسته في أرض يباب، نبت وأزهر بعد أيام، اي أنه ينمو ب"التيمم" ولا حاجة به إلى ماء أو أوكسجين أو أشعة شمس، ولم يكن السياج النباتي يمثل عقبة أمام الضباع التي كثيرا من استيقظنا ليلا لنجدها تتجول بين الأسرة الموزعة في فناء المدرسة، وبسبب الضباع كنا نمتنع عن شرب السوائل بعد غروب الشمس، فأي شيء يستوجب زيارة دورة المياه ليلا.. بلاش منه، ومن يتعرض لزنقة تضطره الى الذهاب الى الحمامات ليلا، كان يستنجد بنحو أربعة من النائمين حوله كي يصاحبوه في المشوار، لأن الضباع لا تهاجم عادة إلا الشخص الغافل.

كانت مدرسة البرقيق تضم طلابا من قرى تقع على بعد عشرات الكيلومترات منها، ولكن معظمهم كانوا من النوبيين الذين لا يحسنون التخاطب بالعربية، كان أول ناظر (مدير) للمدرسة هو أستاذنا الجليل الرائع مدني محمد عبد الماجد، وكان من حي "بيت المال" في أم درمان، ولم يكن معنيا فقط بأن يتفوق تلاميذه أكاديميا، بل كان له دور "تنويري"، فقد كان جميع طلابه قرويين لم يروا الكهرباء ولا السينما ولا الثلج أو الآيسكريم، ولهذا كان يشكل حلقات سمر في الأمسيات ويحدثنا عن عجائب المدن والاختراعات الحديثة بل وفر المال اللازم لتزويد كل تلميذ بفرشاة وأنبوب معجون أسنان، وكنا قبلها في غالب الأحول ننظف أسناننا بأعواد خضراء من جريد النخل

******

من باب التذكير بما قلته في مقدمة هذه السلسلة، فإنها لا تتعلق بسيرتي الذاتية بقدر ما تتعلق بسيرة وطني، وبالتحديد تلك الأجزاء من الوطن التي عشت فيها، أحاول هنا تسجيل الواقع الاجتماعي لحقبة معينة من تاريخ بلدي في زمن تعرضت فيه العادات الاجتماعية للتحوير والتحريف باسم "الحضارة"، وبما أنني "الشاهد" على الوقائع التي أسردها فبالضرورة يكون السرد بضمير المتكلم، ولست بحاجة الى تلميع نفسي والإشادة بإنجازاتي المهنية والفكرية، فالتاريخ يشهد بأنني صاحب نظرية الاشتمالية في الحكم، وهي النظرية التي توصلت اليها بقراءة حال العرب السياسي، فمعظم الدول العربية محكومة بتلك النظرية، ولكن مع التكتم على ذلك، فهناك جرعة من الاشتراكية، تتمثل في ملكية الدولة لبعض القطاعات الاقتصادية والمالية، ثم "مشاركتها" للمواطن في لقمة عيشه، وهناك الرأسمالية التي صارت تتمثل في الخصخصة وتعني أن تخُص فئة خاصة بمؤسسات عامة رابحة وتجعلها خصوصية، ولا يخص أمرها بقية أفراد الشعب، وهذا الكوكتيل العجيب من الرأسمالية والاشتراكية يعيش في تناغم بفضل الشمولية التي تمارسها لأجهزة الحكومة لضمان أن يلزم كل مواطن "حدوده" ولا يتطاول على "الكبار"

وفي المرحلة المتوسطة حدث الطلاق البائن بيني وبين الرياضيات، وكنت حتى تلك المرحلة استطيع ان أنجز بعض عمليات الجمع والطرح وأعرف حواصل ضرب 5 و10 في الأعداد حتى 12، ولكن ما ان دخلنا في علم الجبر حتى اصبت بكسر في الدماغ استعصى على "الجبر"، وفيها عشقت الشعر العربي وكنت أقوم بإلقاء القصائد

في "الجمعية الأدبية"، وفي ظل "نظارة" أستاذنا الفاضل محمد بشير الأحمدي وكان "خواجة" في اللغة الانجليزية، انتبهت الى ضرورة تحسين إلمامي بالعربية، فرغم أنه كان سعيدا بتفوقي في الإنجليزية، إلا أنه لم يبد ارتياحا لما لمسه عندي من كره اللغة العربية و"سنين" اللغة العربية. على وجه التحديد كنت أكره قواعد اللغة وليس اللغة "ككل". بطبعي لا أحب الألغاز وأحب الوضوح، وبالتالي لم تكن تستهويني طلاسم من نوع "الفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنت، والمفعول به عديم الضمير، ولأن الله يمهل ولا يهمل فقد وقع ضحية النصب بالفتحة المقدرة في الحرف قبل الأخير منه"!! وانتبه الأحمدي لحبي وتذوقي للشعر، وأهداني ديواني الخمائل والجداول لإيليا أبو ماضي وبسبب التكرار الذي يعلم الحمار حفظت قصائد الديوانين، وركبني الغرور وقلت لنفسي: أنت مش أقل من إيليا والمتنبي، فلماذا لا تبدأ بالشعر الغنائي، وجاءني شيطان الشعر أثناء درس في اللغة العربية، فانتزعت ورقة من الكراسة وكتبت فيها استهلال أخطر قصيدة غزلية في الشعر المعاصر، وفجأة وجدت مدرس اللغة العربية وكان طوله نحو مترين، وعرضه متر و74 سنتيمتر، وسمكه متران إلا ربع، يقف الى جانبي ثم ينتزع الورقة من يدي وبعدها بثوان هوى بيده على قفاي .. طاخ: .ما هذا يا حمار؟ هذه حصة للدارسة وليس للمسخرة يا ابن ال........ (ونسب أبي الى نوع من الحيوانات الأليفة المشهود لها بالوفاء). كان مطلع القصيدة المجهضة (وقد أشرت إليها عشرات المرات في مقالاتي) يقول: من نارك يا جافي *** أنا طالب المطافي، حبيب تنهش النيران قلبه بسبب طناش المحبوب، فاضطر الى الاستنجاد بسيارة إطفاء، وفي هذا مزج بين المعاصرة والأصالة، لأن هجران وتدلل الحبيب أمر مستهلك في الشعر العربي، وتمثلت الإضافة الجعفرية في إدخال التكنولوجيا ممثلة في عربة الإطفاء في الشعر العربي.. ومع هذا قتلت موهبتي الشعرية.. وصار ذلك البيت اليتيم مقدمة ومتن ومؤخرة القصيدة

*****

المعروف ان أهلي النوبيين من المحس والدناقلة أول من "اكتشف" السعودية، وكانوا اول من هاجر اليها، وكان المغترب في السعودية يسمى "جداوي" نسبة الى مدينة جدة، وعندما حصلت على وظيفة في شركة أرامكو السعودية في الظهران في أواخر السبعينات قالت أمي: إن شاللا (إن شاء الله) ستجد وظيفة في جدة قريبا!! وعندما تركت الظهران الى قطر والأمارات، اقتنعت أمي بانني لن انجح في "تكوين نفسي" لأنني لم أجد فرصة عمل في جدة، ولكن معظم أهل بدين اختاروا "الاغتراب" في السودان، واختار كثيرون منهم، وبينهم والدي العمل في "البابورات" التي هي البواخر النيلية، انطلاقا من الخرطوم بحري ثم كوستي، وكانوا يمارسون تجارة بسيطة في رحلاتهم من والى جنوب السودان ويأتون ببضائع من أوغندا واثيوبيا أما الصامدون في بدين لتولي شؤون رعاية الأرض والزراعة والنخيل (بالذات)، فقد كانت حياتهم العملية اليومية تبدأ في السابعة صباحا وتنتهي في نحو العاشرة صباحا.

في عصر الساقية (أداة لرفع الماء من النهر او البئر تدار بالثيران) كانت ساعات العمل طويلة، لأن ري خمسين مترا مربعا من الأرض كان يستغرق نحو عشر ساعات، ولكن بدين عرفت المشاريع الزراعية الحديثة القائمة على المضخات التي تعمل بمشتقات البترول منذ أواخر الأربعينات، ولا يجوز الحديث عن مسيرة بدين دون الحديث عن "موسليني"، وكان اسمه الأصلي محمد عثمان فقير علي، ولعل اسم موسليني التصق به خلال الحرب العالمية الثانية في الأربعينات عندما ذاع ذكر ديكتاتور ايطاليا بينيتو موسليني (الدوتشي)، وربما ربط الناس بينه وموسليني الأصلي لأن كليهما كان ذا قدرات خطابية وجماهيرية عالية، وقد كان محمد عثمان موسليني - وتربطني به قرابة من الدرجة الأولى - فصيح اللسان بالعربية والنوبية، وكان ينتمي الى أقلية تعرف القراءة والكتابة، ولكن ما ميزه عن غيره هو أنه كان مؤمنا بأهمية التعليم النظامي ويعتبر "الخلوة" بمثابة روضة تعد الأطفال للالتحاق بالمدارس الابتدائية الحكومية، والخلوة اسم يطلق في السودان على اي مركز لتحفيظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة والكتابة خارج إطار التعليم النظامي، ومضى موسليني الى أبعد من ذلك فبنى في بيته بضع حجرات جعل منها شيئا ما بين الخلوة والروضة الحديثة، يدرس فيها الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب.. ولكن بدون كراسات، فقد كان على كل طفل ان يمسح التراب الذي أمامه ويجعله متساوي التضاريس ليكتب بأصابعه عليه، وكان موسليني يستعين احيانا بصبية شاطرين ليساعدوه في شؤون التدريس، وكان بعضهم سلطويا باطشا، وكان أحد اولئك المعاونين متغطرسا ويبحث عن أية ذريعة لضرب التلاميذ، وذات يوم قال لهم اكتبوا كلمة أسد فكتب أحدهم كلمة عسل، وبداهة فقد نال ضربة، والمعلم الصغير يقول: أسد يكتبوه كده يا هُمارة، (هكذا .. حمار تصير في النوبية "همار" وبما ان النوبية ليس فيها تذكير وتأنيث فإن حمارة تصبح "همارة")، ومسح صاحبنا رقعة الأرض التي أمام التلميذ الذي لا يميز بين الأسد والعسل، ليريه كيف تكتب الكلمة على النحو الصحيح.. وفوجئ الصغار به وهو يصرخ من الألم!! وما حدث هو أن ذلك التلميذ الشقي كان قد قرر ان يعاقب المعلم الصغير على غطرسته، فأتى بشرك (فخ) طيور ودفنه أمامه، بعد ان ربطه الى خيط/ تكة سرواله، وتعمد كتابة كلمة "أسد" خطأ، وهكذا انطبق الشرك بقوة على يد المعلم الصغير وهو يمسح التراب الذي دُفن فيه الشرك، فكان صراخه، ولم يكن من سبيل امام الطفل الشقي سوى الهرب، ولكن الشرك الذي كان مربوطا بسرواله كان مطبقا بإحكام على يد المعلم فلم يجد الطفل مناصا من أن يقول: ما بدهاش، وأن يملص سرواله ويتركه معلقا في يد المعلم مع الشرك.

خيري مختار والثعلب المكار

كان عمي محمد عثمان فقير علي الشهير بموسليني، فارس العمل التعاوني في الجزء الذي يخصنا من بلدتنا بدين، التي كانت مقسمة إلى أربع مشيخات (شبة وتوشي وسقدان وسلنارتي التي تسمى أيضا وابيّه) وعموديتين، وكان عمدة سقدان "يحكم" قرى وبلدات البر الشرقي، بينما كان عمدة توشي وشبة يحكم مناطق شاسعة في البر الغربي

لجزيرتنا، وهذا يعطيك فكرة عن ضخامة مساحة بدين، ومكانتها في المنطقة، وأعود الى عمنا موسوليني وأقول إنه ما من مشروع زراعي أو طاحونة او دكان تعاوني قام على مدى نصف قرن، إلا وكان هو من يجمع المساهمات ويسافر لشراء المعدات ويغشى المكاتب الحكومية للحصول على التراخيص والتصاريح الخاصة به، وكان أيضا خطيباً وإمام "جمعة"، وكان لديه كتاب نجا من طوفان نوح يضم نحو سبع خطب نشف بها ريقنا على مدى عشرات السنين، وكان الكتاب مهلهلا من كثرة الاستخدام، وذات جمعة كان يهدر بالخطبة الأولى في المسجد فتساقطت بضع وريقات فجمع شتاتها، ولأنها لم تكن مرقمة فقد عجز عن ترتيب الصفحات على النحو الصحيح فقال: يللا أقم الصلاة!! كان رحمه الله صاحب دعابة وضحكة مجلجلة، بل كان يضحك ويُضحِك غيره وهو يلقي المواعظ الدينية.. وذات مرة خاطب حلقة من الرجال بقوله انه لاحظ انهم يتبادلون التحايا مع النساء "من طرف" بالأحضان والمصافحة باليد، وأن ذلك حرام! فقال له أحدهم: لقد ظللنا نفعل ذلك طوال عمرنا فلماذا لم تخبرنا بحرمته من قبل، وأنت شيخنا وكبيرنا؟ فقال موسليني: أيقُن إيلين أُكِّس.. وأنا لم أسمع بهذا الأمر إلا مــؤخرا.

كان رحمه الله شخصية فذة، وكان المرشح الذي يحظى بمساندته في الانتخابات يضمن لنفسه عشرات الآلاف من الأصوات، فقد كان ذا خبرة في التعامل مع أهل السلطة، ولم يكن يخاف من "الحكومة" كما هو حال القرويين.. ومثل مرة أمام القاضي في مدينة دنقلا، وأثناء المداولات قام محامي الطرف الآخر بمخاطبة القاضي أكثر من مرة بالإنجليزية، فلما جاء الدور على موسليني بدأ يتكلم باللغة النوبية، فصاح فيه القاضي: شنو ده يا حاج؟ تكلم بلغة مفهومة!! فرد موسليني: لما المحامي يتكلم بلغة مفهومة!! فضحك القاضي ومنع المحامي من استخدام المفردات الإنجليزية

كان ليومي الاثنين والخميس مذاق خاص في جزيرة بدين لأنهما يوما "السوق"، حيث كان التجار يأتون الى سوق البلدة من كافة أنحاء المنطقة، وكان المحظوظون منا من يملكون السيولة لشراء حلاوة "لكّوم"، ويسميها غيرنا "راحة الحلقوم"، ولكن سر سعادتنا بيومي السوق كانا يكمنان في أننا كنا نتعاطى اللحم في ذينك اليومين، وكنا أحيانا نشهد طفرة طعامية في غير ذينك اليومين، عندما يقوم أحدهم بذبح بهيمة "كيري"، أي بدون ترخيص داخل الحي، ويوزع لحمها على كل البيوت بنظام الدفع المؤجل، وذات مرة وزع أخونا خيري مختار لحما على كل البيوت بواقع ثلاثة قروش للكوم الواحد، واستمتع الكبار والصغار ب"اليخني"، الذي يسميه بعض أهل السودان "الدمعة"، ربما لأن تقطيع وتحمير البصل لإعداد تلك الطبخة، التي يشكل اللحم والطماطم/ الصلصة أهم عنصرين فيها بعد البصل، يؤدي إلى جريان الدمع!! المهم أن امرأة فاتها توزيع اللحم طلبت من خيري. أن يسلخ لها رأس البهيمة، فطلب منها ان تذهب الى حيث تشاء لتعطيه وقتا لسلخ الرأس ثم تعود فتأخذه، ولأمر ما عادت المرأة بعد ان قررت أن تكون بجواره لتستعجله سلخ الرأس، ولما أنتبه إلى أنها عادت، انحرفت السكين وانغرست في يده اليسرى.. حدث ذلك نتيجة صرخة صدرت من المرأة، فقد كان خيري يسلخ رأس

ثعلب، اصطاده بأن كمن في جحره، وما أن دخله حتى انقض عليه .. وإلى يومنا هذا لا يعرف أهل حينا الذين أكلوا لحم الثعلب في ذلك اليوم ما إذا كان الثعلب قد مات فطيسا ام مذبوحا "حلالا"!.. ومع هذا أفلت خيري من العقاب فقد كان محبوبا من الجميع، ولم يسلم من مقالبه كبير او صغير في الحي.

****

الولد الذي وفر مصل السعال الديكي

كان خيري مختار "رأس هوس" في حينا بسبب عشقه للمقالب، وذكرت في المقال السابق كيف أنه باع لحم ثعلب لأهل الحي، ولم تكتشف أمره إلا امرأة فاتها شراء اللحم وطلبت منه سلخ راس "البهيمة"، فطلب منها ان تعود إليه بعد فترة زمنية قصيرة حتى يفرغ من السلخ، ولكنها عادت بأسرع مما توقع وفوجئت بأن الرأس يخص ثعلبا!! وبعد تلك الحادثة بسنوات توفي أبوه، وكان رجلا صالحا متعبدا، واجتمع خلق كثير في مسجد الحي حيث أقيمت مراسم العزاء، وكالعادة بات العشرات ليلتهم في المسجد القريب من بيت المتوفى، وفي الصباح أيقظت النسوة خ.م. وطلبن منه النزول الى الحقول لجلب اللبن لإعداد الشاي،.. كان من حق خيري حسب العرف السائد ان يدخل حظيرة أبقار من يشاء ليحلب من اللبن ما يشاء،.. ونهض صاحبنا متثاقلا في باكورة صباح شديد البرودة ليأتي باللبن بكميات تجارية لجيش جرار من المعزين، وبعد فترة وجيزة عاد حاملا ليترات كثيرة من اللبن الطازج، واستيقظ الجميع ودارت أكواب الشاي الساخن مثنى وثلاث ورباع، فقد كان الشاي دسما ولذيذا، ويقول الرواة ان أياً ممن شربوا الشاي في ذلك الصباح لم يصب بالسعال الديكي، لأن لبن الحمير خير دواء لذلك المرض (كما هو معروف في دوائر الطب البديل – وليس فقط في "بدين"، بل في عموم أنحاء السودان الشمالي) وذاعت الحكاية، وعرف الجميع ان خ.م. حلب حمير المُعزين وسقاهم لبنها، ولكن ضحايا خ.م. اكتفوا بقولهم: الله يجازيه خيرا.. ولد شقي.. لكن ابن حلال! نعم فقد كان ذلك الفتى البارع في المقالب شهما وذا مروءة، وكنت تجده في الأفراح والأحزان يخـــدم الجميـــع بهمـــة ونشـــاط، مـــا لـــم يركبـــه عفريـــت.

كانت طقوسنا في الأفراح والأتراح مزيجا من الوثنية والمسيحية والإسلام: رسم الصليب على جبهة الوليد. وعلى صومعة تخزين الغلال (القسي/القسيبة)، والاستعاذة من الشر بعبارة "ماريا مي"، والعبارة تأتي بهذه الصيغة في الكثير من اللغات الأوربية المعاصرة ذات الصلة باللاتينية أو اليونانية القديمة، وتجد الشيء نفسه في اسماء ايام الاسبوع: سانتي ليوم السبت (القديس في الكثير من اللغات الأوربية هو سانت او سينت او سان) وكراقي ليوم الأحد (كرياكي باليونانية)، ومسوقو ليوم الجمعة، وتتألف الكلمة من شطرين هما مسي وتعني الصوم و"أوقو" وتعني "يوم"، ويوم الجمعة هو يوم الصوم في الكنيسة الشرقية،.. والاحتفال بعاشوراء كان يتم قرب شاطئ النيل، حيث كانت العائلات تجلس في حلقات حول صحون الطعام الشهي، ولكن اول لقمة من كل صحن كانت تُرمى في النيل، النهر الإله، مصدر الخير الذي لابد من نيل "مرضاته"، حتى يفيض بالماء دون غضب او انفعال يهدد الزرع والضرع، وبعد دفن الميت، كانوا

ينصبون على القبر مظلة من جريد النخل، وفي الأعياد يضعون التمر والكعك والحلوى قرب رأس الميت (القبر)،.. لم يكن الناس بالطبع يدركون انهم يأتون شيئا يخالف صحيح الإسلام، فقد كان ذلك زمن يصلي فيه البعض وهم يقولون عوضا عن قراءة الفاتحة أو سورة او الاثنين معا: وو نور أي إقد إنّا مل أي كج إنا مل!! يا إلهي أنا نعجتك، أنا حمارك!! كان ذلك إسلام الأطراف القائم أساسا على قول الشهادتين واستيفاء الأركان الأربعة الأخرى، دون تمعن او تبصر، ورجعت بالذاكرة القهقرى مرددا الأغنيات النوبية التي كانت رائجة في مرحلة صباي، فوجدت جميعها تبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

****

تعليم غير شكل.. حاجة تانية

كنت منذ الصغر مولعا بالقراءة والمطالعة، وكان أكثر ما يشوقني لاستقبال القادمين الى جزيرة بدين من البنادر (المدن)، أنهم كانوا يلفون أحذيتهم قبل وضعها في الحقائب بالجرائد، وكنت احرص على التقاط تلك الجرائد أثناء قيامهم بتفريغ محتويات حقائبهم، وكانت الجريدة المضمخة بعطر أحذية جلدها مدبوغ محليا بمواد تفتك بالأنف والأذن والحنجرة، عندي بمثابة منتجات إيف سان لوران في عصرنا الحالى، واقع الأمر هو أن معظم ابناء وبنات جيلي كانوا مولعين بالقراءة، لأن المناهج المدرسية التي كانت تتعرض في معهد "بخت الرضا" للغربلة والتجريب والتنقيح كانت تشجع على ذلك، وفي المدرسة الابتدائية كانت هناك حصص المطالعة، وحصص "الموضوعات" التي تسمح لك بحرية التعبير حول مختلف الشؤون "المحلية"، وكانت هناك المدونة الشهرية التي كنا نسجل فيها ملاحظاتنا حول المتغيرات البيئية: شاهدت اليوم طائر الشُكشوكي واسمه بالعربية الهدهد الذي يظهر عادة مع قدوم الشتاء،.. النخلة التي في بيتنا بدات بطرح الثمار وهو أمر غير مألوف في شهر نوفمبر، مما يعني ان ثمارها ستكون "بَكَّة" اي بدون نواة او طعم!! وكانت بالمدارس الابتدائية مكتبات بها كتب كامل كيلاني وجورجي زيدان والمنفلوطي، أما المدارس المتوسطة فقد كانت مكتباتها عامرة الى جانب كتب طه حسين والعقاد وغيرهما بالروايات الانجليزية الكلاسيكية، وبتشجيع من ناظر لمدرسة البرقيق الوسطى، قرأت كل الكتب الانجليزية والعربية في مكتبة المدرسة، فصار يعيرني كتبا من مكتبته الخاصة، بل هو من غرس في قلبي حب اللغة العربية بأن دلني على دواوين الشعر الجميل، ثم وجدت عند شقيقي عابدين في كوستي تلالا من الروايات العالمية المترجمة فاطلعت على كلاسيكيات الأدب الروسي والفرنسي، وقرأت عشرات الكتب من سلسلة "اقرأ" المصرية وكتب "الهلال".

قال لي مدرس سوداني إنه ذهب ذات مرة الى جامعة يابانية في دورة دراسية، إنه فوجئ ان جانبا من المحاضرات مخصص لدراسة تجربة معهد بخت الرضا، و"طلع صاحبنا فيها" عندما أخبر القائمين على أمر كلية التربية في تلك الجامعة إنه نال التدريب عدة مرات هناك،.. والشاهد هو أنه كانت للمعهد شنة ورنة، لأنه كان يقوم على دعائم تربوية محضة، وكان الكتاب المدرسي يخضع فيه للتجريب والتطوير والحذف

والاضافة على مدى عدة سنوات قبل إقراره وتوزيعه، وكانت المناهج - بالتالى - تتسم بالثبات والاستقرار، لأنها كانت خالصة لوجه التربية والتعليم، ولا تهدف الى غرس مفاهيم الفكر السياسي الحكومي في عقول الطلاب.. وكان للنشاط اللاصف -extra-curricular نصيب كبير في حياة الطلاب، كنا مثلا نقضي جانبا كبيرا من حصص الجغرافيا ونحن في فناء المدرسة نبني نماذج للبلدان او الأنشطة التي ندرسها، وكانت في المدارس الابتدائية حصص للفلاحة، وكانت في كل مدرسة حديقة جميلة، وفي مساء كل يوم اثنين كانت هناك الجمعية الأدبية، حيث تجد المواهب الواعدة فرصتها لتلمس طريقها.

****

على أيامنا كانت جميع المدارس ملزمة بممارسة نشاط مسرحي منتظم، وأذكر اننا في مدرسة البرقيق الوسطى قمنا بتمثيل مسرحية مجنون ليلى الشعرية لأحمد شوقي، وطفنا بها المنطقة على امتداد نحو 300 كيلومتر، وقضينا خلال الجولة على نحو مائة خروف، تبرع بها الأهالى، فأينما ذهبنا حلف الناس علينا بالطلاق ان نحل ضيوفا عليهم.. أمرنا لله، فما لم نلب ونقبل الدعوات، كانت ستحدث موجة طلاق وبائية، (ولو كان الحلف بالطلاق على الطريقة السودانية مقبولا شرعا لكان ثلثا نساء السودان سكند هاند.. وأنا أقوم بتنقيح هذا المقال تذكرت ما قاله مفتي مصر مؤخرا بأن جميع طلاقات المصريين فالصو وما تنفعش لأن الرجل يقول لزوجته "أنت طالئ" وليس "طالق".. وسؤالي لسيدنا الشيخ: لو قال المصري "نويت الحق" بالقاف العامية المسماة بالجيم المصرية، هل تعتبر النية "واصلة".. ولو دعا مصري لديه ولد مريض اسمه قنديل بقوله: يا رب أشف "أنديل"، هل يعتبر دعاءه زي قِلّته" اي كأن لم يكن؟)
شرّقنا بالمسرحية وغرّبنا، ولكن الأهالي كانوا يربكون جدول أعمالنا والتزاماتنا: نكون متجهين الى بلدة ما لتقديم عرض سبق الإعلان عنه، فينصب لنا اهل بلدة أخرى كمينا ويحلفون علينا ان نقضي ليلتنا عندهم، فنقابل كرمهم بما يليق به، وننصب مسرحا كيفما اتفق، ونقدم لهم عرضا ثم نفتك ببضع رؤوس من التيوس والخراف!(وفي إحدى مدارس أواسط السودان، كان هناك عرض مسرحي دُعي إليه أولياء أمور التلاميذ، وكان من بين الممثلين فتى يقوم بدور السلطان، وكان مكلفا بقول جملة واحدة فقط لا غير خلال المسرحية، فعندما يقول له الحاجب: بالباب رجل يا مولاي، كان على صاحبنا ان يقول: دعه يدخل،.. وتدرب السلطان على تلك الجملة عشرات المرات خلال البروفات، وجاء اليوم الموعود وامتلأت ساحة المدرسة بأولياء الأمور، وجلس الناظر (المدير)، ومعه كبار أعيان البلدة في الصف الأمامي، واستمر العرض المسرحي سلسا، وجاءت النقطة التي قال فيها الحارس: بالباب رجل يا مولاي، فصاح السلطان: دعه يخُش،.... وصاح الناظر: دعه يخش يا ابن ال - - - - - - (كلمة غير لائقة).. اصبر .. حتشوف أسوي فيك شنو! ما فات على الناظر المسكين هو ان أيا من الحاضرين لم يكن يعرف أن "يخُش" غير فصيحة!)

معليش نشفت ريقكم بالحديث عن بدين ومراتع الصبا فيها، ولكنني سأواصل السيرة والمسيرة لأنني مستمتع بها، وأحد أسباب استمتاعي بهذه السلسلة، هو أنني اكتشفت ان ذاكرتي، خاصة في ما يتصل بجزيرة بدين "حديد". الغريب في الأمر هو أنني فارقت بدين لآخر مرة، قبل أكثر من أربعين سنة، وعشت بقية سنوات عمري ما بين كوستي والخرطوم والخرطوم بحري ثم منطقة الخليج، ومع هذا فإنني أتذكر تفاصيل التفاصيل عن بدين واهلها وإيقاع الحياة فيها، إنها في ما أعتقد حكاية "ما الحب إلا للحبيب الأول"، وربما مرد تعلقي ببدين هو إنها وطني "الحقيقي"، ففي الخرطوم او كوستي تعرف إنك غريب ديار وغريب أهل، وعلاقاتك بالناس هناك "ترانزيت".. جارك لنحو عشر سنوات ينتقل الى بيت آخر، وقد لا تراه مرة أخرى أبدا، وبالمقابل فكل شخص في بدين كما في سائر إرجاء الريف السوداني، يبقى في بيته من المهد الى اللحد، وكل الناس من حولك أنقي/أبو ننقا/ أنين بس.. خالي، عمي او خالتي، .. وبصراحة أكثر فإنني وبصفة عامة اعتبر - خاصة في ديار الغربة - كل نوبي من أقاربي،.. هل تعتبر هذا عنصرية؟ انت حر، ولكنك لا تعرف معنى تلك الكلمة،.. ولا تعرفني، فقد نشأت مبرأً من كافة أشكال الاستعلاء على الآخرين (رغم علمي أن النوبيين أكثر أهل السودان المعاصر تمسكا بالخصوصية الثقافية والحضارية، .. ومن نسي قديمه تاه،.. ومن لا يعجبه هذا الكلام يستطيع ان يسافر على نفقتي الى البحر الميت ليشرب منه كفايته، قبل أن يجف)

*****

كلما تذكرت سنوات دراستي في مدرسة بدين الأولية/ الابتدائية، كلما أزددت تعلُّقا ببيت من شعر لمحمود سامي البارودي: خلقت ألوفا، لو رُدِدت الى الصبا/ لفارقت شيبي موجع القلب باكيا،.. ولو كان ممكنا أن يعود الانسان الى أطوار نشأته الأولى، لكنت أول الرافضين لذلك، فما علق بذهني عن مراحل الدراسة ما قبل الجامعية هو الضرب الموجع الذي أدمى مؤخراتنا، والذي قل ان أفلت أحدنا منا منه مرة في الأسبوع على الأقل،.. في السنة الثانية لي في مدرسة بدين الأولية ابتلانا الله بمدرس "زُهجي، أخلاقه في مناخيره، وعلى الهبشة"، وكان غريب الأطوار، يجلس على الكرسي فور دخوله حجرة الدراسة واضعا أمامه عددا من الأحذية القديمة التي كان يقذف بها في وجوهنا كلما أخطأنا في تسميع القرآن او الإجابة على الأسئلة التي كان يوجهها الينا، وكان مقرر الدين يقوم اساسا على التلقين الببغاوي الذي هو الحفظ غير المصحوب او المسبوق بالشرح، وكنا ندرس شيئا من "العبادات" ولكن أيضا بطريقة الحفظ "الصم " دون فهم: الفور والدلك (الوضوء)،.. الطمأنينة والاعتدال (الصلاة)،.. الجهر في محل الجهر والسر في محل السر (الصلاة).. جدعة، بنت لبون (الزكاة)، والأحذية القديمة التي كان مدرسنا سامحه الله يطلقها في وجوهنا، كانت من النوع الذي يلحق بالانسان عاهات مستديمة لأنها كانت أحذية بلدية من الجلد الذي يتيبس بطول الاستخدام والتعرض للماء، ولم يكن الناس في ذلك الزمان يتخلصون من الحذاء القديم الا بعد تعذر الحصول على

منفذ فيه لمسمار جديد، وهكذا كانت الأحذية الملقاة في الشوارع بعد ان صارت غير صالحة للترقيع "مصفحة"، ويزن النعل وحده نحو كيلو جرام،.. وتخيل كيلو جراما من المسامير موجها نحو وجهك وعمرك نحو سبع أو ثمان سنوات،.. هاج ذلك المدرس ذات مرة وكاد ان يمارس بحقنا القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد، فقد كان مطلوبا منا ان نحفظ انشودة "طلع البدر علينا"، وفي اليوم المحدد "للتسميع" طلب منا ان نؤديها سويا، فوقف نحو 50 تلميذا من النوبيين المحس والدناقلة مرددين: تلأ البدر ألينا/ من سنيات الوداء/ جئت شرفت المدينة/ مرهبا يا هير داء،.. لم نفهم سر هيجان المدرس واندفاع الشتائم من فمه كالرصاص: يا أولاد الكلب يا عجم يا بجم،.. سيد الخلق وشفيعنا يوم القيامة "خير داء"، بسبب عدم وجود حرف/صوت العين في اللغة النوبية نطقنا "طلع البدر علينا" "تلأ البدر ألينا"، وصارت "مرحبا يا خير داع".. "مرهبا يا هير داء" – وحاشا أن نكون نحن النوبيين الذين لا نبدأ عملا جماعيا إلا بأنشودة "الصلاة على النبي" أن نعتبر دواء الأمة ومن أتاها بالشفاء من كل علة، "داء" بس نعمل إيه في ألسنتنا المربوطة.. المهم ان المدرس انهال على الواقفين في الصف الأمامي بالضرب بعد ان طاشت الأحذية القديمة التي كان متسلحا بها بعد ان تعلمنا كيف "نزوغ" منها،.. ولم يبق ذلك المدرس طويلا في مدرستنا فقد اختفى في ظروف غريبة، وسمعنا لاحقا انه نقل الى مدرسة في جنوب السودان وأنه قتل على أيدي المتمردين هناك.

كيف نسف موسليني مقر الشياطين

تذكرت ذلك المدرس الذي كان يضربنا – فعلا لا مجازا – بالجزمة القديمة، بعدما التحقت بمدرسة وادي سيدنا الثانوية "الأصلية"، وهي التي استولى عليها العسكريون وحولوها الى كلية حربية وقاعدة جوية، وكان من سعد طالعنا ان يدرسنا الأدب العربي الاستاذ الهادي أحمد محمد صالح، وكان شاعرا، وكان أبوه هو الشاعر الذي يحفظ له ابناء السودان أجمل القصائد الوطنية، ومن بينها النشيد الوطني السوداني، وكان (الأب) يوما ما عضوا في مجلس السيادة،.. لم يكن الهادي يقف على رجليه قط في غرفة الدراسة، بل كان يسحب كرسيا ويجلس عليه فور دخوله الغرفة، ويقدم دروسه بصوت خفيض، وكانت تعابير وجهه تدل على أنه يحس بالقرف ويدرس "من غير نفس".. كان يدرسنا المنهج المحدد وعلامات الإحساس بالضيق بادية على وجهه، وكنا ننصت بأدب لكل ما يقوله لأنه كان دائم"التخريم" خارج المقرر ليقول لنا كلاما جميلا عن شعراء وأدباء لم نسمع بمعظمهم،.. واستطيع ان أجزم بأنه بقي في وادي سيدنا عدة سنوات دون ان يحفظ اسم طالب واحد فيها، ولم يحدث قط ان نهر او زجر طالبا، ولم تكن به حاجة الى ذلك، لأننا كنا نجلس في حضرته مهذبين مؤدبين "على غير العادة"، واستمعت اليه ذات مرة في ندوة أدبية في ام درمان وعرفت سر القرف الذي كان يبدو عليه أثناء تدريس الأدب، فقد شن هجوما قويا وبارعا على منهج الأدب العربي في المدارس الثانوية ووصفه بالجمود و«انعدام الأدب».

ودرسنا الأدب أيضا في تلك المدرسة على يد الشاعر محمد محمد على، ابن "حلفاية الملوك"، وكان رجلا مرهف الحس يندمج أحيانا في التدريس - وكان استاذا ايضا في

فن الزوغان وتجاهل المقرر مما كان يلقى استحساننا - يندمج في التدريس ولا يلتفت الى الجرس الذي يعلن نهاية حصته، فيظل يتكلم وهو يلوح بيديه، فيضطر مدرس الحصة التالية الى العودة الى مكتبه لأنه كان يعرف ان الشاعر (وكان ذلك الاسم الذي ننادي به استاذنا محمد محمد على) لن يخرج من «الفصل» ما لم يكمل ما بدأه من كلام،..
وبعكس زميله وصديقه الهادي احمد محمد صالح كان "الشاعر" سريع الانفعال وكان أكثر ما يخرجه عن طوره صدور صوت نشاز كذاك الناجم عن احتكاك كرسي مع البلاط، أو عطسة ولو بقوة درجة واحدة على مقياس ريختر، وازددت حبا لمحمد محمد على بعد ان عرفت انه مثلي يكره القطط وما زلت احتفظ بمقال له نشره في صحيفة بعنوان «لماذا أكره القطط؟.. وعلى أيدي الهادي ومحمد محمد علي وغيرهما في المرحلة الثانوية تعلمنا تذوق الأدب العربي، رغم أن دروس النحو والبلاغة كانت ولا تزال تسبب لي التهاب الجيوب الدماغية
لم يأت الدور على سيرة المرحلة الثانوية بعد، فما زلت في وطني الصغير بدين:
تمثل آخر إسهام لحكومة الخرطوم في تقديم الخدمات لسكان جزيرة بدين، في بناء مدرسة بدين الجنوبية في أواخر الخمسينات، بعد ان ظلت مدرسة بدين الشمالية تتحمل عبء توفير التعليم لأبناء المنطقة الممتدة نحو 100 كيلومتر شمالها وجنوبها على مدى أكثر من 15 سنة، وكان بناء المدرسة الجنوبية نتيجة لخطوة ماكرة تفتق عنها ذهن عمي محمد عثمان فقير علي، الشهير بموسوليني، الذي حدثتكم عنه في مقال سابق، قلت فيه انه أنشأ شيئا وسطا بين الخلوة التقليدية (مركز تحفيظ القرآن)، وروضة الأطفال الحديثة، وشيئا فشيئا صارت مدرسة "ميمد أُسمان تو"، وتعني محمد ولد عثمان، نواة تدفع بالتلاميذ المتفوقين أحيانا الى الفصل الثالث مباشرة في المرحلة النظامية، وذاع صيتها وسهل عليه من بعد ان يقنع المسؤولين بتحويلها الى مدرسة "صغرى" ثم الى مدرسة اولية كاملة، وسعدت كثيرا ببناء المدرسة الجنوبية على مقربة من بيتنا، فقد كان في الركن الشمالى الشرقي في قطعة الارض التي بنيت عليها، "فنتن بُتو" أي شجيرات نخل متشابكة، كان الجن يتخذونها مقرا لقيادتهم القطرية (كما اسلفت فان القيادة القومية للجن في بدين كانت في المقابر)، وكان الشياطين يعترضون طريقنا ونحن متوجهون من المدرسة (التي صار اسمها "الشمالية" لاحقا، ثم تحولت الى مدرسة ثانوية تحمل اسم ابن عمتي الشهيد محمد صالح عمر، الذي قتلته قوات حكومة جعفر نميري في معركة الجزيرة أبا الشهيرة في عام 1970) .. وهكذا كسبنا مدرسة جديدة وخسر الجن قاعدة أساسية، وكان جارنا محي الدين محمد أحمد يقول إن الجن انتقلوا الى بيت عباس (أبي .. أي بيتنا)، لأنه ظل مهجورا لعشرات السنين بعد أن نزحت العائلة الى مدينة كوستي
بداية العمالة للإنجليز من خلال لغتهم
كما ذكرت في حلقات سابقة من هذه السلسلة، فقد كان متوسط دخل الفرد في بلدتنا "بدين" من الجن والشياطين نحو عشرة، ففي ركن أو طرف كل حي كانت هناك خرابة أو أشجار متشابكة، يتخذ منها الجن أوكارا، كان الشياطين يعترضوننا ونحن في طريقنا من المدرسة الى بيوتنا، بعد دروس العصر او لعب الكرة، ومن ثم كانت آية الكرسي

سلاحا يتم تزويد الصغار به في بدين منذ ان يتعلموا النطق!! وتكاثرت المدارس في بدين في الحقبة التي تلت السبعينات، وصار لكل منطقة مدرسة ابتدائية او أكثر، وصارت هناك مدارس متوسطة وثانوية ومستشفى، ودخلت الكهرباء البيوت، ولم يكن في هذا اي فضل لحكومة، فكل شيء عندنا قام بجهد شعبي تعاوني،.. بل اننا في بدين كنا نسيئ الظن بـ "الحكومة" التي لم نكن نراها إلا متمثلة في مركز البوليس الصغير في كرمة في الجانب الشرقي من النيل، (ما زلنا في السودان نستخدم كلمة بوليس أكثر من استخدامنا لكلمة شرطة)، وبما ان الحكومة كانت تتكلم "عربي"، ونحن نتكلم النوبية، فقد رسّخ ذلك سوء ظننا بها، خاصة بعد ظهور فرق المساحة (مسح الأراضي وتحديد الملكيات ومنع التعدي على أرض الدولة)، التي جاءتنا فتسببت في تأجيج الخصومات بين أفراد العائلة الواحدة، وكان أعضاء فرق المساحة يستخدمون مصطلحات انجليزية احيانا في سياق أعمالهم مما عزز شكوكنا في ان الحكومة "مخاوية" الجن وتتكلم لغتهم، وبما أنني كنت في بواكير طفولتي أجيد العربية بحكم انني ولدت في الخرطوم بحري، وعشت شطرا من طفولتي في كوستي، فلم أكن سيئ الظن مثل بقية اهل البلدة بجماعة المساحة، بل إن قيامي أحيانا بالترجمة بينهم وبين أهل البلد جعلني أحس بالقصور لأنني كنت عاجزا عن فهم المفردات الانجليزية التي كانوا يستخدمونها، واقترنت الانجليزية في ذهني منذ لك الوقت بـ "المعرفة" والأفندية (شاغلو الوظائف المدنية المكتبية) والرواتب، وصرت التقط مفرداتها من هنا وهناك من شباب بدين الذين تسنى لهم دراستها في المرحلة المتوسطة، وكانوا أقلية، لأن مدرسة بدين الابتدائية ظلت عاجزة لسنوات طويلة عن إدخال تلاميذها في تلك المرحلة، لتردي الأداء الأكاديمي بسبب حاجز اللغة (العربية)، إلى ان جاء الى المدرسة الناظر النوبي الحلفاوي سيد احمد ضرغام والاستاذان عثمان سيد احمد كنة ونصر محمد نصر (وهما من ابناء البلدة)، ومع افتتاح مدرسة البرقيق الوسطى كان عدد كبير من ابناء بدين قد التحقوا بها وكان من بين اول دفعة قبلت لها عدد من أقاربنا من بينهم فضل عكاشة كمبال، (كمبال اسم نوبي صِرف)، كنا أنا وابن عمي عبد اللطيف الطيب نحاصره في عطلات نهاية الاسبوع ونهاية التيرم ونهاية السنة بالأسئلة عن اللغة الانجليزية: الفنتي (التمر) اسمه شنو بالانجليزي؟ أُسوس ماكوس يعني شنو بالانجليزي؟ (أُسوس ماكوس جِنرين ابريق: تعني إمساك الكرة باليد ثم اطلاقها لركلها بقوة بالقدم، في لعبة محلية تتألف من عدة حركات .. فأنظر الشطح والنطح والترف اللغوي). وكان فضل ولا يزال صاحب دعابة، وله لسان "المهانيب"، وهم من عائلات بدين الكبيرة التي اشتهر افرادها بحضور البديهة والسخرية اللاذعة ومسحة مساخة رباطابية، (نسبة لقبيلة الرباطاب في شمال السودان .. أجارك الله من ألسنتهم) وقد فاض بأخينا فضل الكيل عندما طلبنا منه ان يقول لنا ما هي أسماؤنا بالانجليزية، فارتجل لنا على الفور اسماء ما زالت ملتصقة بنا: جعفر عباس بالانجليزي جوفري أوبوس، وعبد الطيف الطيب صار أبد اللتوف التُب، وشقيقه جزولي عكاشة صار جزلي أنكش،.. ومنذ لحظتها قرر جوفر أوبوس ان يكون اتقان الانجليزية غايته في دنيا الاكاديميات، ودخلت المدرسة الوسطى والثانوية والجامعة ولا هم لي غير

إتقان الانجليزية.. لم انجح طوال حياتي في حل مسألة جبر، وإلى يومنا هذا لا أعرف ما هي الفيزياء، واعتبر جداول اللوغريثمات ضربا من عمل الجان، وكل ما طلعت به من / ندروس الكيمياء هو أن رمز البوتاسيوم هو "كيه" k، ولكنني لا أعرف ما هو البوتاسيوم الذي رمزه كيه! صار شغلي الشاغل هو اللغة الانجليزية

****

صارت اللغة الانجليزية شغلي الشاغل ابتداء من المرحلة المتوسطة، بدرجة أنني أهملت أمر لغتي العربية التي ولدت ناطقا بها، ولكن أهل بدين النوبيين طيروها من نافوخي، فصرت أعجميا بالكامل.. كنت بالطبع اجتاز امتحانات اللغة العربية بامتياز، لأن كل ما كان مطلوبا مني في المناهج العقيمة هو ان احفظ النصوص المعلبة ومعانيها، وأصب ما هو مكتوب في كراستي والكتب المقررة في أوراق الامتحانات، وامتلأ رأسي ب"النسيم العليل والبرد القارس وسودان يا سودان أسد الغاب تحميكا... وكنت لا أفهم لماذا توكل حماية الوطن للأسود وليس للبشر)، ولكنني كنت متيما بالشعر العربي، ووقعت في غرام المتنبي منذ ان درست قصيدة " شعب بوان" في المرحلة المتوسطة،.. وفي الجامعة اكتشفت شعرا جديدا: محمد المكي ابراهيم ومحمد عبد الحي والنور عثمان وعلي عبد القيوم وعمر عبد الماجد وكامل عبد الماجد ومصطفى سند وابن بطوطة وكجراي والجيلي عبد الرحمن والفيتوري وغيرهم، ثم عرفت السياب وعبد الصبور وحجازي وغيرهم، ومع هذا عانيت من اللحن في اللغة، وصرت أخجل من جهلي بأساسيات قواعد النحو العربي، وفرملت الانجليزية لعدة سنوات قرأت خلالها - في ما اعتقد - كل نتاج الأدب العربي من الروايات الذي كان متاحا، ووقعت في غرام اللغة العربية بعد ان اكتشفت بعض خباياها التي عجزت المناهج المدرسية عن سبر أغوارها، وصار من حقي كنوبي أن أتبجح بأنني أجيد لغتين اجنبيتين هما الانجليزية والعربية.. فسبحان الله الذي جعل عبده النوبي جافر أباسن تود (جعفر ولد عباس) شغوفا بالعربية وهو الذي كان يجلس امام الفكي (الفقيه) في الخلوة (كما نسمي في السودان مراكز تحفيظ القرآن) ويسأله: سيدنا، اللسين سينا ولا سادا؟ يعني: الذين بالسين أم بالصاد؟ فيرد سيدنا: أصنه صادا!! أظن أنها بالصاد

كرست القناة الفضائية السودانية برامجها ليوم الجمعة الموافق 23 يوليو 2004 للترويج للسياحة في السودان، وكان في تقديري جهدا بلا طائل، لسبب بسيط وهو أننا نملك مرافق الجذب السياحي، ولكننا نفتقر الى البنى الأساسية الضرورية لتنشيط السياحة، فالريف السوداني لا يقل جمالا عن الريف الإنجليزي، وعندنا في شمال السودان النوبي معالم تاريخية أثرية على امتداد مئات الكيلومترات، ولكن أين يقيم السائح إذا ذهب الى هناك؟ ولماذا يذهب الى هناك أصلا ليروح فريسة البعوض وحشرة النمتة السخيفة التي تغزو شمال السودان شتاء وتلحق عاهات بأطراف الأنف والأذن والحنجزة؟ ثم انتقلت الكاميرا الى مراتع صباي في بدين وكرمة وكجبار وتمبس، ولولا أنها توقفت عند بعض الوجوه العجفاء التي هدها الكد من اجل الرزق لحسبت انها تصور مشاهد من الريف السويسري،.. كانت نقطة ضعف تلك الحلقة من البرنامج ان الكاميرا لم تدخل الإحياء

والبيوت بل ظلت تتحرك على شواطئ النيل، ولم تنقل بالتالى للمشاهد جمال المعمار النوبي، وأحزنني على نحو خاص ان معد ومقدم البرنامج لم يلتفت الى خصوصية مداخل البيوت (البوابات) النوبية بزخرفها وخزفها بديع التوزيع والتشكيل، ومع هذا فقد كان البرنامج شيقا ومثيرا للشجون،.. خفق قلبي بشدة عندما توقفت الكاميرا في شاطئ كرمة النزل، وكانت كرمة لسنوات طويلة هي نقطة انطلاقنا نحن سكان بدين وما جاورها من قرى وبلدات الى السودان الأوسط ومصر، وكان سوقها الأسبوعي الذي ينتظم يوم الأحد، يجذب آلاف الزبائن من كل صوب لأنه كان سوقنا "الأفرنجي"، لما فيه من سلع مستوردة، وكان أكثر ما يعجبنا في كرمة هو وجود المطاعم، وكان تناول وجبة في مطعم مدعاة للتباهي والتفاخر، وكان من يأكل "كبدة"، كمن قام بالهبوط على كوكب المريخ ببرشوت وعاد سالما،.. وكانت في كرمة "اللواري" التي كنا ننظر اليها بنفس الانبهار الذي ينظر اليه اطفال هذا الزمان الى مكوك الفضاء، وكنا نقضي السنة بطولها نوفر المال ليتسنى لنا ركوب اللوري في جولة من خمس دقائق، نظير قرش واحد في كرمة، في عيدي الفطر والأضحى (كان المزارع النوبي يقيم في واحدة من تلك الجزر التي تظهر بعد انحسار الماء في النيل، وتستغل في الزراعة لنحو ستة أشهر في السنة،.. ووقف أخوه على الشاطئ الآخر من النهر وصاح: يا صالح الراديو قالت العيد بكره،.. فرد صالح: العيد ياتو؟ الكبير ولـلا الصغير؟ يعني يا أبو مخ تخين، لو كان صالح يصوم رمضان لعرف متى يكون العيد الصغير "الفطر"، ولا يبرر هذا التشنيعة الرائجة في السودان بأن أهلي النوبيون "نُص ديانة"، حتى لو صدقت رواية مسؤول حكومي قال إنه خطب في النوبيين في منطقتهم مبشرا إياهم بتطبيق الشريعة: لقد دخل الإسلام السودان من هنا.. فرد عليه أحد الحضور من "المعارضة": وسيخرج من هنا.. فمن الثابت تاريخيا ان النوبيين هم من حملوا لواء الإسلام الى السودان الأوسط)

وكان سائق اللوري يتقاضى من كل صبي نصف قرش (تعريفة)) إضافي، نظير تشغيل البوق/ الهورن الذي يسميه اهل السودان وغرب السعودية "البوري" لعدة ثوان،.. ومن مواضيع الإنشاء السخيفة التي كانت وما تزال مطروحة على التلاميذ "ماذا تريد ان تكون في المستقبل؟" كان معظمنا يقولون أنهم يريدون ان يصبحوا "سائقي لواري يشقون الصحاري"!! ثم صارت اللواري تصل الى "أكّد" المقابلة لبدين من ناحية الغرب، وتنطلق منها الى ام درمان، ومثل ذلك طفرة كبيرة بالنسبة لنا بسبب روابط القرابة بين اهل البلدتين، مما كان يوفر لنا نحن اهل بدين مكانا للمبيت في أكد في بيت هذا او ذاك، للانطلاق فجرا باتجاه دنقلا وام درمان، بعكس ما كان حادثا في كرمة التي كانت وقتها بلدة سكانها "لحم راس"، أي من الوافدين من مختلف الأقاليم لكونها مركزا تجاريا، وكان على من يريد ان يسافر انطلاقا منها ان ينام على الشاطئ في العراء حتى لا يفوته اللوري الذي ينطلق عادة فجرا لتفادي حراراة منتصف النهار.

كيف تسنى لنا البقاء أحياء؟

كنا أطفالا ما بين الحادية والثانية عشرة عندما التحقنا بمدرسة البرقيق المتوسطة، وسكنا في الداخليات، لأن الدولة كانت توفر السكن والمأكل لمعظم طلاب تلك المرحلة بحكم

قلة عدد المدارس، وبالتالي تعذر عودة التلاميذ إلى بيوت ذويهم التي كان أقربها يبعد عن المدرسة نحو عشرة كيلومترات، وكنا جميعا بالونات جرثومية متحركة، ولكن معظم الجراثيم التي كنا نحملها كانت من النوع الحميد،.. بعبارة أدق اضطرت تلك الجراثيم الى تطبيع العلاقات معنا كي تضمن لنفسها فرص البقاء،.. طوال المرحلة الابتدائية كانوا يقصون شعرنا على الجلدة أي "صلعة" مرتين في الشهر، وكانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لمنع القمل من ان يشاركنا في دمائنا التي كانت تبقينا على قيد الحياة، وكانت الحلاقة تتم بأمواس يخيل إلى أنها بقايا الفؤوس التي استخدمت في صنع سفينة نوح عليه السلام، فقد كانت شفراتها سميكة، وتعجز عن جز الشعر ما لم تستخدم بطريقة المحراث، بأن يتم غرز جزء منها في الجلد وتحريكها الى فوق وتحت كي ينتزع الشعر من «لغلوغه» ومعه بعض الجلد، وكان من النظريات الفولكلورية الطبية السائدة وقتها ان أي دم يخرج من جسم الانسان يفيده صحيا لأنه دم فاسد، ومن ثم كانت نفس الأمواس التي كانوا يجزون بها فروة رؤوسنا تستخدم في ما يسمى ب"الفصادة"، وهي إحداث جروح سطحية في الجلد (جلد الساق في غالب الأحوال للتخلص من "الدم الفاسد") .. تحس ب"طمام" الذي هو نوع من عسر الهضم ينتج غالبا عن اكل أشياء لا تستسيغها المعدة والأمعاء، فيقومون ب"فصد" تجريح ساقيك حتى يسيل منهما الدم، فيزول عنك الطمام "رغم أنفك"، يعني حتى لو قلت لهم ان الفصد بالموس لم يجعلك تحس بتحسن، قالوا: بتهيأ ليك.. إنت كويس بس بتدلع.

ونفس تلك الموس التي غالبا ما تكون نصيب أبيك من ورثة جدك، تكون قد استخدمت في ختان عمك وحلاقة شعر جميع أولاد الحي وفصد نفيسة وهاشم ونصف رجال ونساء الجيران، ..ألم أقل لكم ان الجراثيم والميكروبات كانت تجاملنا و"تُقدر ظروفنا"؟.. وبعد الحلاقة بالموس المحراثية والدم يتساقط من رأسك وكأنك نجوت من حادث مروري بين شاحنة ووحيد قرن، يتم وضع عجين الذرة على رأسك "آفتر شيف"، فتحس ببرودة منعشة في فروة رأسك، ولكن الوحوحة والتأوهات تتجدد عند غسل العجين بعد أن يجف! حتى في الشفخانات التي صار اسمها لاحقا المراكز الطبية كانت طرق العلاج لا تقيم وزنا لانتقال العدوى من شخص الى آخر، ففي كل شفخانة (كلمة تركية تتألف من "شفاء" و"خانة" التي تعني "مكان"، وترمز شفخانة الى مراكز العلاج، وما زال السودانيون يسمون دورة المياه باللفظ التركي "أدبخانة" وترجمتها "بيت الأدب")، وفي كل شفخانة كانت هناك نحو ست زجاجات مملوءة بسوائل يتم تحضيرها محليا: قلوي وبلادونا ومزيج ابيض وبزموت وشراب للكحة وملح انجليزي، ويقف المرضى في طابور، هذا يأخذ جرعة من دواء معين، وذاك يأخذ جرعة من دواء آخر وثالث يتناول جرعة من دواء ثالث،.. كل ذلك بكوب صغير من الحديد المطلي باللون الأبيض (طلس)، أي ان جميع المرضى كانوا يتناولون أدويتهم من نفس الكوب دون غسله (وتذكر أنه كانت هناك ستة أصناف من الأدوية لكل الأدواء والعلل). ولحسن حظنا لم تكن البشرية قد عرفت التهاب الكبد الوبائي وإنفلونزا البعير.. ربما كانت الفيروسات والباكتيريا سريعة العدوى موجودة ولكنها كانت تتحاشانا طلبا للسلامة

ذات مرة وأنا طالب في مدرسة البرقيق الوسطى أصبت بدوسنتاريا فظيعة هدّت حيلي وأهلكت بعيري، وجعلتني طريح الفراش، وعانيت من آلام مبرحة في البطن والظهر،... وزاد حالتي سوءا ان مساعد الحكيم (لقب يطلق على الممرض طويل الخبرة والذي يعمل في مراكز طبية صغيرة لعلاج الحالات البسيطة) المهم كان مساعد الحكيم رجلا مستهترا يقضي يومه كله وهو تحت تأثير الكحول،... كان الواحد منا مثلا يذهب اليه شاكيا من نزلة برد، فيطلب منك ان تكح "بالعافية"، فتكح دون ان تكون تحت تأثير نوبة كحة في تلك اللحظة، فيمسك بالورقة التي أتيت بها من المدرسة ويكتب عليها" متصنع" وتعود الى المدرسة وتخضع لخمس جلدات، بتهمة الاستهبال وتصنع المرض للزوغان من المدرسة، وهكذا كان معظمنا "يقطعون المرض في مصارينهم" كما نقول في السودان عن الأمر الذي تسكت وتصبر عليه، تفاديا لمفاقمة حالتهم الصحية بخمس جلدات، بتهمة تصنع المرض.. وفي ضوء هذه الخلفية أعجب كيف تسنى لي ان أبقى حياً حتى سن ال49 (مرابط فيها ولن أتنازل عنها)!!
****

كاد صاحبكم ان يتعاطى الأفيون

سقطت صريع دوسنتاريا خبيثة وأنا طالب في المرحلة المتوسطة وأقيم في السكن الداخلي بعيدا عن أهلي، وعندما اشتدت على و طأة المرض اضطررت الى اللجوء الى الشفخانة (المركز الطبي) وكان المساعد الطبي المشرف عليه سكيرا تفوح منه رائحة الخمر على مدار الساعة، وقبل أن أكمل شرح "حالتي" مد لي كوب الطلس وبه جرعة من "المزيج الأبيض"، وكان عقارا مسهلا (ليس مليناً، بل مسهلا)، والدوسنتاريا أصلا إسهال متواصل، فكيف يكون حالك عندما تتناول عليها مادة كيمائية مسهلة؟ علم أحد المدرسين ان "محمد أُنقي" وكان تاجرا في سوق البرقيق يعاني من الدوسنتاريا فلجأ إليه فتبرع لي بحبة واحدة من عقار انتروفيوفورم الذي كان وقتها العلاج الوحيد المتاح للدوسنتاريا، ..طبعا لم تكن حالتي لتستجيب لقرص واحد، (تم لاحقا سحب هذا العقار بعد ان اتضح انه يسبب بلاوي كثيرة من بينها العمى)، وأصبحت عاجزا عن الحركة فتم إبلاغ اهلي بحالتي فنقلوني الى البيت، وهناك عقد الخبراء "كونصلتو" ومكثت عدة ايام أتعاطى مختلف انواع العلف،.. برضو مفيش فايدة.. ثم قال احد مثقفي البلدة (وكان أميا ولكن يعتبر مثقفا طليعيا لكونه عمل في مصر لبعض الوقت، ويتكلم العربية!!).. قال ان الأفيون خير علاج للدوسنتاريا!! وأبدى أهلي استعدادا لشراء الأفيون من حيث يوجد، ولم يكن أي منهم يعرف انه مخدر بريمو أي درجة أولى، ولكن صاحبنا المثقف قال ان السبيل الوحيد للحصول على تلك المادة "العلاجية" هو ان يتم إرسال خطاب الى عم فلان الذي سيعود من مصر في إجازة بعد خمسة أشهر!! ولم يكن ممكنا ان أصمد لخمسة أسابيع، وهكذا اقتنعت أمي بفشل الخبراء المحليين، وسافرت بي الى مدينة دنقلا حيث المستشفى الكبير، وهناك أخذت أول حقنة في حياتي، واقتنعت فور دخول الحقنة في جلدي بأنني سأتعافى، فقد كنا قد سمعنا بالحقن، ولم يكن يتعالج بها إلا "الناس الواصلين اللي عندهم واسطات قوية".. وفي دنقلا رأيت الحياة المترفة للأطباء.. كان

الواحد منهم يجلس في مكتبه وفوق رأسه فوطة قماش طويلة وعريضة تتدلى من عود خشبي ويمتد منها حبل ينتهي في يد سجين يجلس أمام المكتب وهو يسحب الحبل بإيقاع منتظم، فتتحرك الفوطة الى الأمام والخلف لتحريك الهواء، كما في حالة "الهبابة" اليدوية والتي انقرضت (ولكنها ما تزال تستخدم في الصين واليابان).. وقالت امي انه عز ما بعده عز ان يكون الشخص طبيبا... وبعدها بسنوات عندما دخلت كلية الآداب بجامعة الخرطوم نصحتني ان أعمل طبيبا فور تخرجي! وكان عندنا في بدين مساعد حكيم (وكان شاغل هذه المهنة يشكل عماد الخدمات الطبية وقتها وكان معظمهم مهرة وحاذقين وذوي خبرة)، وكان صاحبنا من أنصار «الطب البديل»،. تذهب اليه وانت تشكو من حمى سببت لك الهذيان فيقرر أنك لابد وقد وطأت بيبي جن اي شيطانا رضيعا فأصابتك الحمى، فيكتب لك بعض التعاويذ في صحن، لتغسلها لاحقا وتشرب المحلول "المبارك"، وبعض الشخابيط على ورق لتحرقها وتتنسم دخانها (بخور)، ويقرأ بعض الكلمات و«يتف» على وجهك ...من منطلق ان البصقة المباركة تسبب أمراضا جلدية للجان فيضطر للهرب من جسمك ب"جلده"، فقد كانت كل الأمراض في تقديره تنشأ عن ضربات الجن أو العين الحاسدة.. ومنا من قضى نحبه بعد تلك الوصفات، ومنا من أفلت وأدرك عصر الباراستيمول والاسبرين، ثم "الإشاعة" السينية والمقطعية وكمان الرنين المغناطيسي.

إلى يومنا هذا يتحدث العوام في السودان عن أن الطبيب طلب مني التصوير ب"الإشاعة"، وإلى عهد قريب كان من يجري عملية زائدة او "لوز" كمن عاد من الحج في أربعينات القرن الماضي: يتدفق على بيته المهنئون ويظل ينحر الذبائح على مدى شهر كامل، وفي مستشفيات منطقة الخليج تضطر أطقم التمريض الى تجاهل اللوائح الخاصة بمواعيد الزيارات، إذا كان هناك مريض سوداني، لأن الناس يأتونه بالعشرات على امتداد ساعات اليوم والليل.. وكنت ذات مرة نزيل مستشفى حمد العام في الدوحة، وسقوني سوائل شطفت كل ما دخل بطني خلال اسبوع كامل لإعدادي لتصوير جهازي الهضمي بالمنظار، ثم زارني نفر من الأصدقاء حاملين معهم سندويتشات فول وطعمية (فلافل) تجنن: يا زول خد لك لقمتين وما تخاف على بطنك، وصارت اللقمتان عشرة، وفي الصباح أدخلوني غرفة المنظار وسمعت الطبيب يقول: ها الزلمي بياكل حصى؟ مو معقول غسلنا معدته ليلة كامله وبعدها مليانه بلاوي ومطبات ما تسمح بمرور المنظار!!

****

ما زلت أساسق بين بدين والبرقيق

عملت في تلفزيون بي بي سي في لندن، على أمل ان يصيبني ما أصاب حبيبي الطيب صالح – رحمه الله - من مجد أدبي، واضطررت الى مغادرة لندن بسبب تحرش بنات الخواجات وعلى رأسهم الراحلة الأميرة ديانا سبنسر بي، فرغم أنها كانت متزوجة بولي عهد بريطانيا إلا أنها كانت كلما وجدتني جالسا أمام التلفزيون، تلاحقني بنظراتها وابتساماتها بدلا من ان تنظر الى المذيع الذي كان يحاورها! وحدث ذات مرة في مبنى

البي بي سي في وايت سيتي في منطقة شبردس بوش وبها سوق شعبي معظم زبائنه من العرب، وبه "تجار سودانيون"، يبيعون البلاوي التي فتكت بأمعاء السودانيين مثل الشطة القبانيت والدكوة ..المهم، حدث أن دخلت المصعد الكهربائي وكان به نفر من الخواجات، وفي الطابق الثاني ركبت معنا عارضة الأزياء نيومي كامبل (التي جعلناها نعومي).. وبالخواجات ولع شديد بالمشاهير، وأحس من كانوا بالمصعد أنهم وبركوب بنت كامبل معهم شهدوا ليلة القدر، وطفح البشر على وجوههم، ومن دون الخلق الذين كانوا معنا، وقفت قبالتي وحيتني: هاي وغمزت لي بعينيها الكبيرتين، فنظر من كانوا معنا إلي بإعجاب باعتبار انني دخلت التاريخ، وربما قالوا: الجنس على الجنس رحمة باعتبار ان تلك الولية سوداء مثل "الشاب" الذي خصته بالتحية! وفي احد الطوابق خلا المصعد من الجميع وبقينا انا وكامبل وهي لا تزال تبتسم، وأدركت انها تتحايل ل"تفتح موضوع معي'، ربما على أمل أن تستدرج الشيطان ليكون ثالثنا، فقد كان باديا على تضاريس وجهها أنها لم تستطع مقاومة الفتنة، فخشيت أن تفتح الموضوع، أو تتحرش بي على المكشوف، وأن أضطر إلى "كسر خاطرها" بحكم أنني من عائلة محافظة، فضغطت على زر المصعد وأوقفته في طابق لم اكن اقصده وخرجت من المصعد دفاعا عن شرفي!.

ليس قصدي هنا التباهي واستعراض جاذبيتي، فتلك مسائل محسومة ومفروغ منها، ولكن الكلام جاب الكلام، فقد كان لي صديق فلسطيني يقرأ مقالاتي بانتظام، وقد استوقفني قبل يومين او ثلاثة وصاح: يا زلمي ذبحتنا بجزيرة بدين.. لو كان فيها خير كنت طفشت منها وجيت الخليج؟ يستر عرضك ارحل منها لحتة تانيي "تانية"! وكان بذلك يعرب عن ضيقه بهذه السلسلة من المقالات، وبصراحة فانني احرص على ان "أعمل ألف حساب" لصديقي الفلسطيني ذاك لأنه "نحس" فقد ولد عام 1948 مع مقتل فلسطين، في قرية عرّابة التي يقال ان أبا لهب مدفون فيها، وأكمل دراسته الثانوية في سنة 1967 وهي السنة التي طارت فيها الضفة الغربية، وحطت في جيب اسرائيل، وبعد ان تلطش في عدد من الدول العربية ذهب الى باكستان ليلتحق بإحدى جامعاتها في أول السبعينات فانفصلت باكستان الشرقية وقامت دولة بنغلاديش، ويوم وصوله الى لندن للعمل معنا في البي بي سي استأنف الثوار الايرلنديون تفجيراتهم ونسفوا عمارة في منطقة الدوكلاندس.. وخلال عمله في أبو ظبي، كان كلما حاول مسؤولا كبيرا، طار من وظيفته، وذات مرة خاطب وزير الاعلام في دولة خليجية بشان إجراء لقاء معه ولكن الوزير قال :الله يخليك.. بعدني (لسه) ما شبعت من الوزارة، شوف غيري من اللي طولوا في الحكومة ! شخص "سره باتع" كهذا، لابد ان تعمل له حسابا .

ونواصل السيرة والمسيرة ونعبر المركب من جزيرة بدين الى كرمة، ثم نشق بأرجلنا منطقة مقابر تفصل بين كرمة ووادي خليل وهي "مستوطنة" أنشأها أهل بدين في الساحل الشرقي من بلدتهم في أعقاب فيضان عام 1946 الذي هدم الجزء الجنوبي من الجزيرة، وأطلقنا على المستوطنة اسم "ألوي" وتعني الانتشال في إشارة الى ان سكانها

انتشلوا من الفيضان، ولكن اهل كرمة نجحوا في تثبيت الاسم القديم للمنطقة،.. ومن هناك واصل السير على قدميك عبر كرمة البلد، وعلى راسك شنطة من الحديد الرفيع مطلية بمادة لامعة نسميها خطأ "صفيح"، وكيس مليئ بالقرقوش والتمر.. والقرقوش هو البسكويت البلدي، وطعمه لذيذ مع الشاي ولكن هناك صنف منه يلحق إصابات بليغة باللثة.. ثم تصل الى مدرسة البرقيق الوسطى ذات القبة البيضاء التي كانت تتوسط مبانيها.. مدرسة جميلة محاطة بنبات الهبيل (الأبله) الذي يستحق هذا الاسم لأنه ينبت دون حاجة الى ماء او هواء او شمس، ومن فرط بلاهته فان البهائم لا تأكله

الطفرة من الحمار الى الإنجليزية

لم يكن لمدرسة البرقيق المتوسطة سور خارجي سوى سياج من نبتة يسميها أهل السودان "الأهبل/الهبيل)"، وكان دخول المدرسة الوسطى يمثل نقلة حضارية وطبقية للكثيرين منا: ثلاث وجبات منتظمة ومتنوعة في صحون بيضاء نظيفة (على حساب الحكومة)، ولكل منا سرير حديدي مشدود، بدلا من سرير الخشب والحبال الذي يُعرف بالعنقريب، ولكل تلميذ ريشتان ل"الكتابة"، واحدة للحساب وأخرى لبقية المواد، .. نعم ريشة كتلك التي كان يكتب بها يوليوس قصير، وكانت "ميد إن إنجلند"، وكان كل شيء في السودان وقتها من صنع بريطانيا، بل وإلى عهد قريب لم يكن السودانيون يحترمون أو يثقون في أي سلعة مصنوعة خارج بريطانيا، وإلى يومنا هذا فالسوداني يعتبر استخدام معجون الأسنان "سيجنال"، واجبا وطنيا، وفي مجال التدخين فشل التبغ الأمريكي في زحزحة الروثمانز والبنسون من رئات السودانيين

المهم أنه وفي تلك المرحلة ظهر قلم التروبن، وكان اول قلم من نوعه، حبره "منه وفيه" ولا يحتاج مثل الريشة الى الغمس في المحبرة،.. تدخل رأس القلم في المحبرة ثم تسحب أداة الشفط التي في مؤخرته، فيدخل الحبر في بطن القلم بنفس طريقة سحب الدم من الوريد.. تكنولوجيا مذهلة، وكانت تلك طفرة كبيرة إذا أخذنا في الاعتبار اننا وفي السنتين الأولى والثانية في المدرسة الاولية اي الابتدائية كنا نستخدم لوح الأردواز وهو لوح حجري كنا نكتب عليه بحجر جيري مدبب الرأس يقوم مقام الطباشير (لا أحب مثل هذه الذكريات لأنها تعطي الانطباع بأنني انتمي الى العصر الحجري)

وكان هناك سوق البرقيق الذي ينتظم كل يوم أربعاء، وتأتيه البضائع من شتى المناطق، عامرا بالفواكه والبضائع.. وهناك أعدت اكتشاف الحلاوة الطحنية التي كنت قد فارقتها منذ ان فارقت مدينة كوستي الى بدين وعمري نحو أربع سنوات، واكتشفت العسل ابو أسدين (لايليز قولدن سيراب) الانجليزي وكانت علبته بقرشين ونصف، وفي البرقيق صار بإمكان الجميع ان يلبسوا "الأردية/ الشورتات" دون ان يتعرضوا للاتهام بالشذوذ الجنسي كما كان الحال في القرى التي أتينا منها، حيث كان ارتداء الملابس الافرنجية والكلام باللغة العربية دليل ميوعة وخنوثة.(وكنا نستهجن على نحو خاص كلمة "آآي" التي يستخدمها عرب السودان بمعنى "نعم"، ونعتبرها كلمة أنثوية)

وكان أهم ما أعطته لي مدرسة البرقيق الوسطى هو اللغة الانجليزية، فقد كانت هناك "نار في جسمي" أي رغبة عارمة لتعلم الانجليزية، حتى يتسنى لي استخدام بعض

مفرداتها أمام الآخرين كي يعرفوا انني "مثقف خطير"، ولن أنسى أبدا أول حصة انجليزي وكان مدرسنا هو ناظر المدرسة المربي الكبير النبيل الفذ مدني محمد عبد الماجد ابن بيت المال في ام ردمان،.. طلعت من تلك الحصة بكلمتين: بوك (كتاب) وباسكت (سلة/قفة)، وأظن انني رددت الكلمتين نحو 56789 مرة في ذلك اليوم كي أضمن رسوخهما في ذاكرتي، وظللت وزملائي نستخدم الكلمتين بمناسبة وبدون مناسبة: وين البوك بتاعي؟ ثم انضمت اليهما تيبل (تربيزة/طاولة) وتشير (كرسي)، وفكرت في طلب اللجوء الى بريطانيا على أساس ان السودان بات دون مستواي،.. فقد مثل تعلم الانجليزية طفرة معنوية كبيرة لي، بل كانت اكبر من الطفرة الطبقية التي مررت بها عندما اهداني خالي حمارا وانا في السنة النهائية في مدرسة بدين الابتدائية، وصرت اوقف حماري مع حمير المدرسين وأولاد الذوات، في "منطقة الباركينق" الملاصقة للمدرسة

وبالطبع لم يكن الجميع سعداء بتعلم الانجليزية فقد كان زميلنا ساتي عبد الدائم من أبناء بلدة مشو (وكان رحمه الله حاضر الدعابة) مثلا يقول كلما بدأت حصة الانجليزي: اللهم اني اعوذ بك من الخبث والخبائث، فقد كان عاجزا تماما عن إخراج لسانه لنطق "ث" و "ذ"، وذات مرة طلب منه المدرس ان يقول عبارة "ذِس إز أ بُك"، وتعني "هذا كتاب"، فصار صاحبنا يردد: زس أز أبوك، ويقوم بمد الواو فيصيح المدرس: أبوك على أبو اليوم الأسود الذي رماني في التدريس، ويهدده بقص لسانه ما لم يخرجه وهو ينطق "ذس"، وبعد نحو عشر محاولات قال ساتي على عجل: زس إز أبوك، ثم أخرج لسانه بعد ان أكمل الجملة، فما كان من المدرس الغاضب الا ان انفجر ضاحكا، وعندما كنا في السنة الثالثة كان استاذنا يقرأ علينا حكاية إنجليزية طريفة فضحك بعضنا، فدمدم ساتي غاضبا: شوف البهايم ده،.. الانجليزي كمان فيه ضحك؟

واكتشفنا ان الشايقية بشر مثلي مثلك.. تصور؟

الله يصبركم على البرقيق كما صبركم على بدين، ففيها تلقيت تعليمي "الأوسط" وكانت مدرسة امبريالية يكتسح طلابها المقاعد المحدودة التي كانت متاحة في المدارس الثانوية، وكانت وادي سيدنا الثانوية أيامها محجوزة لأبناء منطقتي المحس والدناقلة (النوبة) والشايقية وبعض الجعليين، ولسبب مريب تم قبول ابن عمي عبد اللطيف الطيب في خور طقت الثانوية، فعم الحزن بيته، فقد كانت المدرسة الثانوية في عرف أهلنا "وادي سيدنا وبس"، رغم أن "خور طقت" كانت مدرسة ذات شنة ورنة، ولكن ولكونها وبحكم موقعها مخصصة لأبناء غرب ووسط السودان، فقد كان أهلنا في السودان الشمالي يجهلون مكانتها ومكانها، وطيب البعض خاطر ابن عمي بقولهم ان بإمكانه ان يلتحق بوادي سيدنا بعد ان يكمل دراسته في خور طقت،.. وفي البرقيق تفتحت عقولنا على حضارة كرمة، فقد كان ناظر مدرستنا مدني محمد عبد الماجد حريصا على توسيع مداركنا، وكان ينظم لنا زيارات الى المواقع الأثرية، وفي منطقة البرقيق عدة دفوفات ومفردها "دِفي" وهي كلمة نوبية تعني القصر والحصن، وكانت الآثار في تلك الايام ترقد مهملة حيث تركها أجدادنا، وكانت حول الدفوفات طوابير من الخراف والأسود

والتماثيل البشرية، وفي تُمبُس الى الشمال قليلا من كرمة النزل، كان هناك تمثال يسميه أهلنا "تمبسن أقجن أوندي" وتعني "رجل تمبس الفحل" ومعظم اهل تمبس لهم جذور وامتدادات في بدين، وكان التمثال ضخما، (يقبع حاليا في متحف السودان بالخرطوم)، وكانت اعضاؤه التناسلية بادية (ومن ثم التسمية أقجن أوندي)، ورأى بعض المواطنين ان التمثال قليل الحياء، فاتوا بالفؤوس وختنوه بالكامل أي جردوه من فحولته، وسبقوا بذلك جماعة غرب افريقيا الذين انتشروا في العاصمة السودانية في عام 2003، وسحبوا ذكورة كل من صافحهم ثم ساوموهم على ردها اليهم نظير مبالغ باهظة.(وانساقت صحافتنا مع هذه البلاهات كما فعلت لاحقا عندما ذاع أمر مكالمات تأتي عبر الهاتف الجوال من رقم معين في أوغندا فتسبب نزفا قاتلا في الدماغ.. يعني هناك جهة ما أقامت شبكة سرية للاتصالات النقالة كلفتها نحو 40 مليون دولار وشيدت أبراجا سرية غير مرئية في مختلف المناطق خصيصا لإبادة السودانيين)

وفي مدرسة البرقيق اكشفنا لأول مرة أن أبناء قبيلة الشايقية آدميون "زيي زيك"، ومسلمون، ويضحكون ويغنون، ولم يكن معظمنا قد رأى حتى الالتحاق بمدرسة البرقيق الوسطى شايقيا بالعين المجردة، وكان النوبي ينشأ على سوء الظن بالشايقية، لأنهم كانوا، حتى دالت دولتهم يغيرون على مناطقنا ويبهدلوننا، وكان للشايقية وجود ملموس في المدرسة والسر في ذلك أنهم وبعد انتهاء عصر الفروسية والحروب...، ركزوا على الزراعة، وأحسب ان الشايقية هم افضل اهل السودان في مجال الزراعة، (والشعر والغناء) فقد سبقوا غيرهم في زراعة مختلف انواع المحاصيل، وكانوا اول من انتبه الى قيمة الفواكه (الموالح على نحو خاص) بينما كان بقية اهل الشمال السوداني يقيسون مكانة كل عائلة بما تملكه من اشجار نخيل عجفاء في معظمها، بل وحتى في مجال النخيل أدخل الشايقية أنواعا جديدة مجلوبة من الخارج اشهرها" المشرقي"، ولِعلة في ألسنة أهلنا النوبيين فإنهم يسمون ذلك النوع "المشرك".. بضم الميم وكسر الراء.. تصور!!

بدأ العمل في مشروع البرقيق في أواخر اربعينات القرن الماضي ولضخامة المشروع فقد أقام من شاركوا في تأسيسه معسكرا ضخما (كامب) ومن هنا صار الاسم المحلي للبرقيق" كمبو"، وقد عرضت ادارة المشروع على سكان المناطق المحسية والدنقلاوية (النوبية) امتلاك اراض فيه وزراعتها، ولكنهم رفضوا ذلك باعتبار انه لا يترك "بلده" إلا شخص مقطوع من شجرة، وهكذا رفض اهل بدين واشكان وتمبس وفريق وأكد وارتقاشة وكرمة العمل في المشروع الذي لم يكن يبعد عن بلداتهم سوى كيلومترات قليلة، فجاء الشايقية من كل حدب وصوب وسيطروا على معظم أراضي المشروع، وكان من ايجابيات ذلك انهم نقلوا معهم شتلات اشجار الفواكه والنخيل المحسنة الى المنطقة، وهكذا صار بعض عيال الشايقية اقلية مضطهدة في مدرسة (كمبو) البرقيق الوسطى،.. وفي البرقيق تعلمت لهجة الدناقلة بالنظر الى ان المدرسة كانت تضم دناقلة من حفير مشو الى بنه ومروارتي والسير ومقاصر وأقجة ودنقلا وإرتدي وغيرها،..

وفي تلك المرحلة كنت قد نسيت معظم "العربي" الذي تعلمته في طفولتي الباكرة في كوستي، وصرت نوبيا محسيا أعجميا.
ولكن المشكلة كانت تكمن في ان التخاطب باللغة النوبية كان جريمة عقابها تصاعديا يبدأ بخمس جلدات، وإذا تكرر ضبطك متلبسا بتلك الجريمة يزداد عدد الجلدات حتى يصل الى 15 ضربة بجريد النخل او أعواد شجرة الجوافة!! ومع هذا كان دخول المدرسة المتوسطة يمثل طفرة طبقية واجتماعية (خريج المدرسة الوسطى كان يوظف في درجة اسمها سكيل كيه K ويتقاضى 14 جنيها في حين ان خريج المدرسة الثانوية كان يوظف على سكيل جيه J ويتقاضى 21 جنيها، يعني لم يكن فرق السبعة جنيهات يستاهل ان تضيع اربع سنوات من عمرك في المرحلة الثانوية)
****

الكلاب والكرز

برغم أن الالتحاق بالمدرسة المتوسطة أتاح لنا السكن في مبان جميلة ووفر لنا وجبات شهية (مقارنة برتابة وركاكة الوجبات في بيوت أهلنا) إلا أنه كان تجربة شديدة المرارة: تخيل عيالا ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة يقيمون في "داخليات" بعيدا عن أهلهم.. كنا في أيامنا الأولى في المدرسة نذهب الى حيث الجدول الكبير لمشروع البرقيق الزراعي لنبكي بحرقة على البعد عن الأهل.. وكان بعضنا لا يزال يتبول على السرير،.. وكان يفاقم ظاهرة التبول السريري اللا ارادي ان معظمنا او جميعنا قدمنا من بيئات كلها جن وكائنات خرافية شرسة تفترس الناس، وان الضباع كانت تتجول في فناء المدرسة ليلا بأعداد كبيرة،.. وكان معنا في العنبر فتى يتبول كل ليلة على فراشه، وكان المسكين يحرص على الاستيقاظ المبكر لإزالة آثار العدوان، وكان يأتي من بيته بكميات كبيرة من الملاءات والمفارش لامتصاص عصارة مثانته، ويضع - سرا - بعض الرمل على قطعة من الكرتون أسفل سريره، وكانت بنا قسوة عجيبة فقد كنا نغافله ونضع طشتا معدنيا (لم يكن أهلنا قد سمعوا بعد باختراع البلاستيك.. هل من يدلني على سر تسمية السودانيين لوعاء البلاستيك ب"الباقة/ الباغة" مقابل تبرعي بشرح أن تسمية ذلك النوع من الوعاء بالجركس أو الجركن من قبل بعض السودانيين تحوير لكلمة جيريكان الإفرنجية jerrycan) المهم، كنا نضع الطشت، اسفل سرير زميلنا المسكين حتى يتسنى لنا سماع سريان السوائل الى الطشت.. كررررررر! ونغالب النوم في انتظار صدور الصوت كي نضحك، وزاد كل ذلك حالته سوءا فانتقل إلى مدرسة أخرى.
وبسبب كثرة الضباع في محيط المدرسة شجعت ادارة المدرسة الكلاب الضالة على المرابطة حول المدرسة، وكانت فضلات الطعام كفيلة بإقناع كل كلاب المنطقة، بمن فيها الكلاب المستأنسة في البيوت على الإقامة الدائمة في المدرسة، وهكذا تخلصنا من الضباع، وآلت السيادة الى الكلاب التي ما ان اشتد ساعدها، حتى باتت تقتحم عنابرنا ليلا لتسطو على زادنا من القرقوش والتمر، فكان لابد من مواجهة معها، وهكذا وجدنا فرصة استخدام "الكُتَتيب" وهو شرك/فخ يصنع من اعواد الخشب والحبال، وفعال جدا في اصطياد الكلاب، وقتلها شنقا.. تأتي بعود خشبي أخضر طري قوي ولكن قابل

للثني، ثم تثبته في الأرض وتضع على طرفه العلوي أنشوطة، ثم تثني العود حتى تصل الأنشوطة سطح الأرض ويتم دفنها بتراب خفيف، ثم يوضع لحم في قلب الأنشوطة، وما ان يمد الكلب رأسه لتناول اللحم حتى يندفع العود الى أعلى والأنشوطة حول رقبة الكلب، فيسهل قتله أو يترك حتى يموت، ولحسن حظنا لم تكن جماعات حقوق الحيوان في أوربا وأمريكا تعلم بأمر قسوتنا مع الكلاب وإلا لعاد الاستعمار البريطاني الى السودان مجددا بحجة حماية الكلاب من الإبادة.. عندما أتذكر أمر الكتتيب الآن يقشعر بدني من الوحشية التي كنا نمارسها بحق الكلاب، والأعجب من كل ذلك أنني كسوداني نشأت وأنا أعرف أنني مطالب بتعلم كيفية ذبح البهائم، ولكنني لم أعد أطيق حتى مشاهدة شخص آخر يقوم بذبح بهيمة.
وذات ليلة إثنين (وهو اليوم الذي كان مخصصا في جميع أنحاء السودان للنشاط الثقافي والأدبي في المدارس) كنت مكلفا بتقديم محاضرة ضمن نشاط الجمعية الادبية عن "سبل كسب العيش في السودان" وهو مقرر الجغرافيا العتيق الذي كان يتضمن رحلات الى مختلف أقاليم السودان مثل القولد وريرة والجفيل وود سلفاب وبورتسودان وعطبرة وغيرها، للتعرف على جوانب من الحياة فيها، ولسوء حظي كان هناك كتتيب منصوب شرق المدرسة، وكلما نطقت بجملة اصدر كلب عويلا ينم عن ان حبل المشنقة التف حول عنقه، فيتركني الطلاب واقفا مثل الأهبل، ويندفعون لقتل الكلب، ولما تكرر الأمر نحو عشر مرات، شكل المدرسون فرقة إعدام، لأعضائها وحدهم حق ترك المحاضرة لقتل الكلاب، وانتهت المحاضرة بالتصفيق، وقدم لي احد المدرسين جائزة، كانت علبة حسنة الشكل عليها كلام باللغة الانجليزية المركزة "من خارج المقرر"، ولم أكن قادرا وقتها على فك طلاسمه، واحتفظت بالعلبة لمدة طويلة وأنا لا أعرف ما فائدتها وقيمتها، وبعد أكثر من سنة او سنتين، سافرت بتلك العلبة الى مدينة كوستي لزيارة والدي، وعرضتها على قريب لي نشأ في المدينة، ولكنه اعترف بأنه لم ير لها نظيرا، وهكذا جلسنا في مكان منعزل وأتينا بسكين وشاكوش وأزلنا غطاءها ووجدنا بداخلها مواد كريهة الرائحة تعلوها طبقة رمادية وتجوس فيها ديدان صغيرة، ولو كان المدرس الذي أهداني تلك العلبة واقفا أمامي في تلك اللحظة لضربته بالشاكوش والسكين: هل يعتبرني وحشا حتى يهديني علبة مليئة بالديدان"؟ وعرفت لاحقا أنها كانت علبة كرز.. وانتهت صلاحيتها، وانا أخبئها في شنطتي الصفيحية.. وضاعت على بذلك طفرة طبقية أخرى حيث لم أعرف طعم الكرز إلا بعد مرور نحو عشرين سنة على نيلي لتلك الجائزة'.
يوم فوجئنا بالقرن العشرين
من مكاسب الطفولة التي نجمت عن العيش في شمال السودان النوبي، أنني صرت مهيأ نفسيا وعقليا لأهوال يوم القيامة، لأنني شهدت جانبا منها، وكانت المرة الأولى وأنا تلميذ في مدرسة بدين الابتدائية، وكان الجو شتائيا عندما ظهر سيف أبيض طويل ومتجانس الشكل بعرض السماء، فانفجرت آلاف الحناجز بالعويل والصراخ: ويبيووو ويبيوو... هذه هي الصرخة النوبية التي تقابلها باللهجة المصرية: يا لهوي يا لهوتيني يا تلات لهويني.. يا مصيبتي، وكان الأكثر إيمانا يستنجدون: وو نور كمبو كقر.. يا الله يا قوي يا

عزيز،.. بدأ قرع الطبول، استغفر الله كانوا يقرعون صفائح الزيت والجاز الفارغة، فالطبول ليست عنصرا من عناصر الثقافة الفنية او الدينية في النوبة، وعلى ايقاع رنين القيروانات (الصفائح) كان الناس يرددون: يا الله رحمق سُكر.. يا الله بلاق دقو.. اللهم انزل علينا رحمتك وارفع البلاء عنا ..وأمام كل بيت اشعلت النار في الكوانين (جمع كانون وهو موقد النار، وبالمناسبة هي كلمة فصيحة)، وبدأ كل بيت في إعداد البليلة، من اللوبياء والذرة الشامية، فهذه عادتنا عند كسوف الشمس وخسوف القمر، وبإزاء كل الظواهر الطبيعية التي لم نكن نعرف لها تفسيرا... ولكن غالبية الناس كانت في حالة انهيار كامل بعد ان أدركوا انهم لم يحسنوا الاستعداد ليوم القيامة، وها هي السماء تنشطر نصفين، وستهوي على رؤوسهم بعد قليل فاندفع الناس يطلبون الصفح والعفو من أمهاتهم وآبائهم وأقاربهم وجيرانهم.. ومنهم من سدد دينا كان قد ظل ينكره على مدى عشر سنوات او أكثر.. وهرع بعض الحكماء الى جدي الشيخ حاج فرحان وكان فقيها عالما وقارئا وكاتبا وشاعرا ويقضي معظم ساعات يومه في التأمل والاطلاع، ووجدوه ثابت الجأش وهو يقرأ: إذا السماء انشقت، وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت، وألقت ما فيها وتخلت،... ولم يعجب ذلك بعض من كانوا يريدون من الشيخ ان يطمئنهم بأن الأمر لا يتعلق بقيام الساعة، وصاح أحدهم بما معناه: كلام شنو ده يا شيخ؟ جيناك تطمنا.. تقوم تشق علينا السما والأرض؟ ولكن حاج فرحان واصل تلاوة القرآن دون ان يبدو عليه هلع او وجل.

وفجأة لاحظ أحدهم ان السيف الذي كان يشق السماء صار يخبو، بل واختفت أجزاء منه... منهم المتشائم الذي قال ان الجزء الذي اختفى من السيف او الخيط الأبيض لابد ان سقط على الخرطوم لأن أهلها فاسدين، ويقال ان عندهم دكاكين تبيع الخمر الملون المصنوع في بلاد الخواجات، ومنهم من قال ان الجزء الذي اختفي من الخيط عبارة عن فجوة ستسقط منها النيازك والشهب فيهلك الجميع.. ولكن الطمأنينة عادت الى القلوب بعد ان اختفى السيف الابيض تماما دون ان تأتي نفخة الصور.. وظل أمر ذلك الخيط المرعب لغزا لأهل بلدتنا، وبعدها بسنوات كنت في الخرطوم ورأيت نفس ذلك الخيط في السماء، وبدأت أهمهم بسورتي الزلزلة والانشقاق، فصاح من كان معي متسائلا عن سر طنطنتي، فأشرت الى السماء بيد مرتجفة فقال: في شنو في السما؟ فقلت له بصوت مبحوح: ما شايف الخيط الأبيض داك؟انفجر رفيقي السخيف ضاحكا وشرح لي ان الخيط ينجم عن نفث الدخان من الطائرات "النفاثة" وقال لي كلاما طويلا عن تكثف البخار.. وفي ذلك اليوم أحسست ولأول مرة بالانتماء الى القرن العشرين "بالتجنس"

****

وفاجأنا القرن العشرين مجددا

ذلك ما كان من أمر خيط الطائرة النفاثة التي لم يكن أهل بلدتنا قد سمعوا بها، وحسبوا دخانها الذي ظل مرسوما في الفضاء، إيذانا بالقيامة ونفخ الصور، ثم التحقت بمدرسة البرقيق الوسطى، ولم يكن يحيط بها اي مبنى، بل كانت الأرض التي من حولها من الجهات الأربع خالية نمارس فيها اللعب والشيطنة، وذات يوم وبينما كنا في الحصة

الثالثة سمعنا دويا يصم الآذان، ولأن تلك الحصة تعقب وجبة الفطور مباشرة، فقد حسبت الدوي ناجما عن تعاطي الفول، لأن الفول يسبب النعاس والهذيان، ولكن الكراسي والأدراج بدأت في الاهتزاز ولمحنا عبر النوافذ طائرا عملاقا يروح ويجيء فوق مبنى المدرسة، ومرة أخرى انطلقت صيحات: ويبيوووو ويبيو،.. يا للهول ويا للمصيبة! واندفعنا خارجين من غرف الدراسة عبر الأبواب والشبابيك، وانطلق بعضنا صوب السوق، وآخرين صوب" بلدة " كرمة البلد" القريبة، ولكن الطائر الوحشي ظل يطاردنا فنتقهقر الى المدرسة.. كنا نحو 160 طالبا في زمن كان فيه الحد الأقصى للطلاب في كل غرفة دراسة 40 طالبا، وكنا جميعا نبكي ونصرخ ومعظمنا ينوح (باللغة النوبية): وو يو (يا يمة)،.. وو نور/أرتي (يا الله)، وحاول المدرسون تطويقنا وتهدئتنا ولكن لم يكن هناك مجال ل"قم للمعلم وفه التبجيلا"، فقد انفلتت الأوضاع، فالمسألة حياة او موت ولا مجال للانضباط واحترام المعلم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.. وفجأة سكت هدير ذلك الطائر الخرافي، فتحركنا ببطء في مختلف الاتجاهات لمعرفة الوجهة التي طار اليها.. ونجح المدرسون في تهدئتنا وطلبوا منا الانتظام في طابور طويل وساروا بنا الى الفسحة الشمالية المتاخمة للمدرسة، وكان الطائر جاثما هناك بلا حراك، فانفلتت الأوضاع مجددا وجرينا في كل الاتجاهات مبتعدين عنه، ثم لاحظنا ان بعض الاشخاص يقفون قريبا من الطائر دون ان يمسهم سوء، فاستجمعنا شجاعتنا واقتربنا منه قليلا.. وسمعنا ناظر المدرسة يقول كلاما عن الهليكوبتر وعن فريق من المساحين جاءوا ليحددوا موقع مستشفى البرقيق، وأنهم حلقوا مرارا فوق المدرسة بحثا عن موقع مناسب تهبط فيه الهليكوبتر،.. انقلب خوفنا سرورا، بل وتجرأ بعضنا على لمس "الهلاكوبتر" بأيديهم... وفي نوبة سخاء قال قائد الهليكوبتر انه مستعد لحمل تلميذين والطيران بهما لبضع دقائق فوق المنطقة، فاندفعنا جميعا فارين صوب المدرسة.. وظلت سنة الهليكوبتر جزءا من التقويم في منطقتنا مثل مجاعة "سنة ستة" و"توسين قم".. أي سنة الفيضان والمقصود بها عام 1946 الذي شهد فيضانا مدمرا .

يتردد كثيرا على ألسنة قادة التمرد في ولاية دارفور في غرب السودان أن أهل الإقليم تعرضوا للتعريب القسري، وشاهدهم على ذلك أن المدرسين كانوا يعاقبون كل من يضبط متلبسا بالحديث بلغة محلية، عندئذ فقط أدركت اننا في منطقة النوبة كنا ضحايا الجنجويد لسنوات طويلة دون وعي منا بذلك، فقد كنا نتعرض لضرب مبرح في المدرسة الوسطى إذا ضبطونا نتكلم باللغة النوبية، ولو كان المدرسون الجنجويد (تسمية أطلقها متمردو دارفور على من يصفونهم بالعرب ويتهمونهم بالإغارة عليهم والفتك بهم وقالوا ان الكلمة تحوير لعبارة "جن على جواد").. لو كان أولئك المدرسون يعرفون مقدار الأذى الذي كنا نُلحِقه باللغة العربية، لتركونا نبرطم على كيفنا بل ولشجعونا على عدم التحدث بالعربية.. وعلى كل حال فقد أتى تعريبنا قسرا بنتائج "إيجابية" من وجهة نظر الجنجويد، فقد صار المامنا بالعربية أفضل، وساعدنا على ذلك وجود أقلية جنجويدية من قبيلة الشايقية بالمدرسة، كان التعامل معها يرغمنا على التحدث بالعربية، وفي المدرسة المتوسطة عانى الكثير منا من اللغات الأجنبية وهما العربية والانجليزية،

وكانت الانجليزية أخف وطأة على قلوبنا وعقولنا لأنها مثل لغتنا النوبية لا تعرف التذكير والتأنيث، وليس فيها مثنى، في ذات عام جاءنا استاذ "جعلي/عربي" يجمع بين الصرامة وروح الدعابة ووجد تلميذ صعوبة في فهم الدرس، وبكل جلافة القروي رفع يده صائحا: يا فندي.. إنتي بتقولي شنو.. ممكن تشرحي سيادة (زيادة) شوية؟ هنا صاح المدرس: أنا أرجل منك ومن قبيلتك يا عجم يا بجم ،.. ثم ضحك.

الشيوعية الشعورية

رغم معاناتنا في المدرسة المتوسطة من التطهير العرقي بالتعرض للضرب كلما ضبطونا بجرم التحدث باللغة النوبية، لإرغامنا على إجادة العربية، إلا انني أحببت اللغة العربية، استغفر الله فلم أحب قواعد اللغة العربية قط، ولكنني احببت الشعر العربي وكنت أتذوقه وأستطيع فهم بلاغياته

وكما قلت في مقالات سابقة، فقد كان يحز في نفوسنا نحن النوبيين، ان الإذاعة تأتي بأغنيات للمطرب لعثمان حسين، وكان زملاؤنا من أبناء قبيلة الشايقية في المدرسة يحسون بالزهو كلما غنى الرجل ويتباهون لكون عثمان حسين منهم، وطبعا ما كان واردا ان يبدي نوبي الإعجاب بعثمان حسين تفاديا للتعرض للاتهام بالعمالة ل"الأعداء التاريخيين"، الشايقية، ثم جاء المطرب المجدد إبراهيم عوض وأصاب جماهيرية بين الناطقين بالعربية من غير الشايقية، وشخصيا أحسست بان ابو خليل مطرب متفرد، وبما ان لغتي العربية كانت أفضل حالا من لغة بقية "البرابرة" الذين كانو معي، فقد وجدت أغنياته هوى في نفسي،.. وشاء حظي العاثر ان أردد مقطعا من أغنيته الشهيرة "حبيبي جنني وغير حالي"، دون ان انتبه الى وجود أبي على مقربة مني، فانفجر في وجهي: ده شنو يا قليل الأدب؟.. باختصار قال لي ان الاستماع الى ابراهيم عوض ممنوع! لماذا يا دادي؟ قال: لأنه شيوعي، وشرح لي ان الشيوعيين من سلالة الشايقية وبالتالي لا خير فيهم!! وهكذا ودون قصد منه جعلني أبي أكن إعجابا للشيوعيين، فقد خالطت الشايقية في المدرسة ووجدتهم أهل شعر ودعابة ومرح، واستمعت الى غناء ابراهيم عوض وأدركت انه مطرب متميز، ولكنني كنت أعرف ان الاعجاب بالشيوعيين يودي في داهية، ومن ثم كنت اردد اغاني ابراهيم عوض فقط اثناء الاستحمام، وعندما أتيت الى الخرطوم في إجازة لفت انتباهي ان الكثير من الناس يرددون اغنيات ابو خليل علنا في الشوارع وفي البيوت، وحسبت عندها ان الشيوعيين استولوا على السلطة.. بعبارة أخرى حسبت ان الرئيس الفريق ابراهيم عبود الذي كان رئيسا للبلاد وجماعته شيوعيون، ومن فرط اعجابي بالشيوعيين لأن ابراهيم عوض كان الناطق باسمهم، فقد خالفت تعليمات مدرس اللغة العربية وكتبت قصيدة في مدح الحكومة الشيوعية، ..لا أذكر منها سوى عجز بيت جاء فيه "وتقلب السودان كالحرباء"، كنت أقصد ان أقول ان حال السودان تبدل الى افضل بمجيء عبود وجماعته، وعرضت القصيدة سرا على مدرس نوبي/محسي كان يكتب الشعر اسمه ابراهيم عثمان، فوقف عند حكاية الحرباء وقال: ده أجمل وابلغ وصف لحال السودان.. بس تاني ما تكتب شعر... هكذا كانوا يقتلون المواهب في مدارس ذلك الزمان!! استحلفك بالله ايها القارئ ألا تجد في قولي

"وتقلب السودان كالحرباء 'بعد نظر سياسيا؟ أليس هذا ما حدث منذ ان كتبت شعري المؤذ ذاك؟ يوم رأسمالي ويوم اشتراكي ويوم ناصري ويوم بلا لون او طعم ويوم اســـــــــــلامي ويـــــــــــوم جنجويـــــــــــدي؟

ثم جاء الموسيقي النوبي العملاق ميمد أُسمان (محمد عثمان) وردي ومسح بالشايقية والجعليين وكل عرب السودان المستنسخة الأرض، وشمخنا بأنوفنا الى السماء، هزم وردي جنجويد الغناء في عقر دورهم وغنى بلغتهم واكتسح الساحة، ثم غنى" الليلة وو بلال" باللغة النوبية.. إر أونجا تيلي جقجقا دين نمي.. جقجا تيلي أونجا دين نمي.. إر أونجكاي جقجا ... جقجكي زالا.. إر إسوني سمره كيل أوني!! هذا كلام يسبب تلفا في الحبال الصوتية حتى لو حاول ترديده نوبي أصيل، ولكنه بليغ ولحنه منه وفيه: ابكي لك فتضحكين، واضحك لك فتبكين،.. بكائي يثير ضحكك وضحكي يثير غضبك ..إلى متى سنبقى على هذا الحال؟ وبعد ان سمحت اذاعة ام درمان لوردي بالغناء باللغة النوبية أحسسنا لأول مرة أننا جزء من السودان، ولم نكن وقتها نعرف ان ثلثي السودان ملكنا تاريخيا.. وأن جنجويد الخرطوم يعيشون ضيوفا علينا، ويفسر هذا لماذا لم يرتفع صوت انفصالي واحد في شمال السودان النوبي: كيف ينفصل الإنسان عن ذاته وكيانه وهويته وتاريخه وموروثه وثقافته وحضـــارته؟

المسيرة من القرية الى البندر

عندما كانت النفوس طيبة وخالية من العقد، كنا نوبيين وبديرية وشايقية وميرفاب وإنقرياب ورباطاب وجعليين وعبابدة وقبائل أخرى جزءا من المديرية الشمالية، واليوم توزع السودان الى ستمائة مديرية ومحافظة وولاية ومع هذا فكثيرون يرون أن ذلك لا يكفي ولابد من المزيد من المحافظات والولايات والولاة والوزراء،.. مبروك للجميع فهكذا يتم تقسيم السلطة والثروة!! وقريبا ستطالب كل قرية بالحكم الذاتي وبنصيبها في ثروة "الجن" التي لا أعرف أين هي كي يطالب بها كل من يحمل مسدسا غير مرخص... المهم خلونا في السيرة والمسيرة، وأكيد زهج بعضكم من مرابطتي في شمال السودان لعدة حلقات، ومن ثم لابد ان أشد الرحال الى أم درمان وبالتحديد الى مدرسة وادي سيدنا الثانوية، والتي استولى عليها العسكر خلال فترة حكم الديكتاتور جعفر نميري، وحولوها الى كلية حربية، وألحقوا بها قاعدة جوية (وقد قمت بتشكيل تنظيم سري اسمه "حركة تحرير وادي سيدنا" وستكون عضويتها مفتوحة لكل خريجيها ومن بينهم ضباط عديدون.. منهم في عهد نميري وحده الرائد فاروق حمد الله _قتله نميري إعداما عام 1971 - ومأمون عوض ابو زيد، وهما مهندسا الانقلاب الذي أوصل نميري الى الحكم، وقد رحب الرائد مأمون بالفكرة منذ عشر سنوات وما زال يخطط ويتكتك، وكان من بين من درَّسوا فيها الزعيم اسماعيل الأزهري، أول رئيس وزراء للسودان المستقل.. وحتما سأجد جهة تتكفل بنفقات النضال العادل الذي سنشنه لتخليص وادي سيدنا من الحكم العسكري).. المهم انني اكملت المرحلة المتوسطة في البرقيق، وتم قبولي في وادي سيدنا، وكان أهم ما في الموضوع ان الراديو نطق باسمي، وأحسست

عندها أنني لا أقل شهرة عن المطربة عائشة الفلاتية ومحمود المليجي وأم كلثوم وهمرشولد (كان الأمين العام للأمم المتحدة ويقال ان المخابرات الامريكية دبرت مقتله في حادث طائرة في الكونغو)

على أيامنا كانت نتائج القبول في المرحلتين الثانوية والجامعية تذاع عبر الراديو، وفي اليوم المشهود جلسنا أمام الراديو، وتصلبت أجسامنا في تمام الساعة الثامنة مساء: هنا ام درمان، إذاعة جمهورية السودان .. إليكم في ما يلي أسماء التلاميذ المقبولين في المدارس الثانوية: جعفر عباس سيد أحمد،.. أيوي أيوي يويويويويوي.. انفجرت حناجر النساء بالزغاريد، وانطلقت رصاصات من بندقية العمدة محجوب عبد الكريم.. وسر اهتمام العمدة بنجاحي كان ان يوم إذاعة النتائج تزامن مع عقد قران أخي عبد الله على بنت شقيق العمدة، وكان العمدة وكيل العروس، وكان يملك ثلاثا من بين نحو خمسة أجهزة راديو في جزيرة بدين.. وكلما أذاع الراديو اسم تلميذ من ابناء بدين اطلق رصاصات من بندقيته ..وسافرت من بدين للالتحاق بالمدرسة الثانوية، ولم أعد إلى بدين قط منذ ان أكملت الدراسة المتوسطة.. وبعدها اصبحت ابن بندر، وصارت عطلاتي موزعة بين مدينة كوستي حيث بيت العائلة، والخرطوم بحري حيث معظم أهلي وحيث مسقط رأسي، ولكن بقي الحب للحبيب الأول "بدين"، وبالمناسبة فان اسرة والدي أصلا من جزيرة سمد وهي من أجمل بلاد الله، ما رأيت في اي جزء من السودان بيوتا تماثل بيوتها جمالا وزينة، فكل بيت فيها ملون بألوان زاهية وأينما وقفت في تلك الجزيرة يتناهى الى أذنيك خرير المياه المتدفقة من الشلالات المحيطة بالجزيرة، وفي سمد رأيت لأول وآخر مرة المراكب الصغيرة التي تتسع لشخصين فقط او ثلاثة، وكانت مهنة اجدادي في سمد هي صناعة المراكب، وكانوا يستخدمون بعض تلك المراكب وبالتحديد نوعا ضخما يسمونه "البيليكي" في التجارة: يحملون عليها سلعا ويسافرون بها شمالا وجنوبـــا.

فارقت الشمال نهائيا منتقلا الى وادي سيدنا الثانوية، وكان الشيء الوحيد المفرح في أمر ذلك الانتقال هو انني لن أعاني قط من حشرة النمتة ، فرغم ان عمر الواحدة منها لا يزيد على ست ساعات، إلا ان نصيب الفرد منها يوميا كان حوالى عشرين مليون حشرة، وكنا نتفاداها بوضع أكياس من القماش الخفيف على رؤوسنا كي نحمي آذاننا من قرصاتها التي تترك قروحا كتلك التي تتسبب فيها الذبابة الرملية.

ولم تدم سعادتي بفراق النمتة طويلا، ففي وادي سيدنا عرفنا حشرة حقيرة اسمها "الفسَّاية"، ولا أدري لماذا أطلق عليها ذلك الاسم السخيف رغم انها لا تعاني من الغازات بل تمشي فوق جلدك وتفرز مادة سائلة فتتورم المنطقة التي مشت عليها.

لابد دون شهد المدينة من بعض الإبر

عندما ذهبت الى شمال السودان منتقلا من مدينة كوستي كان عمري نحو اربع سنوات، و وقضيت فيها المرحلتين الابتدائية والوسطى، وبعدها فارقتها نهائيا، والسبب في ذلك ان اهلي من الجهتين كانوا موزعين بين كوستي والخرطوم بحري، وطوال العقود الماضية ظل بيتنا في بدين مهجورا، ويقال ان قبيلة من الجن تقيم فيه، ومن ثم لم

تتعرض محتوياته للسرقة، رغم توافد أعداد كبيرة من المهاجرين من مختلف أرجاء السودان على بدين في السنوات الأخيرة، ولا نستطيع ان نعرضه للبيع لأن المشتري سيشترط إخلاء البيت من الجن، وقد مات كل أجدادي الذين كانوا متخصصين في التصـــــــــــــدي للجـــــــــــن.

طبعا كنت خلال سنوات الدراسة في بدين والبرقيق اسافر في الأجازات الى كوستي وأعود لأحدث أقراني عن دار الرياضة (صاروا لاحقا يسمونها "استاد") والسينما والآيسكريم، وكانوا يعتبرون ذلك كذبا وخرافات، وبعد ان التحقنا بوادي سيدنا صار كثيرون ممن كانوا "يكذبونني" يطلبون مني النصح في كيفية دخول دار الرياضة وشراء الدندرمة، وكان منهم من اشترى دندرمة في الاجازة ووضعها في الشنطة ليهديها الى إخوته في الإجازة في المديرية الشمالية.. وكانت الرحلة من والى الشمالية في ذلك الزمان تتم عبر مسارين، أولهما قطار كريمة والآخر بالنسبة لنا اهل بدين، يبدأ من أكد التي تقابل بدين من الغرب، ومنها نركب اللواري الى ام درمان.. كانت تلك الرحلة ضربا من الانتحار، فليس على طول الطريق الذي كان اجتيازه يستغرق نحو 40 ساعة اية علامات، وكانت به أجزاء رملية في منطقتي الباجة وابو ضلوع يجتاز اللوري الكيلومتر الواحد منها في ساعتين.. وكان هناك شيطان اسمه ابو كدوس كان يجري امام اللواري ليلا وضوء باهت ينطلق من كدوسه (البايب) ليضلوا الطريق في الصحراء النوبية ويهلك الركاب، ولكن ما كان يخيفني أكثر من ابو كدوس ذاك هو ان سائقي اللواري التي كنا نسافر عليها كانوا يتوقفون هنا وهناك ويخرجون زجاجات الخمر البلدي "العرقي"، ويشفطون محتوياتها قبل استئناف الرحلة ..وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلتني لا أفكر في العودة الى الشمالية مرة أخرى، كيف تضمن سلامتك في رحلة عبر الصحراء ليوم ونصف اليوم والسائق يحلق في عالم آخر تحت تأثير الكحول وقد يخدعه الجني ابو كدوس ويودينا في التوج؟ وهكذا اكتفيت بأن أحمل بدين في وجداني أينما عشت وذهبت.
ما علينا: انطلق بي اللوري المزود بمقاعد تسبب البواسير والناسور الى ام درمان، وكان ذلك الوداع الأخير لبلدتي بدين، وكنت مثل كل القرويين سعيدا بالانتقال الى حياة المدن، حيث الباسطة(البقلاوة) والرغيف الفينو والكهرباء والدش (بضم الدال المشددة اي أداة الاستحمام).. وداعا للطشت والجردل وصابون حبوبة فاطنة (فاطمة)، الذي كنا نستخدمه في غسل الملابس وغسل الأجسام، وكان ذلك النوع من الصابون من انتاج مصلحة السجون، وكانت الحكومة توزعه علينا مجانا في المدارس، ولم يكن له شكل هندسي ثابت فقد كان يصنع يدويا..وزي ما تجي، تجي.. أي كما نقول في السودان "عاشق معشوق"، والعبارة هذه لا صلة لها بالعشق والحب والرومانسية بل تعني "الكلفتة"، .. قطعة مربعة وأخرى منبعجة وثالثة مكورة، وكان أسوأ ما في الاستحمام بصابون حبوبة فاطنة إنه لم يكن يخلو من رأس مسمار او قطعة زلط.. تفرك بها جلدك فيسيل دمك البريء الطاهر في الطشت.

****

ز.. سنة أولى حب و"ثانوي"

في مدينة كوستي التي كانت بحق عروس النيل الأبيض، عشت أول تجربة حب في حياتي، فخلال إحدى الإجازات وأنا بعد تلميذ في مدرسة البرقيق الوسطى في شمال السودان النوبي، زرت كوستي حيث كان بيت العائلة الثاني بحكم وجود والدي واخوتي الكبار فيها، ووقعت في غرام سعاد حسني بعد ان شاهدت لها فيلمين وهي بعد فتاة صغيرة، وكان ذلك حافزا لي للاجتهاد في دروسي لنيل شهادة محترمة حتى أتمكن من طلب يدها .. وصارت القراءة والمطالعة شغلي الشاغل.. ثم وأنا أتأهب للانتقال الى المرحلة الثانوية عرضوا لها فيلما مع عبد الحليم حافظ،.. وتخيل حجم ألمي وحزني وأنا أراها "تعمل حركات مش كويسة" مع عبد الحليم حافظ.. فنزعتها من قلبي وهو يقطر دماً، وبعدها بسنوات كنت في لندن عندما توفي فيها عبد الحليم حافظ وجاءني نفر من الأصدقاء والحزن يعلو وجوههم يدعونني للمشاركة في تشييع جثمانه فرفضت: كيف أمشي في جنازة من خطف مني حبيبتي وداس على عواطفي؟

كان من بين الطفرات الكبرى التي صاحبت انتقالي الى مدرسة وادي سيدنا الثانوية الواقعة الى الشمال من ام درمان، حلاقة الشعر "كاري"، كما كانت تسمى قَصَّة الشعر الرائجة في ذلك الزمان، وكان أهلنا قبلها يجزون شعر رؤوسنا من لغاليغه بالمقصات والأمواس التي من عهد عاد وإرم ذات العماد، وفي وادي سيدنا كان هناك حلاق خاص بالمدرسة اسمه "عم بشتنة"، لم نكن نعرف اسمه الأصلي، ولكنه اكتسب الاسم المقترن بالبشتنة (التي هي البهدلة)، لأنه كان يقص الشعر على هواه، ويجعل رأسك مليئا بالمطبات، وقد يكون طول الشعر في الجانب الأيمن من الرأس بوصة كاملة، وعلى الجانب الأيسر ربع بوصة، وكان مرد ذلك إنه يعاني من حالة نعاس دائم، وكان أحيانا "يشخر" وهو يقص شعرك فتصبح ماكينة الحلاقة مثل المحراث وتترك أخدودا على رأسك

طبعا لن أنسى اليوم الأول الذي توجهنا فيه الى وادي سيدنا،.. كانت نقطة التجمع امام اجزخانة (صيدلية) العاصمة المثلثة المقابلة لمدرسة الخرطوم شرق الابتدائية، أول مدرسة نظامية في السودان أسسها رفاعة رافع الطهطاوي، وكانت تطل على ساحة ابو جنزير في الخرطوم، ولأن جعفر نميري لم يكن يقيم وزنا للتاريخ فقد باع المدرسة لأحد البنوك.. وجاءت شاحنات ضخمة (قندرانات) من النقل الميكانيكي وحملتنا عبر ام درمان الى المدرسة، وركبت القندران بنفس احساس من يركب الرولز رويس.. لا تنسوا انني قدمت من بيئة كان الارستقراطيون فيها يركبون الحمير،.. وكان جدي لأبي مغرما باقتناء الحمير والاعتناء بزينتها، بل قايض ذات مرة حمارا بقطعة أرض مساحتها فدان كامل.. كان يملك أراض شاسعة نسبيا، ولكن، ولأنه لم يكن مزارعا فإن امتلاك الارض لم يكن يعني بالنسبة له الكثير، وورث أولاده عنه كره الزراعة ولم يتخذها اي منهم مهنة، ومات جدي وترك 12 حمارا.. ولحسن الحظ لم يكن الورثة في تلك الايام

يتنازعون ويتخاصمون وبالتالى لم تتسبب تلك الحمير في نزاعات بين أعمامي وعماتي، ولا أدري كيف تم التخلص منها.
المهم: وصلنا المدرسة التي كانت تشبه اشياء رأيناها في الأفلام الهوليوودية من حيث المعمار والتشجير.. في حقيقة الأمر كانت تضارع كل المدارس البريطانية جمالا، وأجزم ان الامكانيات والموارد التي كانت متاحة فيها لا تتوافر اليوم في سبع جامعات مجتمعة.. كنا مثلا في حصص الكيمياء نجري تجارب على مسحوقي الذهب والفضة، وكانت لدينا في مجال الفنون قاعات ضخمة للرسم وصناعة الفخار وطباعة المنسوجات.. وكانت لدينا قاعة محاضرات تتسع للمئات، وكانت خلال اليوم الدراسي تستخدم كسجن للطلاب المشاغبين في ما كان يعرف بـ "الديتنشن" وهو الحبس لمدة معينة يتم خلالها تكليفك بنسخ صفحات من قاموس، او كتابة جملة سخيفة سبعمائة او الف مرة.
****
بيئة عصرية وتحالفات عرقية
كانت مدرسة وادي سيدنا الثاوية "دولة" قائمة بذاتها، تتوفر بها كل مدخلات التعليم، ويعيش فيها المعلمون وعائلاتهم مع الطلاب في حيز واحد محاط بالخضرة والبساتين المطلة على النيل، وبها مركز شرطة يتلقى العاملون فيه التوجيهات من ناظر المدرسة، وكانت بها عدة أندية اجتماعية للطلبة والمدرسين والعمال، ومركز صحي حسن الإعداد، ومدرسة ابتدائية ومرافق لكل أنواع الرياضة، بل كانت أول جهة في السودان تعرف لعبة كرة اليد وخصصت لها ستة ميادين.
وصل ابو الجعافر مدرسة وادي سيدنا الثانوية (المحتلة حاليا من قبل العسكرتاريا بعد ان تم تحويلها الى كلية وقاعدة حربية)، وأحس أنه بلغ كمال المجد، فكون المدرسة تتألف من طابقين أعطانا الإحساس بالارتقاء "الطبقي"،. ستة ملاعب كرة بالنجيل الطبيعية الذي يتم قصه بطريقة أفضل من الطريقة التي كان حلاق المدرسة، العم بشتنة يقص بها شعر رؤوسنا.. حوض سباحة أولمبي.. ملاعب تنس أشكال وألوان.. ونادي زوارق كنا نستخدمه لسرقة البطيخ من المزارع التي في الشاطئ الآخر أو الجزر القريبة من المدرسة.. ولكل داخلية ملعب لكرة السلة وآخر للكرة الطائرة.. وبستان به فواكه أشكال وألوان... وكانت هناك مكتبة تضم آلاف الكتب المحترمة ويعمل بها اشخاص ذوو ثقافة عالية يوجهونك الى نوع القراءة التي تناسب ميولك ... يكفي أن أقول ان أمين مكتبة مدرستنا تلك كان قاسم نور الذي يعرف حاليا بعميد علم وإدارة المكتبات في السودان ونال درجة الأستاذية (بروفسور) في علم المكتبات
وكان أجمل في ما في المدرسة ان أولاد أم درمان (المتحضرين) فيها كانوا أقلية مضطهدة.. اثنان او ثلاثة في كل حجرة دراسية، وكان غالبية طلاب المدرسة من قبائل شمال السودان النيلية ومن بينهم النوبيين: المحس والدناقلة، وكانت حرية التعبير باللغة النوبية مكفولة، بمعنى انه لم يكن هناك تطهير لغوي عرقي كما كان الحال في مدرسة البرقيق الوسطى حيث كانت عقوبة التخاطب باللغة النوبية هي الجلد في الأرداف،

وهكذا تخرج المئات من المحس والدناقلة من وادي سيدنا دون ان يضيفوا كلمة جديدة الـــــــــــى لغـــــــــــتهم العربيـــــــــــــة الكحيانـــــــــــــة .

وكان هناك حوض ضخم قريب من قاعة الطعام في المدرسة، وكان المحس والدناقلة يحتلونه قبل وبعد الوجبات حتى صار ناديا خاصا بهم (بصراحة لم يكن حوضا "بريئا" بل كان نقطة تجمع مياه المجاري.. بس مش المجاري اللي في بالك، لأنه لم تكن هناك سايفونات في المدرسة) وكان بالمدرسة عدد لا يستهان به من الشايقية، الخصوم التاريخيين لنا نحن النوبيين، ولكنهم وفي مواجهة أولاد البندر (أم درمان) "المتفلسفين" والجعليين (الذين يزعمون أنهم ينتمون الى البيت الهاشمي وكلما قلنا لهم: ارحلوا الى دياركم "السعودية" قالوا لنا: إنهم سيبقون في السودان باعتباره امتدادا لمملكة أجدادهم).. المهم ان الشايقية، تحالفوا على مضض مع المحس والدناقلة.. (وما زلت احتفظ برسالة من الشايقي عبد الله علي الحاج بابكر عنوانها "ألحس كوعك" وهي تعبير بليغ عن فعل المستحيل، ويهددني بأن قومه سيستأنفون الغارات على أهلي النوبيين إذا ذكرت الشايقية بسوء.. يا صديقي والله ما عاد فيكم حيل حتى للتصدي لغزو الجراد.. ويقول ان الشايقية الذين كانوا يغزون ديار المحس والدناقلة كانوا أصحاب رسالة!! عيب عليك يا رجل!! أي رسالة واي بطيخ؟ حتى جورج دبليو بوش الذي لم يكن يعرف كوعه من بوعه يعرف ان جميع المشايخ و"الأولياء" في السودان "العربي" نوبيون.. وفي كل بلدة سودانية تجد قبة وضريحا ل"ولي" محسي ودكانا لشايقي.. وأهم إسهام للشايقية بعد استقلال البلاد هو أنهم "سودنوا" البقالات بعد خروج اليمانية!! ولولا خوفنا من جفاف الزرع والضرع في بقية أنحاء السودان المستعرب لسحبنا "أضرحة الأولياء" النوبيين منها، فهم جاحدون ويسمون النوبيين "البرابرة"

****

المناضل جعفر والبطل أبو قرجة

كان من حسن حظي انني سكنت في داخلية "أبو قرجة" في مدرسة وادي سيدنا الثانوية،.. أولا الداخلية تحمل اسم واحد من أشجع قادة الثورة المهدية، (اول حركة تحرر وطني ناجحة في المنطقة وخلصت البلاد من الحكم التركي)، وثانيا كان الرجل نوبيا مثلي على السكين.. (بالمناسبة فإن أهل غرب السودان والنيل الأبيض المنضوون في تنظيم الأنصار وحزب الأمة القومي يعتمون على حقيقة ان محمد أحمد المهدي شأنه شأن كل عظماء التاريخ السوداني، كان نوبيا مائة في المائة)، أما أجمل ما في الإقامة في داخلية أبوقرجة فكان ان المدرس المشرف عليها كان عمر حسن مدثر الشهير بعمر ماس (ماث،.. وهي اختصار لماثيماتيكس أي علم الرياضيات الذي كان بارعا فيه)، كان رجلا بشوشا، ومرحا وحاضر البديهة والنكتة، يصرخ في الواحد منا: أنت .. اللي عامل شنبك زي الجغرافيا!! سألناه ونحن في السنة النهائية عن الدراسة في الجامعة مع البنات فقال: ما عندي فكرة.. كانت معنا بنت واحدة عندها شنب، وفي سنة رابعة صارت بلحية.

بعد أن أكملت دراستي الجامعية التحقت بوزارة التربية والتعليم مدرسا للغة الانجليزية، وكنت في مبنى الوزارة استكمل إجراءات الانتقال الى مدرسة سنار الثانوية، عندما التقيت بعمر "ماس" فسألني عن سبب وجودي في الوزارة فقلت له منتشيا: الكتوف تلاحقت.. وبقيت مدرس زيك! فانفجر في وجهي: غبي ..أمشي من قدام وشي وللا أديك شلوت.. كان غاضبا لأنني اخترت التدريس مهنة وقال: لو كنت عايز التدريس ليه ما مشيت معهد المعلمين العالى (كلية التربية حاليا) من البداية، ..على الأقل كنت تاخذ ماهية (راتب) خلال الدراسة.. تحرق عمرك في جامعة الخرطوم عشان تبقى مدرس؟ وبعد ان هدأ قال لي: لن تجد إنصافا في وزارة التربية مهما أخلصت في عملك ..ولو صمدت في التدريس أكثر من خمس سنوات أحلق شنبي! قلت له: انت طبيعي بتحلق شنبك، فقال لي ما معناه أنه يحلق شنبه بانتظام لأنه خسر الرهان مع نفسه، واستمر في التدريس أكثر من خمس سنوات، رغم أنه لم يكن عازما قضاء أكثر من سنتين في تلك المهنة! ولم يضطر أستاذي الحبيب الى حلاقة شنبه لأنني لم أصمد في التدريس خمس سنوات فقد انتقلت الى التلفزيون وصرت أمارس التدريس في فصول اتحاد المعلمين المسائية فقط من باب "تكوين النفس".

كانت فترة الدراسة في وادي سيدنا الثانوية نقطة تحول أساسية في حياتي، فقد ناطحنا خلالها حكومة الفريق ابراهيم عبود العسكرية، وبالتالي كانت فترة حافلة بالمظاهرات والإضرابات، وكنا على الهبشة، نبحث عن اي سبب للدخول في اضراب عن الدراسة ولو لنصف يوم، ولو لم نجد مثل ذلك السبب وضعنا ذبابة او مسمارا في الطعام للدخول في إضراب عن الطعام،.. وفي تلك المرحلة أصبت بالتهابات شديدة في الجهاز التنفسي، ففي المرحلة المتوسطة كنت قد بدات تدخين القمشة، وهو كما قلت مرارا تبغ من فصيلة الشطة، بدليل ان الذباب والناموس لا يقتربان من شخص يدخنه، وكان ما استهواني في التدخين إخراج الدخان من فتحتي الأنف، وفي البداية كان دخان القمشة يحرق تجاويف أنفي كما" موية النار" الذي هو حامض الكبريتيك، ولكن بالعناد والمثابرة، تآكلت أغشية أنفي المخاطية ولم تعد القمشة تسبب لي العطاس والسعال الديكي، فقد كان السجائر في ذلك الزمان من آيات "الثقافة والتحضر" ولك ان تتخيل مقدار فرحتي بظهور سجائر "أبو نخلة" الذي كانت العلبة الواحدة منه تباع بثلاثة قروش،.. طبعا تلك كانت مرحلة التدخين في الدبليو سي والأماكن المهجورة، وفي زمن كان فيه معاكسة بنات الجيران والحي عيبا كبيرا، كان التدخين يمثل أقصى درجات التمرد المراهق بين أبناء جيلي.. وخلال المظاهرات التي سرت فيها ضد حكم عبود استنشقت أطنانا من الغاز المسيل للدموع، وكانت شعبي الهوائية مختلة أصلا بفعل القمشة وابو نخلة، فكان أن أصبت بعسر التنفس فأخذني أبي الى حبشي في كوستي جاء بمرود ووضعه على كانون به جمر متقد ثم كواني به في عشرة مواضع،.. وكان من الوارد أن اكون من أبطال السباحة بحكم نشأتي في جزيرة نهرية، ولكن التشوهات التي في بطني منعتني من ممارسة الاستحمام في أماكن عامة نهائيا بمايوه قطعتين، أو حتى "عباية"!!

****

أخيرا صرت "مناضلا"

عندما وقعت حكومة عبود اتفاقية السد العالي التي قضت بإغراق بلاد النوبة الشمالية ازددت هيجانا ومعاداة للحكومة وشاركت في المظاهرات التي رددت الهتاف الشهير: حلفا دغيم ولا لبنان.. هشم (خشم) القربة يطلع زيتك، وكانت حلفا دغيم جزءا من حلفا الكبرى، أقرب مدن السودان إلى الحدود المصرية، وبالتالي أول من غرق بمياه السد العالي، بينما "خشم القربة" هي المنطقة التي تم تهجير النوبيين اليها بعد إنشاء مدينة تحمل اسم حلفا الجديدة، وكنا سعداء بأننا أبطال مقاومة حكم عبود العسكري، وكنا في وادي سيدنا ننظر باستخفاف لطلاب المدارس الثانوية الأخرى في الخرطوم وأم درمان لأنهم لم يكونوا يجاروننا في عدد المظاهرات والإضرابات، ونغني: يا خسارة رجال تتخاذل/ والطلبة تكافح وتناضل.. وبالطبع ما كان ممكنا لهم ان يجاروننا، ففي وادي سيدنا، كان جميع الطلاب يعيشون في الداخليات أي داخل حرم المدرسة، مما كان يسهل علينا عقد الاجتماعات الموسعة واتخاذ القرارات بينما كان طلبة الثانويات الأخرى داخل المدن يتوجهون إلى بيوتهم في مختلف الأحياء بانتهاء اليوم الدراسي، ..وحقيقة الأمر هي ان طلبة ثانويات وادي سيدنا وخور طقت وحنتوب كانوا يمارسون نوعا من الاستعلاء على بقية زملائهم في المدارس الأخرى، لكونها مدارس قامت على الطراز الإنجليزي وتتمتع ب"رفاهية"، اكاديمية ومعيشية عالية، تماما كما كنا في جامعة الخرطوم نتعالى على طلاب "جامعة القاهرة فرع الخرطوم"، ونسميهم "الفرّاعة"، متجاهلين حقيقة ان فراعة ذلك الزمان كانوا من النوع الذي يسمى في المجال الأكاديمي "ماتيور" أي طلبة ناضجين، لأنهم كانوا مسلحين بخبرة عملية قبل التحاقهم بالجامعة فكانت الدارسة بالنسبة لهم مكملة لتجارب نالوها بالممارسة، وكان طبيعيا من ثم ان يكونوا من المميزين في الحياة العملية بعد التخرج! وعندما النار "حِمت" واشتد أوارها، وتصاعدت المقاومة لحكم عبود، رأينا كيف ان طلاب ثانويات العاصمة شديدو البأس في منازلة شرطة مكافحة الشغب، بل كانوا أكثر منا مهارة في الكر والفر بحكم معرفتهم بجغرافية الأماكن التي كان يمارسون فيها التظاهر. وفي إحدى مدارس العاصمة الثانوية فرقت الشرطة مظاهرة واعتقلت عددا من الطلاب، وانطلقت بهم عربة الكومر الشهيرة، ولكن الشرطة لاحظوا ان طالبا يطارد الكومر وهو يصيح ويلوح بيديه وتوقفت العربة وصعد فيها الطالب مع المعتقلين وقال مخاطبا الشرطة: أنا عضو اتحاد الطلبة، .. تخلوني، وتعتقلوا هؤلاء العواليق (عديمي الوزن)؟

وصارت قضية معاداة حكم عبود بالنسبة لي قضية شخصية بعد ان تقرر إغراق منطقة حلفا النوبية... وظللت لعدة سنوات أتباهى بأنني شاركت في مظاهرة كان يقودها الموسيقار النوبي العملاق محمد وردي وانتهت باعتقاله.. وكانت تلك اول مرة أرى فيها وردي بالعين المجردة.. ولكن ما أحزنني هو أنني لم أنجح قط في استدراج الشرطة لاعتقالي حتى اكتسب لقب "مناضل"، وصراحة لا ألوم في ذلك إلا نفسي، فخلال المظاهرات لم أكن أخشى الكرباج ولا الاعتقال، ولكنني كنت أخشى البومبان اي الغاز المسيل للدموع.. فما ان ينطلق ذلك الغاز البذيء اللئيم حتى كنت اتحول الى بطل أولمبي

في الجري.. وبداهة ما كان الجري من مميزات ومواصفات "المناضل".. ولكن العبد في التفكير والرب في التدبير، فخلال السنة النهائية في وادي سيدنا الثانوية نلت لقب مناضل بجدارة، وتناقلت الصحف اسمي بعد ان صرت عضوا في اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة ودخلنا في إضراب عن الدارسة وسيرنا مظاهرات ضد الحكومة فتقرر فصلي من المدرسة.. و"طيّنها" اللواء طلعت فريد وزير التربية بأن قرر حرماننا نحن أعضاء قيادة الاتحاد الطلابي من الجلوس لامتحان الشهادة الثانوية .

****

الجلف صار نبيلا

نلت مرامي وأصبحت مناضلا بعد ان تقرر فصلي من مدرسة وادي سيدنا الثانوية وحرماني من الجلوس لامتحان الشهادة الثانوية، ومعي بقية قيادة الاتحاد الطلابي، لأننا قدنا نشاطا مناهضا لحكم عبود العسكري .. كان ناظر المدرسة وقتها هو الاستاذ خالد موسى، الذي كان قبلها ملحقا ثقافيا في السفارة السودانية في بون "ألمانيا الغربية"، كان رجلا ذا شخصية طاغية يهابه المدرسون قبل الطلاب.. تلتقي به في الأمسيات فتجد فيه شخصاً "ونّاساً" في جعبته حكايات وطرائف لا تنتهي، ولكن يا ويلك وظلام ليلك إذا ارتكبـــــــت مخالفـــــــة توصـــــــلك الـــــــى مكتبـــــــه .

كان الصول بابكر وهو جندي متقاعد، هو المسؤول عن الانضباط في المدرسة، يطوف بحجرات الدراسة مسجلا "الحضور والغياب"، ويقرع الجرس بإيقاع ثابت، ويتولى جلدنا بموجب روشتات/ وصفات كان المدرسون يكتبونها يحددون فيها عدد الضربات: خمس جلدات على الريق وثلاث جلدات بعد الغداء.. وكنا إذا ارتكبنا مخالفة وقرر مدرس ما تحويلنا الى الناظر نستجديه: الله يخليك حولنا على الصول بابكر يدينا عشرين جلدة... خليهم خمسين ..إعدام.. بس بلاش تودينا للناظر! كان خالد موسى لغزا بالنسبة لنا: كنا إذا زرنا بيته مهنئين بالعيد يتصرف كشيخ عرب.. علي بالطلاق ما تقوموا قبل الفطور.. وكان يدعو زوجته وابنتيه لمصافحتنا .. القهوة يا جماعة.. كعك زي ده عمركم ما شفتوه (وكان على حق فالكعك عندنا في الشمالية كان يسبب التهاب اللثة)، وكان عارفا بالقبائل والأنساب رغم انه أم درماني صرف، ولديه فراسة تجعله يعرف من اية جهة من السودان أتيت، بنظرة عابرة الى وجهك.. وكان يعتبر "أولاد بعد اللفة".. يعني المنتمين الى المنطقة التي تقع شمال "لفة" النيل عند مدينة "أبو حمد"، وبالتحديد من هم من نسل الشايقية والمحس والدناقلة والحلفاويين "كارثة اجتماعية ورمزا للجلافة".. وكنا نكره ابناء ام درمان الذين كانوا يزاملوننا لأن خالد موسى كان يقول لنا نحن "أبناء بعد اللفة": خليكم زيهم مهذبين ومهندمين ومتحضرين! وكنا من جانبنا نعتبرهم "سحاسيح" وهي كلمة كانت شائعة في ذلك الأوان لوصف الرجل المهتم بأناقته ومظهره، وكنا نعاير أولاد المدن بأنهم يستحمون مرتين في اليوم ويمسحون أطرافهم بالدهان.. يا للعار !
كنت- بدون فخر - أبلد طالب في الرياضيات في تاريخ التعليم في السودان، ومن ثم صار عقلي مصفحا لا يستوعب الفيزياء والكيمياء.. وصونا لكرامتي، كنت أزوغ من

حصص تلك المواد وألجأ الى العنبر الذي كنت أعيش فيه في داخلية ابو قرجة، .. وما زلت الى يومنا هذا لا أعرف لماذا يطرحون على الطلاب في حصص الجبر مسائل من نوع: س زائد ص تربيع مضربة في ع أس خمسة تساوي صفراً .. علل!! علة تعِلّك!! لماذا أعلل طالما ان المسألة محسومة ونتيجتها معروفة؟ وما جدوى إضاعة الوقت والجهد طالما ان المحصلة النهائية "صفر"؟ هل لأن العرب يحترمون "الصفر" بوصفهم من اخترعه ثم فرمل وتوقف نهائيا عنده؟
ذات نهار كنت في العنبر هاربا من حصة رياضيات عندما دخل على طفلان: كان احدهما نفيسة ابنة الناظر والآخر كمال يعقوب عثمان وكان أبوه وقتها سفيرا للسودان في موسكو، وكان يقيم في بيت الناظر بحكم القرابة .. كانا عائدين من المدرسة الابتدائية وطلبا مني ان ارسم لهما ماجد لاعب فريق المريخ الشهير وقتها، وكمشجع متعصب للمريخ، جلست ارسم "سبت دودو" حارس مرمى عدونا التاريخي الهلال ملقى على الأرض وكرة ماجد تستقر في الشباك، ثم أحسست بأن الطفلين سكتا عن الكلام والحركة ورفعت رأسي ووجدت الناظر خالد موسى يقف ورائي بقامته الفارعة، فأصدر قولوني صوتا لا يبشر بالخير، وأحسست بضرورة اللجوء الفوري الى دورة المياه، ولكن جميع أطرافي كانت قد اصيبت بالشلل، وحاولت التحصن بشيء من القرآن ووجدت نفسي آتي بشيء من يس وشيء من الزلزلة وشيء من القارعة،.. ثم تكلم الناظر: انت محسي (نوبي) لكن نبيل.. حب الأطفال لشخص ما دليل على أنه انسان فاضل،.. وكدت ان أنهض لأبوس رأسه، ولكنه سألني عن سبب وجودي خارج "الفصل" فقلت له بكل شجاعة الانسان النبيل الفاضل إنني أكره حصص الحساب ومدرسي الحساب واتمنى ان اقتص منهم يوم الحساب، فنصحني بالجلوس في المكتبة كلما "زوغت" من حصة ما.

شكرا جون ميلون
"قفشني" ناظر المدرسة في وادي سيدنا الثانوية الأستاذ خالد موسى وأنا مزوغ من حصة رياضيات، وجالسا أرسم في دفاتر بنته نفيسة وقريب لها كانا عائدين من المدرسة الابتدائية، ولم يعاقبني بل صار يعتبرني متحضرا وابن ناس، وهو الذي كان يعتبر أمثالي من أبناء الشمال السوداني الأقصى قمة في الجلافة والتخلف، وصار كلما مررت به وهو يجلس او يقف مع مجموعة من المدرسين قال لهم: شايفين المحسي المزلط ده؟ ده ولد قلبه أبيض.. ولد فاضل.. ثم جاء الإضراب عن الدراسة، وكنت أحد قادته بحكم عضويتي في اللجنة التنفيذية لاتحاد طلاب المدرسة، ووقفت أمامه فقال لي: يا بطل.. لو تركتم الدراسة حكومة عبود حتسقط؟.. امشي يا حمار شيل بلاويك من الداخلية،.. انت مرفوت (مفصول)! وهكذا تم طرد عشرة منا من المدرسة.. وبعدها بيوم اعلنت وزارة التربية حرماننا من الجلوس لامتحان الشهادة الثانوية الذي كان قد بقي عليه نحو ثلاثة اشـــــــــــــــــهر.

لم أجد الشجاعة لإبلاغ أهلي بأنني صرت مشردا، وصرت زبونا دائما لمقهى "المحطة

الوسطى" في الخرطوم، ولكن نقابات مثل أساتذة جامعة الخرطوم والمحامين واتحادات طلابية عديدة تبنت قضيتنا، وكتب عنها الاستاذ بشير محمد سعيد في جريدة "الأيام" مستنكرا بشدة قسوة العقوبة، فتقرر السماح لنا بالجلوس لامتحان الشهادة من المنازل، وكان نصيبي المدرسة الأهلية الثانوية في ام درمان.. وكان ابن عمتي الشهيد محمد صالح عمر عضوا في نقابة اساتذة الجامعة ويقيم في حي "الثورة" وقرر استضافتي ومعي اثنين من زملائي في بيته ليتسنى لنا الجلوس للامتحان في تلك المدرسة. (استشهد محمد صالح في ما يعرف بمعركة الجزيرة أبا التي خاض فيها معركة ضد قوات حكومة جعفر نميري بعد ان ترك التدريس في الجامعة والتحق بالمقاومة الفلسطينية ثم تسلل الى السودان لمقاومة حكم نميري) كانت أياما عصيبة.. فأحيانا كان على ان أتوجه الى مركز الامتحان عصرا بمفردي، وبانتهاء الامتحان يكون الظلام قد حل، ولعدم وجود وسائل مواصلات دائرية كان على ان أشق "مقابر احمد شرفي" سيرا على الأقدام.. وانا لا أخاف من شيء في الحياة مثل خوفي من الوطاويط وفاروق الفيشاوي والسير وسط المقابر نهارا أو ليلا، وكنت من ثم اسير في عكس وجهتي (حي الثورة) أي صوب حي "ود نوباوي" ومن هناك اسير وسط البيوت الى ان اصل الى شارع الأسفلت الذي يشق حي الثورة أكثر من ساعتين سيرا على الأقدام لتفادي المقابر لنحو ربع ساعة، وكنت مستعدا تماما للجلوس لامتحان الشهادة وواثقا من النجاح بجدارة لأنني تخلصت من مواد الدمار الذهني الشامل مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية بكافة فروعها، وكنت قد اخترت الحد الأدنى المقرر من المواد، ولو رسبت في أحدها بربع درجة باي باي.. يعني شهادة بح.. مفيش.. وكان مقرر الأدب الانجليزي يتألف من ثلاثة كتب: مسرحيتان ورواية.. كنت احفظ رواية ريتشارد الثالث لشكسبير عن ظهر قلب واعرف كل خبايا مسرحية برنارد شو "قيصر وكليوباترا" لكنني كنت قد طردت من المدرسة قبل توزيع رواية "أعمدة الحكمة السبعة" للكاتب السخيف تي إي لورنس (العرب).. وكانت ورقة الأدب الانجليزي تعتبر ملغاة ما لم يجب الطالب على سؤال واحد على الأقل على نحو صحيح من كل من الكتب الثلاثة.. وحصلت على الكتاب قبل موعد الامتحان بنحو 4 أيام.. ولا أظن أن هناك كتابا في ركاكة وسخفا "أعمدة الحكمة السبعة"، وكلما قرأت فيه صفحة طارت من عقلي عشرون صفحة من الجغرافيا وخمسون بيتا من معلقة لبيد التي لم تكن تقل سخفا عن تلك الرواية.. ولكن استاذي الاسكتلندي (في وادي سيدنا الثانوية) جون ميلون جاءني واثنين من زملائي المفصولين .. وقال لنا: لا تحاولوا قراءة الرواية كلها، لخصوا الفصل كذا والفصل كذا واحفظوهما عن ظهر قلب ثم توكلوا على الله.. ويوم الامتحان قلبت ورقة الاسئلة حتى عثرت على سؤال يتعلق بأحد ذينك الفصلين، وكدت اهتف: ينصر دينك يا ميلون،.. وتذكرت ان الرجل نصراني فهتفت: بالروح والدم نفديك يا اسكتلندا

وهزت أعمدة الحكمة

كنت قد فصلت من المدرسة الثانوية قبل موعد الجلوس لامتحان الشهادة الثانوية، لاشتراكي في نشاط معارض لأول ديكتاتورية عسكرية في السودان، وتقرر في بادئ

الأمر حرماني وزملائي الآخرين من أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد الطلابي من الجلوس للامتحان، ولكن عددا من النقابات المهنية والمنظمات الطلابية والصحف، استنكرت ذلك القرار فسمحت لنا الحكومة بالجلوس للامتحان من المنازل، وكانت مدرسة ام درمان الاهلية الثانوية من نصيبي، وكنت كما ذكرت آنفا كامل الاستعداد للامتحانات، ولكنني كنت في حيص بيص بشأن امتحان الأدب الإنجليزي، فقد كان علينا ان نجيب على سؤال واحد على الأقل من كل من الكتب الثلاثة المقررة ولم تكن بحوزتي نسخة من الكتاب الثالث، وهو رواية "أعمدة الحكمة السبع" للرجل الذي اشتهر باسم لورنس العرب، ولكن وقبل الامتحان بمهلة قصيرة جدا زارني في المدرسة الاهلية استاذ الأدب الانجليزي في مدرستي الأصلية "وادي سيدنا"، جون ميلون ونصحني بعدم إضاعة وقتي مع ذلك الكتاب، والاكتفاء بتلخيص فصلين منه وحفظ محتواهما ببغاويا وبعدها ليحصل ما يحصل

. كان الرجل يعاني من رجفة شبه مستمرة في أنفه، ومن ثم كنا نتهمه بأنه شاذ جنسيا، لأن ما يسمى بالرفرفة وهو تحريك احدى فتحتي الأنف كحمار انحشرت في أنفه نملة حمراء كان أسلوبا شائعا للمعاكسة والمغازلة، وطالما أن أنفه يرف ويرتجف في مدرسة ألاود فلابد أنه "شاذ".. المهم جاء يوم ورقة الأدب الإنجليزي، وقلبتها ويدي ترتعش ثم وجدت سؤالا يتعلق بأحد الفصلين اللذين نصحني الخواجة بحفظهما عن ظهر غيب، وشرعت في صب الإجابة المتعلقة بسؤال رواية لورنس على عجل خوفا من ان تطير من رأسي، فالأشياء التي يحفظها الانسان عن ظهر قلب ودون فهم، لا تبقى في الذاكرة طويلا.. وبينما انا منهمك في الكتابة انفتحت نوافير أنفي، وبدأ دم شديد الاحمرار يتساقط على قميصي، ولكن هيهات ان أتوقف.. كان المراقب أستاذي محمد احمد عبدا لرحيم الشهير بـ "توتي"، نسبة إلى بلدته جزيرة توتبي، وكان قد درسني في البرقيق الوسطى، ثم نال الدرجة الجامعية من بيروت ودرسني في وادي سيدنا وها هو القدر يأتي به في المدرسة الاهلية الثانوية ليراقبني في امتحان حاسم، وكان ناشطا في المجال النقابي وله مواقف ضد الحكم الديكتاتوري .. اندفع توتي نحوي مذعورا وحاول ان يجرني الى خارج قاعة الامتحان لإيقاف الرعاف ولكن هيهات.. جلست مثل ابي الهول صامدا وقلمي يتحرك حتى فرغت من الإجابة المطلوبة وفرغ جسمي من الدم الفاسد (في الخطرفات الفلوكلورية في السودان فإن اي دم يخرج من الجسم فاسد).. وبعدها سرت مع توتي الى خارج القاعة حيث صبوا على رأسي ماء مثلجاً وأوقفوا النزيف وطلب مني توتي ان اعود الى القاعة رابط الجأش لأواصل الامتحان فقلت له: لا تخاف على،.. الديستنكشن (تقدير ممتاز) في جيبي .. وأنهيت الامتحان ثم سقطت أرضا.. ولا أدري كم من الوقت استغرق الجماعة لإفاقتي، وسمعتهم يتحدثون عن نقلي الى المستشفى فصحت رافضا ذلك، وطلبت منهم ايصالي الى البيت، فكل ما كان يعنيني والليل قد دخل، ان أجد وسيلة تجعلني أتفادى اجتياز المقابر لأصل الى مقر إقامتي في حي الثورة

بعد أن غادر أستاذي جون ميلون السودان عاد الى اسكتلندا وأنشأ دارا للنشر أصدرت كتبا قيمة لتدريس الإنجليزية كلغة ثانية وأجنبية، وكان معظمها مخصصا للطلاب

السودانيين، وبحكم معرفته بالأخطاء الشائعة بين العرب الدارسين للإنجليزية فقد أصبحت بعض كتبه مراجع لا غنى عنها لمدرسي اللغة الإنجليزية.. ولو خفف ميلون من جرعات الويسكي لكان له شأن أكبر، فقد كان – حتى وهو يدرسنا الانجليزية في المرحلة الثانوية – يدخل علينا وبخار الويسكي يتطاير من فمه مع كل كلمة

المرحلة الكوستاوية

خلال فترة الدراسة في مدرسة وادي سيدنا الثانوية أصبحت كوستاويا، اي تعمق انتمائي الى مدينة كوستي التي كانت عائلتنا تقيم بها منذ أوائل الخمسينات، وحيث نشأ معظم اخوتي وعمل بها أعمامي وأقاربي.. كانت كوستي في ذلك الزمان جميلة ونظيفة، وصغيرة، وكان كل شيء فيها مزدهرا.. المشاريع الزراعية والسوق بوجه عام والرياضة والعمل الوطني.. وكان بيتنا في "الحلة الجديدة"، وعلى طريق - لسوء حظنا - كان يؤدي الى منطقة "الأنادي" وهي مجموعة من البيوت الطينية تباع فيها البيرة الشعبية المسماة بالمريسة التي تصنع من الذرة بعد تزريعها، كانت الإنداية تقع على أطراف المدينة، وكانت المريسة مصرحا بها في الاندايات، بل كان الإنجليز وخلال فترة حكمهم للبلاد، يوفرون للأنادي دوريات من رجال شرطة السواري "راكبو الخيل"، يطوفون بأرجائها لحفظ النظام والتحقق من أنها تفتح وتغلق أبوابها في أوقات معلومة، يطلق عندها الشرطي صافرته.. يعني الحكومة كانت تقوم بدور الحكم :صافرة تعلن بدء الشرب وصافرة تعلن نهايته.. والنتيجة صفر للطرفين.. والمريسة كما هو معلوم!!! تحتوي على نسبة عالية من البروتين لأن كل برميل مريسة يحتوي على نحو مليون ذبابة ..من النوع الحميد الذي لا يسبب الدوسنتاريا! وهكذا كان السكارى يمرون أمام بيتنا في أول كل مساء، فلم يجد أبي مناصا من تربية الكلاب لمنعهم من الاقتراب من بيتنا، خاصة ومن المعروف ان المريسة تنشط المثانة، وهي لا توصل شاربها الى مرحلة السكر إلا إذا شرب نحو عشرة ليترات منها، وبكمية كهذه تكون المثانة في حالة هيجان دائم، ولابد من كلب لحماية الجدران من التلوث، وكان أجمل كلابنا واحدا أسماه أهل الحي "الاستاذ" لأنه كان رشيقا ولا ينبح إلا في وجوه المبهدلين.. يمر أمام بيتنا شخص حسن الهندام فلا يتحرك الكلب، ولكن يا ويل من كانت ملابسه رثة ويمشي مترنحا.. وكان كلبنا الاستاذ "مغرورا وواثقا من نفسه" وينبح مرة واحدة فقط، ولكن النبحة تلك كانت كفيلة بإصابة المنبوح فيه بذبحة، وبتنشيط مثانة شخص مضرب عن شرب السوائل طوال أسبوع كامل!

وكنا بحكم صلة كوستي بالنقل النهري والسكة الحديد نعيش في بحبوحة من المنقة (وهذا اسمها الأصلي الهندي وليس "مانجو/مانغو")، والموز والشمام والسمك البلطي والقنقليز وفول الحجات (هو الفول السوداني الذي يباع بقشرة رمادية وأسماه الناس بفول الحجات لأن نساء قبائل الفلاتة من غرب أفريقيا كن متخصصات في بيعه تحت اسم "المررو"، وفي السودان نسمي كل من ينتمي الى الفلاتة حاج وحجة.. ربما لأنهم أصلا قدموا الى السودان بنية عبوره لأداء الحج، ومنهم من أدى الفريضة وطاب له المقام في السودان ومنهم من اكتسب لقب حاج بالأوانطة دون ان يعبر البحر الأحمر)

كانت بمدينة كوستي دار واحدة للسينما، وكنا نقيس جودة الفيلم المعروض فيها بالنظر الى المنطقة المحيطة بها فإذا كان حولها خلق كثير "أنس الموضوع".. أما إذا لم تكن حولها طوابير من البشر فمعنى ذلك ان الفيلم هوليودي من النوع الممتاز.. وكانت هناك دار الرياضة.. وهي الاسم الذي كان يطلق على ما يسمى حاليا ب"الاستاد"، نحن أبناء أحياء الحلة الجديد والرديف والدريسة كنا نشجع ناديي الرابطة والوطن، واهل حي المرابيع كانوا يشجعون المريخ.. والعاملون في السكة الحديد والنقل النهري كانوا يشجعون نادي السكة الحديد وكان وقتها من أقوى الفرق، ولاحقا ظهرت فرق مثل الهلال، وأحياء مثل "النصر".. واستاد كوستي "شؤم "ففي يوم افتتاحه مات لاعب اثناء ادائه المباراة، كان جارنا الحيطة بالحيطة وبكاه أبوه محمد سرور حتى كف بصره، وبعدها بسنوات انهارت مساطب الاستاد ومات وجرح كثيرون.. ولكن مستوى كرة القدم في كوستي كان عاليا وكانت الفرق الكوستاوية تهزم أندية ام درمان بل وأذكر ان منتخب مدينة كوستي شرشح الفريق القومي السوداني في كذا مباراة تجريبية

كوستي والشريفة

وصلت المسيرة مدينة كوستي على النيل الأبيض جنوب الخرطوم، حيث استقرت عائلتي منذ أوائل الخمسينات، وكانت كوستي في تلك الايام في طليعة المدن "القارئة".. في الأمسيات كان المئات يحاصرون كشكا قرب مبنى البريد لأن الصحف والمجلات كانت تصل مكتبة مصطفى محمد صالح في ذلك التوقيت، وكان مشترك (قطار) الأبيض يصل محطة كوستي في الرابعة والنصف تماما بانتظام، وفي نحو الخامسة كان الناس يحاصرون المكتبة للحصول على الصحف السودانية اليومية، وبعض الصحف المصرية، خاصة الأهرام، وفي زمن لم تكن فيه مساجد في كل الأحياء ولا مكبرات صوت في المساجد الكبيرة، كان أهل كوستي يعرفون ان موعد صلاة العصر قد دخل بسماع صافرة قطار الأبيض.. وعلى بعد أمتار من تلك المكتبة أقام يونس الدسوقي مكتبة متخصصة في بيع الكتب، وكانت المكتبة شغالة بالخسارة منذ يومها الأول لأن زبائنها كانوا من المثقفين المقطعين الذين يشترون كل شيء بالجرورة (الدين) ثم ينسون أمر السداد، ولكن الدسوقي أبقى عليها مفتوحة لأنها بالنسبة اليه كانت منتدى ثقافيا واجتماعيا، ولأنه لم يكن يعرف شيئا عن حسابات الربح والخسارة (رغم أنه شايقي والشايقية كانوا "حضارم" كوستي بمعنى انهم كانوا يسيطرون على تجارة القطاعي/ التجزئة في المدينة ويملكون أكثر من نصف بقالاتها)، كان يونس شيوعيا ويدير المكتبة باعتبارها منبرا ل"التنوير" ولجذب الناس الى الفكر الماركسي باستدراجهم لقراءة الكتب "التقدمية" عوضا عن تلقينهم الأفكار شفاهة.

ومن أجمل ذكرياتي عن تلك الفترة في كوستي، أن طلبة المدارس الثانوية والجامعات كانوا يشكلون اتحادا طلابيا مؤقتا خلال الإجازات الصيفية، وكان مقره المعتاد (خلال ساعات النهار) نادي كوستي في حي المرابيع، وكان الاتحاد معنيا بالنشاط الثقافي والرياضي والاجتماعي.. ولأن المدينة كانت صغيرة وبها أنشطة متنوعة فقد كان الانتماء اليها سهلا لأنك تبقى فيها فترة قصيرة فيعرفك وتعرف الجميع، رغم ان سكانها

(لحم راس): عرب بحر ابيض ومهاجرون من كردفان وشايقية... ولكن شيئا فشيئا أصبح النوبيون من محس ودناقلة يشكلون فيها أغلبية، بحيث صار من الصعب على الكثيرين تصريف شؤون حياتهم لعدم معرفتهم باللغة النوبية.. ذات مرة كان احد بلدياتي النوبيين يعمل في المطعم الذي يملكه والدي، ووقف امام زبون وبدأ يعدد له الأصناف الموجودة والزبون جالس فاغرا فمه وكأنه جالس في مطعم صيني: إندنا ملكية ولهم بالسلسـة وأدس!! يقصـد: عنـدنا ملوخيـة ولحـم بالصلصـلة وعـدس، ثم التفت الى وكنت اجلس في ما يسمى البنك حيث تحصيل النقود: جافر.. أويي جاوكا أرابيلوق منقا أيينا (جعفر.. ما هي التسمية العربية لأويي جاوا التي هي البامية الطازجة؟).. يعني – اسم الله عليه - هو يعرف أسماء كل الأطعمة بالعربية ما عدا البامية... نفس الجرسون قال لإعرابي "عندنا كذا وكذا "ومن بينها "شريفة" وهي اسم الدلع في المطاعم للملوخية، فحسب الأعرابي أن الشريفة هذه أكلة تجنن كما يوحي اسمها، ورغم شكل الطعام الذي وضعه الجرسون أمامه لم يكن يوحي بالطمأنينة، إلا أنه غمس فيه قطعة الرغيف، وتخيل خيبة أمله عندما اكتشف انها الملوخية التي جاء الى المطعم هربا منها .. وهكذا نادى الجرسون وطلب منه ان يعمل" سَكّو" للملوخية.. وسكو هذه في قاموس المطاعم تعني "الإلغاء" ولكن الجرسون قال له ان عليه ان يدفع قيمة صحن الملوخية ثم يطلب صنفا آخر، فلما رفض الزبون ذلك بحجة أنه لم يأكل شيئا من الملوخية، امسك الجرسون بطرف جلابية الرجل وصب فيها الملوخية وقال له: دلوقتي هتدفع وللا إندك (عندك) كلام؟ ولسوء حظ الجرسون فإنه لم يكن يعرف ان الزبون من الجنجويد (من عرب غرب السودان وستصبح هذه الكلمة سارية في قاموسي بأثر رجعي).. ولولا تدخل عم الخواض وكان جعليا قوي البينة يملك مقهى ملاصقا لمطعمنا، لانتقلت روح الجرسون الى بارئها، من أجل صحن ملوخية قيمته قرشان

بطل بطولته باطلة

قال شاعر بلغ سن اليأس "إني امرؤ مولع بالحسن اتبعه/ لا حظ لي منه إلا لذة النظر".. استذكر بيت الشعر هذا مع كل دورة للألعاب الأولمبية، التي نتعامل معها بالحكمة السودانية "شهرا ما عندك فيه نفقة ما تعد أيامه"، وكما هو واضح من هذا النص فلا معنى لأن تعد أيام الشهر ما لم تكن تتوقع راتبا او علاوة في ختامه، أعني أن دورنا في الأولمبياد يقتصر على "الفُرجة" رغم ان المعلقين الرياضيين العرب يفسدون علينا متعة الفرجة بكلامهم الركيك عن فعاليات لا يفهمون عنها شيئا، لأنهم ينتمون الى بلدان تعتقد ان الله لم يخلق رياضة سوى كرة القدم، فتنفق عليها المليارات، وتظل تنهزم في كل منازلة وتهتف "انهزمنا بشرف وحكام المباريات كانوا خونة وعملاء لإسرائيل"، وقد سبق لي ان اقترحت أكثر من مرة عبر وسائل الإعلام، ان تقوم الدول العربية بتنظيم دورات "الولمبية".. يكون فيها المنتصر هو الأكثر قدرة على الحركات اللولبية، وبداهة فإن العرب سيكتسحون تلك الدورات.. حتى نجوى فؤاد ستحرز ميدالية ذهبية دون حاجة الى منشطات، فما بالك بدينا وفيفي عبدو وأليسا وهيفا وبقية فتيات الفياقرا الفضائيات؟ يعني تخيل لو كانت هناك دورة ألعاب لولمبية منذ بداية القرن العشرين: نجوى فؤاد

وحدها كانت ستستأجر مجمع تسوق بأكمله لحفظ ميدالياتها الذهبية، فهي -عيني باردة- ترقص منذ حفل افتتاح قناة السويس أمام الخديوي اسماعيل والخواجة فرديناند دي ليسبس... وقد أصيب العالم العربي بصدمة عندما أدت نجوى فريضة الحج قبل نحو 20 عاما واعلنت اعتزالها الرقص، ولكن سرعان ما عمت الفرحة "بلاد العرب أوطاني"، عندما قالت انها لن ترقص في الأندية والفنادق، وستواصل الرقص في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية!!

هل تصدقون ان مدرسة وادي سيدنا الثانوية كانت تنظم دورة العاب قوى سنوية طوال الفترة من ديسمبر الى نهاية فبراير؟ كانت هناك كافة منافسات العاب القوى والسباحة والغطس ورمي الجلة والقرص والرمح والتنس وكرة اليد، والجري لمسافات متعددة الطول وسباق الضاحية (الماراثون).. وكانت بالمدرسة خمس داخليات هي جماع وابو قرجة والمختار والداخل وود البدوي،.. وأضيفت اليها لاحقا داخلية تحمل اسم بابكر بدري، رائد تعليم البنات في السودان، وكان كل طالب يحمل بطاقة عليها أسماء كافة الألعاب ومطالبا بإحراز أكبر قدر من النقاط لداخليته.. ولن أنسى أبدا أنني أحرزت عدة نقاط لداخليتي "أبو قرجة" في سباق الضاحية الذي كان يتطلب الجري لعدة أميال، فلأنني كنت كيشة (فاشلا) في جميع أنواع الرياضة لأنني "تعقدت" منها لأن بحسبان ان لها صلة بعلم الرياضيات الذي توقف تعاملي معه عند "جدول عشرة"،.. كنت أدرك ان فوزي بالمركز الأخير في سباق الضاحية ليس واردا لأنني لو أكملت السباق، فإن زملائي سيذكرون محاسني "إن وُجدت"، أو سيتم نقلي الى مستشفى ام درمان على أحسن الفروض، وسجلت اسمي من ثم ضمن قائمة المشاركين في السباق، وكانت العادة ان يتم نقل المتنافسين الى نقطة البداية في قرية سيرو بعربة كومر، ولم أصعد الى العربة بل" زغت" وتسللت الى شجيرات قريبة من داخلية ود البدوي، على بعد نحو نصف كيلومتر من نقطة انتهاء السباق، وكمنت هناك، وعندما رأيت اول المتنافسين يقترب من محل اختبائي انطلقت صوب نقطة النهاية،.. ويا للسعادة جاء ترتيبي.... خلوها مستورة، فالمهم أنني "أكملت" السباق، وسجلت بضع نقاط لصالح داخليتي، وعلى مدى السنوات الأربع التي قضيتها بوادي سيدنا كان يفوز بسباق الضاحية طالب اسمه عثمان عبد اللطيف السنهوري من ابناء أقجة في منطقة الدناقلة، وكان في نفس الوقت أفضل حارس مرمى في المدرسة، ولا أذكر انني رأيته خارج حجرات الدراسة إلا والسيجارة في فمه، مما أكد لي ان القول بان التدخين يضر بالرئة مجرد "إشاعة".. (بلغني مؤخرا أنه انتقل الى رحمة مولاه وكنت أسأل عنه لأجمع قصائده الحلمنتيشية الرائعة فقد كان موهوبا في كتابة الشعر الكاريكاتوري)

اليهودي الذي قدم لي الهدية

اعترفت في مقالي السابق بأنني كنت أمارس الغش خلال المنافسات الأولمبية في مدرستي الثانوية، وادي سيدنا، فهل يؤنبني ضميري لذلك؟ حاشا وكلا، فبمرور الزمن بت مقتنعا بأن الأخلاق الرياضية هي منظومة من الممارسات اللا أخلاقية: في كرة القدم يلجأ انصار كل ناد الى المشعوذين والدجالين لتكتيف لاعبي الفريق الخصم او إقامة

جدار اسمنتي غير مرئي في مرمى الفريق الذي يدفع لل "انطون" وهي التسمية السودانية للدجال المتخصص في "التحكم" في مجريات مباريات كرة القدم، وعندما يقترب مهاجم خصم من المرمى يصيح المدرب "عطله "اي اضربه وعطل حركته.. وفي كل الدورات الأولمبية يتم اكتشاف لاعبين مشهورين يتعاطون المنشطات المحظورة!! والأمر الآخر هو أنني ظللت لسنوات طويلة معقدا لأنني لا اتمتع بأي مهارات يدوية او بدنية ..لم أنجح قط في إصلاح جهاز معطوب او تشغيل جهاز كهربائي او الكتروني حتى لو امضيت شهرا في قراءة الكتالوج.. وحتى في كرة الشراب "الدافوري" التي كنا نمارسها في الملعب الواقع بين داخليتي ابو قرجة وجارتنا جماع، كنت "تمامة عدد" اي لا يقع الاختيار على إلا لسد النقص في عدد اللاعبين، وكان يتم تكليفي بحراسة المرمى، وخلال سنوات الدراسة الأربع نجحت في صد نحو أربع كرات جاءت الى مرماي، بواقع كرة واحدة عن كل سنة دراسية، وكان ذلك بالصدفة، لأنني ما كنت أجازف باللعب مرتديا نظارتي الطبية، وكنت أقف في المرمى والدنيا كلها امامي "طشاش" وكل شيء يلفه الغمام، وزي ما تجي، تجي! كانت المدرسة تدفع لنا قيمة نظارة واحدة كل سنة، بواقع 150 قرشا، وكانت وزارة المعارف (التربية) متعاقدة مع شركة النظارت الأهلية التي كانت تجاور محلات زكي للسندويتشات (اول محل عصري للسندويتشات في السودان وبالمناسبة فقد كان زكي هذا صاحب أول وأجمل مشتل زهور خاص في السودان)، وكان يدير شركة النظارت تلك نوبي حلفاوي من جماعتنا اسمه عابدين، ولأن الجنس على الجنس رحمة فقد كان يعطيني نظارة بقيمة 200 قرش ويتحمل هو فرق السعر،.. وذات مرة قررت اقتناء نظارة قيافة الى حد ما، واستحيت ان الجأ الى عابدين طالبا منه أن يعطيني نظارة قيمتها خمسة جنيهات بجنيهاتي الثلاثة، وتوجهت الى محل نظارات موريس قولدنبيرغ الذي كان في الناحية المطلة على ساحة القصر الجمهوري من السوق الإفرنجي،.. ووقفت أنظر الى تشكيلة النظارات البديعة التي كانت عنده، ولكن اسعارها كانت تصفعني، فامشي خطوة الى خارج المحل ثم أعود على أمل ان أجد نظارة في حدود الجنيهات الثلاثة التي كنت أحملها.. لاحظ الخواجة موريس حركاتي وسكناتي وسألني :معاك كم يا خبيبي؟ فقلت له ان معي ثلاثة جنيهات، فمد لي إطارا (فريم) قيمته نحو خمسة جنيهات،.. يعني مع قيمة العدسات، تنازل الرجل لي عن نحو خمسة جنيهات بعد تسلم جنيهاتي الثلاثة، وكانت تلك أكبر خطوة برجوازية في حياتي منذ ان أهداني خالي حمارا اذهب به الى المدرسة الابتدائية في بدين.. وكان موريس هذا يهوديا، وعندما هاجر من السودان نهائيا في عام 1967 سجل محله بما فيه باسم مساعده السوداني، وكان شخصا دمث الأخلاق اسمه "علي". ذلك زمان كان فيه أهل السودان لا يأبهون فيه بما إذا كان الجار او صاحب المتجر يهوديا او نصرانيا او يونانيا او أرمنيا أو من الجن الأحمر.. وأبناء وأحفاد الإغريقي كونتو ميخالوس الذي طفش من السودان بعد اشتراكية نميري العرجاء، ما زالوا الى يومنا هذا يفتحون فرص العمل والدراسة لكل سوداني يلجأ اليهم في اليونان ... وكان معنا في جامعة الخرطوم طلاب زملاء لنا من يهود السودان، وطلاب من بلغاريا

وبولندا، بل وزاملنا طالبة أمريكية سوداء اسمها كرستين ويلسون،.. كانت فاتنة وقال فيها زملاؤنا الشعراء قصائد كلها أنين و"وحوحة" وتفكير رغائبي wishful thinking

يومان من المجد والشهرة

كان اجتياز امتحانات الانتقال من المرحلة المتوسطة الى الثانوية، ومنها الى الجامعية حدثان يترقبهما كل أهل السودان، لأن النتائج كانت تذاع عبر الراديو، وإذا كنت ناجحا ونطق الراديو باسمك، فسيسمع بنجاحك كل من يعرفك في كل مدينة وقرية في عموم السودان، وكنت كما أسلفت قد جلست لامتحان الشهادة الثانوية من "المنازل" بعد فصلي من مدرسة وادي سيدنا الثانوية، لأنني كنت ضمن قيادة اتحاد الطلاب الذي كان ينشط في محاربة حكومة ابراهيم عبود العسكرية، وفي اليوم المحدد لإذاعة نتائج الشهادة الثانوية تحلق أهلي حول جهاز راديو بحجم تلفزيون 16 بوصة في المطعم المملوك لوالدي في قلب سوق مدينة كوستي.. وتوقف المذيع ليلتقط انفاسه ثم هدر: جعفر ابن المعلم عباس نجح يا رجالة .. بالانجليزي، واهتزت شنبات عباس، كما اهتزت جنبات السوق بالصراخ وصيحات "أبشر"، فقد كانت كافة المحال التجارية والمقاهي من حولنا تعج بالبشر الذين يتابعون إذاعة النتائج، وخلال دقائق كان مطعمنا قد امتلأ بعشرات المهنئين، ووجدها بعض الزبائن فرصة فانضموا الى المهنئين ثم زاغوا دون ان يدفعوا قيمة الطعام الذي طفحوه، وتولى والدي شخصيا توزيع المشروبات الغازية على الناس، وكانت كوستي تشتهر بمشروب اسمه كيتي كولا، وكانت زجاجته تحمل صورة قط صغير، كما كان هناك مشروب آخر خاص بالمدينة اسمه كوستي كولا (واليوم اصبحت المدينة بسبب الاهمال تشرب ماء من فصيلة دراكيولا).. وكنت سعيدا ليس فقط بالنجاح ولكن لكون الراديو شخصيا نطق باسمي الثلاثي.

وكان ثمة يوم مشهود آخر، فما كل من نجح في امتحان الشهادة الثانوية، سيكمل المشوار، فقد كانت هناك جامعة حكومية واحدة في السودان (جامعة الخرطوم) التي تطورت عن "كلية غردون التذكارية"، وفتح المصريون فرعا لجامعة القاهرة في العاصمة السودانية، ولكن معظم الملتحقين بها في تلك الفترة كان من الطلاب الناضجين mature students أي الذين هجروا الدراسة لحين من الدهر ودخلوا الحياة العملية، ثم قرروا الحصول على مؤهلات جامعية، وكان هناك معهد الخرطوم الفني ومعهد شمبات الزراعي وهما مؤسستان عريقتان زودتا البلاد بخيرة المهنيين، ولكن ولكونهما تعطيان دبلومات وليس بكالريوسات فقد كان عامة الناس لا يعتبرونهما في قامة جامعة الخرطوم المهم: جاء يوم إذاعة نتائج القبول في الجامعة، وجلسنا في المطعم في كوستي حول الراديو، ولسبب غير مفهوم لدي حتى الآن، كان الناس وقتها يجلسون في مواجهة جهاز الراديو، كما يحدث عند مشاهدة التلفزيون، وكأن الذي لا يرى واجهة الراديو "لن يسمع" ما يقال عبره بنفس الدرجة التي يسمعه بها الجالسين قبالته مباشرة، وبعد انتهاء نشرة الأخبار المحلية في تمام الثامنة مساء، اعلن المذيع عن نتائج القبول في جامعة الخرطوم وبدأ بكلية الحقوق (القانون)، وكانت المفاجأة التي جعلتني "أهمّ شخصية" في

نظر كل من كان يعرفني، أن اسمي كان اول ما نطق به المذيع.. كلية الحقوق.. جعفر عباس سيد احمد.. ودخلت في ما يشبه الغيبوبة.. سوق كوستي كله يصرخ والتصفيق يتردد في جنباته،.. رأيت والدي يبتعد عن الناس وعرفت أنه لا يريد لأحد ان يرى دموعه.. وتدفقت الكيتي كولا والكوستي كولا أنهارا.. وبعد نحو ساعة أمرني أبي بالتوجه الى البيت .. وفوجئت بأن بيتنا ضاق بالجيران، ووسط الضجيج سمعت زغاريد أمي.. واحتضنتني عشرات الأذرع ونال خروف حتفه لإطعام المهنئين، وأنا أروج وأجيء كالطاووس.. وبعد ان انفض المهنئون تذكرت أن كلية الحقوق لم تكن أبدا ضمن رغباتي التي ضمنتها في طلب التقديم للجامعة.. ما يفرق.. المهم أنني مقبول في الجامعة والأهم من ذلك ان الراديو نطق باسمي مرتين خلال شهر واحد.

بدء سنوات العز

يا الله، صرت طالبا جامعيا، وجلست أعد الأيام في انتظار السفر الى الخرطوم والالتحاق بجامعتها الرسمية الوحيدة، وقضيت فترة الانتظار في استكمال مراسيم التحول من تلميذ الى طالب جامعي، وكان أهمها اقتناء بنطلونات، فحتى ذلك التاريخ لم يكن عندي سوى بنطلون واحد فاقع الصفرة، وأتذكر جيدا اسم الخياط الذي خاطه لي، كان اسمه حبيب، وكانت تلك اول وآخر تجربة له في ذلك المجال فقد كان من فئة خياطي البرندات، أي اولئك الذين يضعون ماكيناتهم أمام المتاجر والبقالات ويخيطون الملابس البسيطة مثل السراويل العادية والقمصان البلدية التي نسميها في السودان العراريق (ومفردها عرَّاقي بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة)، وتزودت بكذا قميص جديد، وكان وضعي المالي أكثر من ممتاز، فقد كنت حريصا على العمل خلال العطلات الصيفية كما كنت أختلس مبالغ بسيطة كلما جاء دوري في تحصيل النقود في المطعم المملوك لوالدي، ومع هذا فما ان جاء يوم سفري الى الخرطوم للالتحاق بالجامعة حتى وجدت الكثير من الأيدي تصافحني ثم تترك في كفي شيئا من المال: هناك من اعطاني 25 قرشا أو عشرة قروش وبعض ميسوري الحال اعطوني خمسين قرشا.. تلك كانت عادة اهلنا عند توديع كل من يسافر وكانت مثل تلك العطايا المالية تسمى "حق الطريق" ووصلت الخرطوم وتوجهت على الفور الى الجامعة، وهناك دلوني على مكان إقامتي، وكان "داخلية بحر الزراف" في مدخل ما يعرف بالبركس والتسمية تعود الى الحقبة التي كان الجيش البريطاني يتخذ من تلك المباني معسكرا وثكنة barracks .. يا سلام غرفة نظيفة وسرير عليه مفارش ناصعة البياض وهناك سرير إضافي لكل طالب في الفناء الواقع أمام الداخلية، لأن الطلاب كما عموم اهل السودان كانوا ينامون في "الحوش" صيفا.. والأكل المجاني، وأكل مش أي كلام بل على مستوى! وتترك سريرك مبهدلا ويأتي فراش مقيم ليعيد ترتيب كل شيء في الغرفة.. وحدث التآلف بيننا في السكن الداخلي بسرعة حيث أقامت لجنة مسؤولة عن المناشط حفل استقبال وتعارف لنا، كما كان كل واحد منا يعرف سلفا طلابا سبقوه الى الجامعة من مدرسته الثانوية او زملائه من تلك المرحلة الذين تم قبولهم في الجامعة في نفس السنة

ولكن بقي التوتر في انتظار بدء الدراسة.. تم قبولي في كلية الحقوق/ القانون، ولم أكن راغبا في الدراسة فيها، بدليل أنها لم تكن ضمن خياراتي في طلب التقديم للجامعة، ولكن ابن عمتي محمد صالح عمر الذي استشهد لاحقا وهو يقاتل قوات نميري في جزيرة أبا، كان عضوا في لجنة القبول في الجامعة ممثلا لكلية الحقوق وادرج اسمي فيها لأنه كان يعتقد انني أملك الاستعداد للنجاح في مجال القانون كطالب او مهني.. المهم كان التوتر الذي يعاني منه البرالمة كما يسمى طلاب السنة الاولى في الجامعات السودانية (والكلمة مأخوذة من الاسم الانجليزي لتلك المرحلة preliminary وتُختصر prelim بريلِم.. وراحت ضحية التعريب العشوائي بل لها صيغة مؤنث ويقال عن الطالبة الجديدة في الجامعة أنها برلومة).. كان منشأ التوتر تهيب تجربة التعليم المختلط: أليس الجلوس مع بنات في نفس حجرة الدراسة دليل نقص في الرجولة؟ وأليس جلوس البنات مع الاولاد في قاعات المحاضرات نوعا من قلة الحياء؟.. لحسن حظنا لم تكن بكلية الحقوق سوى بنت واحدة هي نائلة بابكر وكنا نتجنبها.. ولم اتعرف بها إلا في سنتي الثالثة في الجامعة ووجدت فيها إنسانة ذكية وعالية الثقافة والهمة وتتمتع بنضج سياسي واجتماعي أضفى على شخصيتها هيبة في الاجتماعات الطلابية

فارقت كلية الحقوق، لسبب غريب، فقد التحق بالكلية محاضرا الدكتور حسن الترابي، وهو يحمل دكتوراه طازة من كلية القانون في السوربون في فرنسا.. نعم حسن الترابي القائد الاسلامي المعروف الذي كان حاكما بأمره في السودان لسنوات ثم صار "محكوما عليه بسنوات"، وكان يدرسنا مقدمة القانون الجنائي، وكانت الانجليزية لغة التدريس في المرحلتين الثانوية والجامعية، ولكن الترابي قرر ان يدرسنا بالعربية، في غياب أي مرجع او حتى مجلة باللغة العربية في مكتبة الكلية، وبالتالي وجد كثير منا صعوبات جمة في متابعة المنهج الذي يدرسه الترابي، وبيني وبينكم كانت اللغة الإنجليزية هي حبي الكبير، فهجرت كلية الحقوق وقدمت اوراقي الى كلية الآداب ولكنهم قالوا لي: فات الميعاد وفوت علينا مع بداية العام الدراسي الجديد، فكان علي أن أنتظر بضعة أشهر، لألتحق بكلية الآداب في العام الدراسي التالي

الجزمة التي جعلت مني برجوازيا

تركت كلية الحقوق القانون بعد قضاء نحو 3 أشهر فيها، وحولت أوراقي لكلية الآداب، ولكنهم قرروا ارجاء التحاقي بها للعام الدراسي التالي، وكان معنى ذلك أن أمضي عدة أشهر "معلقا"، وحصلت على وظيفة مدرس في "مدرسة الخرطوم بحري الوسطى الأهلية الجديدة"، كان بإمكاني ان "ألبد" في داخليات الجامعة، مستمتعا بالسكن المجاني والطعام الفاخر البلاش، ولكن قلبي كان "حار وحامي"، فقد كان من عادتي أن أعمل خلال الأجازات الصيفية، وكانت الوظائف المؤقتة بـ «الهبل»، وفي كوستي عملت "بيّاع جِزم" في دكان لشركة باتا الشهيرة، وكانت طبيعة عملي تتطلب تلبية رغبات الزبائن ومساعدتهم في تجريب الأحذية الجديدة، وذات مرة جاءتني امرأة لديها أرداف في مختلف أنحاء جسمها، وكانت مستديرة ومحيطها نحو مترين وربع المتر، وكانت مُصرة على شراء حذاء صغير رغم ان مقاس رجلها كان في مقاس طوب المقابر، وبعد

تجريب نحو دستة من الأحذية، حشرت حذاءً في قدمها وحاولت المشي به، فتألم الحذاء وأصدر صوتاً يحنّن قلب الكافر، فطلبت مني مساعدتها في خلعه !.. أنا ولد عباس الـ «في القهوة ما جَلاس» أساعد بغلة في خلع الحذاء..؟! وبكل لؤم ونذالة سحبتها من قدمها فهوت أرضا مما جعل مقياس ريختر يسجل 7 درجات، ورآني مدير المحل وأعطاني ترقية.. جعلني كاشير مهمته استلام النقود، بعد أن أدرك أنني سأطفش الزبائن لو واصلت عملي ك"بياع"، وكان أهم إنجاز لي كبائع أحذية أن حصلت على بونص.. فمكافأة نهاية الخدمة كانت "جزمة".. ليس جزمة أي كلام بل من الجلد الحقيقي وكانت تلك اول مرة في حياتي ارتدي فيها جزمة محترمة ذات رباط

عانيت كثيرا في مهنة التدريس التي دخلتها بالعرض والعافية، لأنني كنت مرغماً على تدريس مادة الحساب، رغم ان مستوى التلاميذ في تلك المادة كان أفضل من مستواي، فإضطررت الى الاستعانة بمقاولين «بالباطن»، حيث كلفت زملاء لي في الجامعة بتدريس الحساب لتلاميذي، نظير تزويدهم بوجبة الإفطار «فول وبس» وحق التاكسي الذي كان قرشين ونصف القرش، وكان يحزّ في نفسي أن "أولاد الذين" المستهبلين كانوا يعودون الى الجامعة سيرا على الأقدام و"يوفرون" أجرة المواصلات.. وقضيت في تلك المدرسة عاما دراسيا واحداً، كان من أخصب وأمتع سنوات حياتي.. راتب ضخم «21 جنيها شهريا»، ومقعد مضمون في كلية الآداب بعد بضعة أشهر، وتلاميذ مؤدبون بهم رغبة شديدة للتعلّم، وقد استمرت علاقتي بتلك المدرسة لسنوات طويلة وشاركت عدة مرات في لجنة القبول الخاصة بها، وذات مرة كانت اللجنة تنظر في طلبات التسجيل، ومئات الآباء يحاصرون المكتب الذي كنا نجلس بداخله ونستدعي الطلاب وأولياء الأمور الواحد تلو الآخر، وخلال استراحة قصيرة خرجت من المكتب وأشعلت سيجارة «برنجي»، فجاءني رجل حسن المظهر ودخل علي" بالعرض": شوف الحظ.. تصور أنا ما بدخن وعندي في العربية باكو (باكيت) بينسون؟ ثم فارقني وعاد بعد قليل حاملاً باكو سجائر البنسون، وقدمه لي فرفضت الهدية شاكراً لأنه ليس هناك سابق معرفة بيننا تجعلني أقبل هدية باهظة الثمن، وكان البنسون في ذلك الزمان مقصوراً على الحرامية والبرجوازية الكبيرة أي أصحاب الآلاف «لم يكن هناك أصحاب ملايين».. ولكن الرجل أصرّ على قبولي الهدية فجبرت بخاطره وأخذتها منه وكانت تحوي عشرين علبة «بينسون»، بعد ان قررت بيني وبين نفسي بيعها لأقرب بقّال والدخول في مشروع زواج بعائد الصفقة !..

كنت في ذلك الزمان حسن النية «يعني عبيط» ولم افترض ان في قيام شخص لا يدخن بإهداء شخص مدخن كمية من السجائر ما يدعو للارتياب .. ثم إستدعتني اللجنة لمواصلة عمليات قبول وتسجيل الطلاب الجدد، وكانت تلك العمليات محكومة بمعايير أهمها درجة نجاح وعمر الطالب، فإذا بصاحبنا يهمس في أذني بأن ولده متقدم للتسجيل في المدرسة وعليّ أن "آخد بالي" منه ..وأعطاني قصاصة عليها إسم ولده، ودخلت على اللجنة وقلبت الأوراق وعثرت على إسم الولد ذاك، وإكتشفت ان مجموعه لا يسمح بدخوله حتى دورة المياه في المدرسة، وعرفت عندها ان السجائر «البينسون» رشوة،

فلو كان ولده صاحب مجموعٍ عالٍ لما كان بحاجة الى توصيتي بأن "آخد بالي منه" .. همست في أذن «عبد الفتاح صالحين» مدير المدرسة بأمر الرشوة مستأذناً في الخروج من المكتب لردها الى ذلك «التافه»، ولكن «صالحين" قال لي بكل برود: إحتفظ بالسجائر، وولده لن يُقبل بالمدرسة حتى لو كان مجموعه عالياً، وهكذا نعاقب صاحب الرشوة مرتين..! كانت تلك أول تجربة لي مع الرشوة وكنت على درجة عالية من الإستياء وإعتبرت ان تقديم ذلك الرجل لرشوة لي نوع من" الاستخفاف"... وبعدها بسنوات طوال أصبحت الرشوة فرض عين على كل من يريد قضاء حاجة في الدوائر الرسمية، وصار إسمها "إكرامية"، وفي هذا إبتذال لكلمة مشتقة من الكرم والتكريم والإكرام .

****

****االتدبيس في التدريس

من عادتي الى يومنا هذا ان أخلع حذائي أثناء ساعات العمل بل والتجول حافياً أو بالشُراب «الجورب»» بين المكاتب،.. وقبل ان تمد يدك الى أنفك، أقول لك إنه من فضل الله علي ان قدمي لا تعرق وأن رائحة قدمي تبقى غير مقرفة ما لم ألبس نفس الشراب شهرا كاملاً.. وفي الصف الأمامي في تلك المدرسة المتوسطة التي عملت بها في سنتها الأولى، في انتظار بدء العام الدراسي الجديد لألتحق بكلية الآداب بجامعة الخرطوم، كان يجلس صبي صغير الحجم اسمه «محمود أمين»»، وذات يوم انتهت الحصة فحركت قدمي للبحث عن حذائي فلم أعثر عليه، انحنيت ونظرت أسفل التربيزة التي كنت أجلس إليها ولكن الحذاء لم يكن موجوداً، هنا سألت التلاميذ: يا أولاد أنا جيتكم حفيان؟ قالوا: ما بعيدة عليك، ولكن ولداً «ابن حلال» أشار لي خفية الى محمود الجالس أمامي، فطلبت من الأخير أن ينهض واقفا ففعل، وفتحت دُرْجه ولم أجد الحذاء ولم يكن ممكناً ان يكون قد أخفاه في هيكله الهزيل.. فصرفت النظر عنه وقلت لهم: «ما في زول حيمشي البيت لو ما لقيت جزمتي» هنا انفجر محمود ضاحكاً وإنحنى فإنحنيت معه فإذا به قد لبس حذائي فوق حذائه.. بمعنى ان حذائي اتسع لقدمه وحذائه، ولا أذكر انني ضحكت طوال حياتي كضحكي في ذلك اليوم.. ودخل علينا «صالحين» وما ان عرف سبب الضحك حتى أطلق قهقهات سريعة متلاحقة.. وكانت ضحكته تشبه الصوت الصادر من حلق شخص يعاني من السعال الديكي «الكتكوت»».. كُنا أسرة سعيدة: مدير بشوش، ومدرس واحد ــ الذي هو شخصي ــ ، ومدرسة جديدة بها فصل فيه اربعون تلميذاً «أولاد ناس».. وشاء القدر لاحقاً ان اعمل بنفس المدرسة بعد تخرجي في كلية الآداب من الجامعة بعد ان أصبحت «الخرطوم بحري الثانوية"، وهي المدرسة التي قضيت بها أطول فترة من سنوات عملي بالتدريس، فكان من البديهي ان يكون إحساسي بالانتماء اليها قوياً خاصة وان لمدينة الخرطوم بحري مكاناً خاصاً في قلبي، واتخذتها وطناً منذ دخولي الحياة العملي، وفوق هذا فهي المدينة التي يضم ترابها "سُرتي" وهي الحبل السري الذي كان يربطني بأمي عندما كنت عالة عليها وأنا جنين، ويسميها السودانيون "الصرة" بضم الصاد المشددة. (هل ما زال السودانيون يدفنون سرة المولود الجديد في

مكان ما في البيت؟ ولماذا يفعلون ذلك؟. .. لا أدري فقد صرت سودانيا بالانتساب بحكم العيش أكثر من 30 سنة في منطقة الخليج)
كان ذلك العام الذي قضيته في التدريس في المرحلة المتوسطة، ممتعا مهنيا وماديا، ورغم أنني كنت مكلفا بتدريس الرياضيات، أبغض المواد الأكاديمية الى نفسي، إلا أنني وجدت أكثر من مخرج من تلك الورطة، فهناك زملائي في جامعة الخرطوم الذين كانوا يدرسون تلك المادة نيابة عني مقابل سندويتشات فول، ولكن وجود مدرسة "بحري الأهلية القديمة" معنا في نفس الحوش، أدى إلى تعاون بين مدرسيها ومدرستنا الجديدة، ووجدت في تلك المدرسة معلما مكلفا بتدريس الإنجليزية وهو يكرهها ككرهي للرياضيات، فصرت أدرس له الإنجليزية في مدرسته وهو يدرس الرياضيات نيابة عني.. وتلك التجربة هي التي جعلتني التحق بوزارة التربية بدون تردد فور تخرجي في الجامعة، (في السنوات الأخيرة وباسم الثورة التعليمية تحولت مدارس ثانوية الى جامعات "ثانوية"!!).. ومن الناحية المادية كنت في بحبوحة بدرجة أنني اشتريت عجلة (دراجة) وصرت بذلك من الشخصيات المرموقة في المدينة، ولا أتعامل مع الحافلات كما "الفقراء".. اشتريتها بمبلغ ضخم: 3 جنيهات دفعتها نقدا رغم ان بائعها لم يكن يمانع في ان أسدد قيمتها بالتقسيط.. سبحان الله.. فرحت عندما أهداني خالي حمارا وانا في المرحلة الابتدائية وهأنذا اشتري حمارا خواجاتيا من الحديد من حر مالي.. يا ما انت كريم يا رب

الشيوعي الذي حرمنا من النوم
في جامعة الخرطوم لم يعد هناك مكان للشللية القائمة على القبيلة او المنطقة،.. فحتى الجعليون كانوا من التواضع بحيث صادقوا الشايقية والدناقلة، وبعد اشهر قليلة من سنتي الأولى في الجامعة كنت قد صادقت زملاء من كردفان ومن الهدندوة وجبال النوبة والبطانة وغيرها من المناطق والقبائل، طبعا ظل في دواخلي إحساس مكتوم بأن هؤلاء جميعا من قبيل أهل الذمة يعيشون في كنف دولة النوبة التي تؤكد كتب التاريخ والجغرافيا والفيزياء أن حدودها الجنوبية هي سوبا جنوب الخرطوم، وفي الانترنت مواقع كثيرة عن تلك الدولة، وكي لا أتهم بالأونطة والسلبطة فإنني أحيلكم الى أكثر المواقع المتخصصة في الآثار والأنثروبولوجيا رصانة وهو "أركماني" الذي أنشأه عالم الآثار الراحل البرفسور أسامة عبد الرحمن النور، وهو بمعايير أهل البندر "ود عرب"، ومن بيت أم درماني عريق عراقة الحضارة النوبية، ولكن ولأن أسامة عالم فهو شاهد صادق في كل ما يتعلق بتاريخ السودان القديم الذي هو في المحصلة الأخيرة "نوبي".. طبعا دهاقنة علم الآثار في السودان المعاصر كانوا وما زالوا نوبيين ولكنني لن استشهد بإفاداتهم دفعا لشبهة المحاباة.. و"آخرتها" نسي أهل الحكم في الخرطوم ان متحف السودان القومي نوبي "من طقطق لسلامو عليكم"، وجعلوا اثنين من أشهر ملوكنا (تمثالين) بوابين على مدخل المتحف!

ولكن وبكل جدية فان جامعة الخرطوم والمعهد الفني وجامعة القاهرة ومعهد المعلمين العالي (كلية التربية لاحقا) كانت بوتقة لوحدة وطنية غير مفتعلة، ولم تكن بأي منها روابط إقليمية، فقط أقلية من ابناء الجنوب كانوا ينضوون في تنظيمات أجندتها مناطقية لأسباب معقولة ومفهومة.. بل وإن العلاقة بين أعضاء التنظيمات السياسية المتناحرة كان يشوبها الود والاحترام. ففي داخليتنا "بحر الزراف"، كان الاخواني جعفر ميرغني (لاحقا البروفسور الباحث المجتهد الذي نكن له نحن النوبيون احتراما كبيرا لأنه نقب في تاريخنا ووجد فيه ما يجعلنا نتعالى حتى على الجعليين - على شراستهم).. كان يسكن في غرفة مع شيوعي راس هوس، كان الشيوعيون أنفسهم يتفادون مجادلته، لأنه كان من النوع الذي إذا أردت ان "تقصر الحجة" وقلت إنك أدركت ان ماركس كان على حق في كل ما قاله، فإنه كان ينقلب على ماركس ويلعن خاشه، كي يجد ذريعة يواصل بها الجدل، وكان النقاش يستعر بينهما في اول المساء، في بث حي لم نكن نسمع خلاله وجهة نظر جعفر ميرغني، ولكن صاحبنا كان يتولى تلخيصها ونقلها الينا نحن الذين كنا نرقد على بعد مائتي متر من غرفتهما... وبعد أن أجهدنا الأرق والسهر شكلنا وفدا لمحاورة جعفر ميرغني لإقناعه بترك تنظيم الإخوان المسلمين، والانضمام الى رابطة الطلبة الشيوعيين، حتى يكف زميله في السكن عن مناكفته، فننعم ببعض الراحة والنوم، ولأن جعفر ميرغني رجل ودود ويجبر بخاطر من يستعين به فقد أبدى موافقته، ولكنه أضاف: أنا متأكد اني لو تحوّلت إلى شيوعي، صاحبنا حيبقى من الإخوان المسلمين، لأن الغاية عنده هي عدم الاتفاق مع من يحاورونه، واقتنعنا بوجهة النظر هذه،.. وهكذا قدمنا عريضة للشيوعيين نتعهد فيها بالتصويت لهم في الانتخابات إذا فصلوا صاحبنا ذاك من عضوية حزبهم، وكان الشيوعيون في منتهى الظرف والذوق (وكانوا أصلا يبحثون في طريقة تخارجهم من الرفيق الركن ذاك).. وعلقوا بيانا في "قهوة النشاط" يتبرأون فيه من ذلك المناكف،.. بل "تحت، تحت" أهدروا دمه، ليس بمعنى الحث على تصفيته جسديا بل قالوا: لو وجدتم طريقة لإسكاته فستنستر عليكم.. ولم نتنفس الصعداء طويلا، فقد أعلن الرفيق المفصول عن تكوين حزب شيوعي ثوري، كان هو مكتبه السياسي ولجنته المركزية وسكرتيره العام.. وهرب جعفر ميرغني بليل الى داخلية أخرى، واضطررنا نحن الصامدين في داخلية بحر الزراف الى إعلان انتمائنا جميعا الى حزبه الشيوعي الثوري حتى نسد عليه باب الجدل معنا، فاضطر صاحبنا الى الإعلان عن حل الحزب وصار بعثيا.

أيام بحر الزراف

كانت "بحر الزراف" حيث سكنت خلال سنتي الأولى في جامعة الخرطوم، في مدخل السكن الجامعي الرئيسي "الداخليات" المسماة بالبركس، والكلمة الأخيرة تعني ثكنة عسكرية، لأن المكان كان مقر الجيش الانجليزي، وفي الجزء الذي كانت تشغله مدرستا الخرطوم والتجارة الثانوية، كانت ولا تزال الزنزانة التي كان بطل حركة اللواء الأبيض علي عبد اللطيف محتجزا فيها لبعض الوقت، ثم تم نقله الى زنزانة أعدت له

خصيصا حيث المتحف العسكري الآن .. وموقع "بحر الزراف" ذاك، كان يعني ان جميع السكارى العائدين من الخمارات كانوا يمرون بنا.. هذا يغني وذاك يبكي وثالث تنتابه نوبة هستيريا فيشتم الجامعة والأساتذة.. ورابع يعزف (يستفرغ في لغة السكاري).. وكنت أقيم في نفس الغرفة مع عبد الباسط سبدرات (الوزير حاليا) ومكاوي عوض المكاوي (الوزير سابقا) - يعني أبو الجعافر وحده "اللي طلع خائب" من تلك الغرفة حيث لم يفلح حتى في ان يكون "وزير عريس"، ويفسر هذا هذياني المستمرة عن تشكيل حركة تحرير ديار النوبة وبالتحديد مناطق المحس والدناقلة على أمل ان أصل الى كرسي الوزارة قبل ان يصلني عزرائيل (لاحظوا تواضعي إذ لم أقل أنني معني بتحرير السودان، فالحمد لله عندنا تنظيمات بالكوم تتولى تلك المهمة الصعبة.. وعندما يجلسون للتفاوض يصبح السودان مثلثا غير متساوي الساقين وتصبح قضاياه إقليمية، لان تلك الجماعات تطبق في مطالبها حكم صلاة الجنازة، فإذا حظي الإقليم الذي ينتمون إليه بمكاسب، سقطت تلك المكاسب عن بقية الأقاليم).. وذات فجر استيقظت على صوت شجار، وفي تلك العتمة رأيت زميلي منذ أيام وادي سيدنا، محمد محجوب حاج نور في شجار مع طالب جنوبي كان زميلا لي في كلية الحقوق.. وقمت بالتفريق بينهما، ولكن حاج نور كان شديد الانفعال، فسألته عن سر غضبه فقال انه كان يؤذن لصلاة الصبح، عندما وقف الطالب الجنوبي أمامه متسائلا: هاي،.. واي آر يو شاوتِنق؟ لماذا تصرخ؟ وشرحت لحاج نور أن زميلي ذاك لم يعش قط في بيئة إسلامية، وأن تلك كانت أول مرة يسمع فيها زميلي ذاك الآذان.. فهدأ قليلا ولكنه تساءل باستنكار: لكن الغبي ده يقول للآذان شاوتنق (صراخ)؟ قلت له: وهل هناك كلمة إنجليزية أخرى لوصف حالة "رفع الصوت"؟ هنا صاح حاج نور ضاحكا: امشي انت وصاحبك الملعون ده!! صاحبي الملعون ذاك صار وزيرا عدة مرات.. ولا داعي لتقليب المواجع.

في سنتنا الأولى في الجامعة كان الأكل بطريقة ما يطلبه المستمعون: عاوز كبدة نص استواء وزبادي وشوية شوربة.. وكانت هناك دائماً "تحلية" بعد الغداء.. ولأن أبو الجعافر لم يكن من عامة الشعب بحكم انه نوبي، فقد تمتع بامتيازات لم يسمع بها أقرانه طوال سنوات دارستهم الجامعية.. من بين تلك الامتيازات الـ "سيبشال ميل" أي الوجبة الخاصة، التي كانت تقدم للمرضى وبعض الطلاب الأجانب،.. وبما ان جميع الطباخين والسفرجية كانوا نوبيين من "أندنا" فقد كان من البديهي ان يخصونني بوجبات خاصة: دجاج، لحم محمر او مشوي، بيض عيون.. خمس قطع باسطة (بقلاوة) دفعة واحدة،.. بينما كان الطلاب البروليتاريا يأكلون البامية والسبانخ والفاصوليا ويتناولون قطعة باسطة واحدة، ويظل الواحد منهم يلحس إصبعه لنصف ساعة لضمان عدم تضييع فتفوتة منها. (كانت الباسطة تقدم لنا مع وجبة الغداء يوم الأربعاء- وهو أيضا كان يوم الفاصوليا البيضاء - وبالتالي كانت قاعات الطعام في ذلك اليوم كاملة العدد، وعلى كثرة اضراباتنا عن الطعام لأسباب معظمها سخيف، فيا ويل من كان يطالب بأن يكون الأربعاء ضمن أيام الإضراب عن الطعام)

كان اول سؤال يطرحه على أصدقائي من خارج الجامعة خلال الشهور الأولى من التحاقي بها هو: الحب كيف؟ فلأن الجامعة كانت المرحلة الوحيدة التي بها اختلاط بين الجنسين فإن كثيرين كانوا يفترضون ان "الحب" هو أول وأهم إنجاز للطالب الجامعي!!
نفس السؤال السخيف طرحوه على عندما ذهبت الى بريطانيا في بعثة دراسية قصيرة في السبعينات: بنات الخواجات كيف؟ وكأن بنات الخواجات كن بائرات حائرات بانتظار قدوم الفحل الأفريقي ليتهافتن عليه كما الفراش على الزهرة.
ة
يا حليلكم
كنا مجموعة متجانسة ومتآلفة في كلية الآداب بجامعة الخرطوم، رغم أنه ومع التقدم كل سنة إلي الأمام، كانت تتفرق بنا السبل في قاعات المحاضرات حسب تخصص كل منا، ورغم أنني كنت أساسا في شلة اللغة الإنجليزية إلا أن صداقاتي بمن اختاروا التاريخ او الفرنسية او الفلسفة او العلوم السياسية لم تنقطع.. كنا بلا هموم فالدولة تتكفل بكل شيء من الطعام والسكن ونفقات السفر في الإجازات إلى المصاريف النثرية، وفوق هذا فالدراسة في كلية الآداب ممتعة لأنها تتعلق في معظمها بالعلوم الإنسانية، وتربطك بحياة الناس والمجتمعات قديمها وحديثها، وبالتالي فقد كانت الدراسة أقرب الى الثقافة العامة..
الغريب في الأمر أن مادة الرياضيات الثقيلة على نفسي كانت من المواد التي كان يمكن ان يتخصص فيها طالب كلية الأداب، ولكن كل أبناء وبنات دفعتي كانوا من العقلاء ولم يختاروها.. أذكر فقط الطالبة الأمريكية السوداء كرستين ويلسون التي كانت تسبقنا بعام أو عامين في الكلية اختارت التخصص في الرياضيات الى جانب اللغة الإنجليزية.. وحزنت لحالها لأنها كانت جميلة و"حرام تدرس مادة تسبب الجفاف والتصحر"
وما زالت صلتي بالعديد من أبناء وبنات دفعتي قوية، رغم أن معظمهم من المشمولين ب"والذي بعثرنا في كل وادٍ".. عبد الرحمن ابراهيم (صهيوني) الآن في بوسطن وعبده شمس (شمس الدين محمد الحسن) في السعودية، ونور الدين ساتي تلطش في عدد من دول العالم كدبلوماسي وهبط مؤخرا هبوطا اضطراريا في الخرطوم، وعبد المنعم صالح (بندق) في لوس أنجلوس، وكوثر احمد العبيد في غانا، وموسى اسماعيل في مكان ما في الخرطوم بحري ومحمد احمد ابو حوة (القرقور) دخل السوق مبكرا وانقطعت أخباره عني، ورقية علي بشارة تزوجت بصديقنا طه أمير وجردته من لحمه القليل وقد استقر بهما المقام في الأمارات، ورشيدة ابراهيم استقرت في كافوري بالخرطوم بحري لتنعم ببركات جيرتي ولكن هيهات فهي انصارية وأنا "ختمي" بالميلاد وصرت مؤخرا بلا هوية بعد أن بحثت عن الختمية فلم أجد لهم أثرا في الساحة السياسية.. وهناك جبارة والكرنكي وحماد وام سلمة من شلة الانجليزي.. وتوفيت زميلتنا فوزية (ستنا) سليمان عقارب في سن مبكرة، والتقيت قبل سنوات في أبو ظبي بنعمات عبد الرحيم بنت الأبيض ثم فقدت أثرها، وضحكتها النابعة من القلب.. وحرصت على إيراد بعض الأسماء هنا نفيا للشائعات المغرضة بأنني "خرفت وألزهايمرت".. وهناك آخرون كثر من آداب جامعة الخرطوم أذكرهم جيدا، ولكنني أخشى أن أتلوم بذكر أسماء

بعضهم دون الآخرين، واكتفيت فقط بأسماء المجموعة التي ظللت متواصلا معها عبر السنين،

وقد كانت لنا نحن جماعة الآداب علاقات اجتماعية وأكاديمية واسعة مع جماعة الاقتصاد بحكم تجاور مبنيي الكليتين، وبحكم ان مادتي العلوم السياسية والانثروبولوجي كانتا مشتركتين بين الكليتين، وكانت دائرة معارفي في جامعة الخرطوم تشمل ايضا كلية القانون بحكم انني بدأت حياتي الجامعية فيها وهربت منها، وبحكم ان عدد طلاب القانون لم يكن يتجاوز الاربعين فقد كنت اعرف ابناء وبنت دفعتي فرد فرد.. دار دار.. زنقة زنقة (كانت هناك بنت واحدة ضمن دفعتنا في كلية القانون هي نائلة بابكر)، وظلت العلاقة قائمة بيني وبين عدد منهم الى ما بعد التخرج: مكاوي عوض المكاوي وعبد الباسط سبدرات (وكنا نقيم في نفس الغرفة في داخلية بحر الزراف ثم تشاركنا المسكن انا وسبدرات بعد التخرج)، ومنهم المرحوم الدكتور الكلس فتح الرحمن عبد الله الشيخ (في حفل الدكتوراه في جامعة كيمبردج قالوا له إنه ينبغي ان ينحني أمام اللجنة، فرفض فأبلغوه أن الأمر الزامي وأنه لن يتمكن من مناقشة رسالته ما لم ينحن، فوقف أمام اللجنة وقال الله أكبر ثم انحنى قليلا) ومرتضى محي الدين راسخ والفاتح الشاذلي

وهناك زملاء لي منذ المرحلة الثانوية أمضوا معنا سنة واحدة في المبنى الرئيسي للجامعة قضوها في دراسة العلوم الطبيعية، ثم قبلوا في كلية الطب ولم التق بهم قط.. فبعد أشهر قليلة من التحاقهم بالطب دعوني لحضور معرضهم السنوي، ودخلت قاعة المعرض ووجدت على يميني شخصا ميتا ممدا في حوض به سائل، فصرفت وجهي عنه بسرعة، لتقع عيني على طفل في قارورة "مخلل"، وأفرغت كل ما دخل في بطني طول شهرين في مدخل المعرض ولم أقترب من كلية الطب بعدها أبدا

****

بلاهة بنات دفعتي في الجامعة

بمجرد التحاقي بالجامعة صار السؤال الذي يطرحه علي أصدقائي من خارج الجامعة: عامل إيه مع الحب؟ فلأن الجامعة كانت تعني الدارسة المختلطة، فقد كان كثيرون يفترضون أنه ما اجتمع طالب وطالبة إلا وكان كيوبيد ثالثهما، وكان السؤال محرجا بالنسبة لي شخصيا، فحتى بعد أن توغلت في الدراسة الجامعية ووصلت السنة الثالثة والرابعة، لم يكن عندي إنجاز رومانسي أتباهى به أمام أقراني! وكان بعض أصدقائي من الصفاقة بحيث كانوا يقولون لي في وجهي: الله يخيبك .. ما لقيت ليك واحدة تحبك!.. أمر الله يا جماعة.. فقد زاملت في الجامعة عشرات بل مئات البنات ولكنني لم "املأ" عين واحدة منهن، حتى كدت أن أفعل ما يفعله خطباء الجامعة في "قهوة النشاط"، عندما يعتلون الكراسي ليسوقوا بضاعتهم السياسية: مالى؟ يا بنات يا بلهاوات؟ هل فيّ عيب؟ بكرة تندم يا جميل (هذه كانت بتأثير الأفلام المصرية، فقد كنت في تلك المرحلة متيما بحب سعاد حسني وربما سمعت زميلاتي بذلك فاعتبرنني متعاليا عليهن وبالتالى لم أجد منهن من "تُعبِرني").

ولا شك في أن ذوقي كان رفيعا، فبعد ان أدركت ان سعاد حسني لا تستأهلني، وهامت بحب المطرب عبد الحليم حافظ، وقعت في غرام الممثلة الأمريكية الروسية الأصل ناتالى وود، التي ماتت منتحرة في عز شبابها، فقال بعض المرجفين ان ذلك كان بعد ان بلغها ان ابا الجعافر يحبها، ولكنني أرجح ان سبب انتحارها هو انها سمعت انني وقعت في غرام الممثلة الإيطالية التونسية المولد كلوديا كاردينالى.. في حين ان علاقتي بكلوديا لم تدم طويلا بعد ان سمعت انها أنجبت ولدين بالحرام.. وقد "بارت" كلوديا وظلت بلا زوج الى يومنا هذا!! وبعد ان انتحرت سعاد حسني قبل سنوات قليلة أدركت بأنني شخص "شوم"..وبصراحة أكثر فإن اللطمات العاطفية التي تلقيتها من حسناوات السينما العربية والامريكية هي التي جعلتي اسيئ الظن بالنساء وأتفادى كيدهن، وظللت "خالى طرف" لعدة سنوات بعد التخرج، حتى صرت مدرسا في المرحلة الثانوية، وعملت في مدرسة بنات ووقعت و"ما حدش سمى عليّ" وتزوجت بإحدى طالباتي.. ونشرت في الصحف تهنئة لنفسي بالزواج باسم شخصية وهمية "الأغيظ" زميلاتي في الجامعة اللواتي اعتبرنني شخصا "غير مقنِع"، وتزوج معظمهن بزملاء لي كحيانين مثلي أو أسوأ مني حالا فور التخرج، وصرن اليوم حبوبات، (جدات) وهذا جزاء الظالمين.. بينما ما زال ابو الجعافر في عز شبابه وسيبقى كذلك، بإذن الله ويا ويل من تسول له نفسه طلب يد إحدى ابنتيه... ولا تصدقوا الحاقدين الذين يقولون ان صورتي التي تنشر في الصحف قرين مقالاتي، تعود الى المرحلة الثانوية، أي أنني لا أنشر صورا تعكس عمري الحقيقي بما يثت زعمي بأنني – عيني باردة - شاب! هذا كذب وافتراء بدليل ان الكاميرا لم تكن قد اخترعت عندما كنت طالبا في المرحلة الثانوية!

جمائل كلية الآداب ومخاطر "الحساب"

قضيت أجمل سنوات عمري في جامعة الخرطوم، وبالتحديد في كلية الآداب، وتلك الكلية كانت أهم نقطة في حياتي على الإطلاق، لأنها حددت وجهتي الأكاديمية ومن ثم مسار حياتي العملية.. وأجمل ما في الكليات الأدبية هو أنها لا تعدّك لوظيفة محددة، بل تعطيك أدوات متنوعة وثقافة عامة تجعلك مؤهلا للتأقلم مع بيئات عمل مختلفة.. ويفسر هذا لماذا يقود خريجو كليات الآداب والاقتصاد والقانون العالم، ومن النادر ان تجد خبيرا في الفيزياء او الرياضيات يشغل منصبا سياديا في بلد ما، لأن تلك المواد تسبب اضطرابات عقلية وعاطفية، فوق ان الحاذقين في العلوم الطبيعية لا ينفعون في مجالات السياسة حيث واحد زائد واحد قد يساوي صفرا (الدليل القاطع على ذلك هو ان السودان وبعد أكثر من نصف قرن من الحكم الوطني يقف عند نقطة الصفر).

زاملت في الجامعة صالح عبد المجيد حمدتو، واسئت به الظن منذ ان عرفته، فبرغم انه كان شخصا ودودا وشديد التهذيب وخفيف الظل إلا أن شغفه بالفيزياء والرياضيات جعلني أحذر الاقتراب منه.. وأذكر انه وخلال امتحانات نهاية احد الأعوام كان حمدتو يضع سيجارة في فمه وممسكا بكوب شاي في يده، ثم أستخدم عود كبريت وأشعل السيجارة، ثم رمى بكوب الشاي بدلا من عود الكبريت، وهكذا تأكد لي على نحو قاطع ان عشاق الفيزياء والرياضيات أشخاص غير أسوياء.

كل المواد التي كانت تدرس في كلية الآداب كانت تروق لي، ما عدا اقتصار دراسة الأدب العربي على نصوص لشعراء من قوم عاد وثمود.. وكان هناك النحو وقواعد اللغة العربية، وهي في معظمها تنتمي الى الفيزياء، وتسبب دراستها حصوة المرارة والتهاب البروستات، وبالمناسبة فان قواعد النحو العربي تعكس العقلية السلطوية العربية التي تضع "قواعد" الحكم والعلاقة مع الرعية.. انظر حكاية بناء الفعل للمجهول ونائب الفاعل في جملة مثل " قتل الرجل الأرنب"،. الفاعل هنا هو الرجل، ولكن العقلية السلطوية التآمرية تبني الفعل "للمجهول" فتصبح الجملة "قُتل الأرنب" ويصبح الأرنب نائب فاعل.. أي منطق هذا الذي يجعل المجني عليه نائبا للجاني "الفاعل".. معنى هذه الجملة ان الأرنب تواطأ مع الرجل على قتل نفسه، وإمعانا في ذر الرماد في العيون فإنهم يضحكون على الأرنب الذي كان منصوبا بحكم انه مفعول به، بجعله مرفوعا، ويحسبون ان "الرفع" سيخفف عليه تحويله من مجني عليه الى شريك في الفعل/ الجريمة.

وكنت ولا أزال أحب مادة الجغرافيا، وكنت أود لو أجعلها مادة تخصصي الثانية الى جانب اللغة الإنجليزية.. واستمتعت بمحاضرات الجغرافيا في السنة الأولى، لأنها كانت دسمة بالمعلومات، وأذكر ان أمريكيا اسمه "لي" كان يدرسنا الجغرافيا السياسية، وذات صباح جلسنا في قاعة مظلمة ليعرض علينا فيلما سينمائيا، وكنت اجلس في الصف قبل الأخير في القاعة عندما تقدمت فتاة جاءت متأخرة صوب المقعد الأخير، وجلست في طرفه، وبعد قليل جاءت وطلبت مني ان أفسح لها كي تجلس الى جواري.. لم أكن قد التقيت بها من قبل، وبكل عفوية قالت لي انها "خافت" من الزول الذي جلست الى جواره في بادئ الأمر.. وبعد انتهاء الفيلم التفت الى الوراء، وبالفعل كان ذلك الشخص الذي هربت الفتاة المسكينة منه على درجة عالية من القبح.. وشكله يقطع الخميرة، كان فيه شيء من معمر القذافي وروبرت موغابي (مما رفع معنوياتي) وبعد ان تعرفت عليه لاحقا، وجدته شخصا مرحا وحكيت له قصة الفتاة التي كاد بقبح ملامحه ان يصيبها بانهيار عصبي، فصار يتعمد القاء التحية عليها بصوت أجش: السلاااام عليكم،.. ويستمتع بالهلع الذي ينتابها، إلى ان اضطرت الى ترك مادة الجغرافيا.. واضطررت بدوري الى ترك الجغرافيا، لأنهم وفي منهج الجغرافيا العملية أعطونا جداول لوغريثمات فأصابتني نوبة هستيريا، لأن تلك الجداول عبارة عن أرقام عديمة المعنى، وأي شيء له علاقة بعلم الحساب يسبب لي اضطرابات نفسية فوق التهاب القولون وقولوني أصلا ع الهبشة

لبستني تهمة الاتجار في المخدرات

كانت جامعة الخرطوم على أيامنا تغلي وتمور بالنشاط الثقافي والسياسي والرياضي، مثلا كان فريق كرة السلة في الجامعة هو الأفضل على مستوى البلاد كلها، وكان ذلك زمان يهزم فيه منتخب السلة السوداني كل الفرق العربية والأفريقية ولو أدى أعضاؤه المباريات وأيديهم اليمنى مربوطة خلف ظهورهم، وكان الغريب في أمر جامعتنا تلك أنها كانت الجهة الوحيدة في السودان التي لا تهتم بكرة القدم، ولم تكن بطولات الكليات

في كرة القدم تحظى بأي إقبال طلابي، وطوال السنوات التي قضيتها في الجامعة لم يفز منتخب كُلِّيتي (الآداب) بأي مباراة في كرة القدم، وفي ذات مباراة كان فريق كلية الهندسة متقدما علينا بستة أهداف للاشيء، قبل انتهاء الشوط الأول، بدرجة أن حارس مرمانا عبد الرحمن ابراهيم الشهير ب"صهيوني"، اضطر الى ترك خانته والمشاركة في الهجوم، وظل مرابطا أمام مرمى العدو حتى نهاية ذلك الشوط، واستفز الأمر زميلا (آدابياً) فتسلل الى حظائر شعبتي علوم النبات والحيوان، وكانت هناك خلية نحل ضخمة، ونجح بطريقة ما في استفزاز النحل فهاجمت الآلاف منه الميدان الذي كانت تقام عليه المباراة، وفتكت بلاعبي الفريقين وكان حكم المباراة اول الهاربين وألغيت المباراة، وعند الإعادة فاز فريق الهندسة علينا 9 – صفر، مع الرأفة ولسوء حظنا كان النحل قد طفش ولم تبق في خلاياه أعداد تكفي للانتقام من كلية الهندسة

كان طلاب جامعة الخرطوم من أشعل شرارة ثورة أكتوبر 1964 التي أطاحت بأول حكومة عسكرية في تاريخ البلاد، عندما نظموا ندوات تدعو لإسقاط تلك الحكومة، وداهمت قوات الأمن إحدى تلك الندوات وحدث صدام بينها وبين الطلاب أدى الى استشهاد احمد القرشي وصديقي بابكر حسن عبد الحفيظ (أصيب بطلق ناري مساء 21 اكتوبر وأسلم الروح في 25 نوفمبر)، وكان هناك صراع سياسي شديد بين الشيوعيين وحلفائهم من جهة وحركة الإخوان المسلمين التي كانت تسمى في الجامعة "الاتجاه الإسلامي"، ولكنه كان صراعا سلميا وديمقراطيا، فيه الكثير من التسامح وتقبل الرأي الآخر.. وكانت بالجامعة نحو ثلاثين جمعية ثقافية واجتماعية، لها مخصصات مالية رسمية، وكان من عادة تلك الجمعيات تنظيم رحلات ترفيهية لأعضائها، وكنت وقتها أسبق الطالب م. ر. بسنتين، وكان صاحبنا مغرما بالرحلات الترفيهية، وليس عضوا في أي جمعية، ومع هذا كان يتوجه صباح كل جمعة الى حيث تقف الحافلات التي تنقل الطلاب الى البساتين القريبة من الخرطوم ويركب أي واحدة منها.. كان يفعل ذلك غالبا وهو تحت تأثير سكرة الليلة الفائتة (الخميس)، وذات يوم وقع في شر أعماله، ففي ذات يوم جمعة قفز الى بص ممتلئ بالطلاب وانتهى به المطاف وبهم في بستان وارف الظلال في شمال الخرطوم بحري، وبينما انهمك الآخرون في فرش الأبسطة وإعداد وجبة الإفطار غادر م. ر. المكان ثم عاد بعد نحو ساعة ووضع أمام مجموعة من الطلاب زجاجة خمر وقال لهم: يللا ننبسط!! وبسطوه أرضا وأشبعوه ضربا، فقد كانوا جميعا أعضاء في جمعية الثقافة الإسلامية، ونجح المسكين في الفرار بجلده ولكن حافيا، وبينما هو يمر بقرية الكدرو على تلك الحال استوقفه رجل رقّ قلبه لمنظر شاب يرتدي ملابس أنيقة تنقصها الأحذية، وسأله عن حاله ففبرك صاحبنا حكاية عن قاطع طريق لم يجد عنده نقودا فسلبه حذاءه، واشترى له الرجل الطيب شبشبا من البلاستيك، ثم وقف معه على الشارع العام حتى أتت حافلة فدفع له أجرة ركوبها حتى الخرطوم بحري.

كان م ر مصدر صداع دائم لي بحكم أنني كنت أعرفه قبل التحاقه بالجامعة، وبسبب سلوكه الفالت وجدت نفسي "مسؤولا" عنه، ويأتيني آخرون للشكوى منه، وفي ذات امتحان رسب عن جدارة، وكان من أسوأ ما فيه استخدامه لحشيشة البنقو (جعلها

المصريون "بانجو")، وبعد ظهور نتائج الامتحان داهمت غرفته وعثرت على كميات من البنقو في جيوب بنطلوناته وأماكن متفرقة من دولاب/خزانة ملابسه، وتخلصت منها في مقلب للقمامة، واكتشف صاحبنا في ساعة متأخرة من الليل فقدان البنقو، وأقام الدنيا، فاضطر زملاؤه في الغرفة إبلاغه بأن جعفر عباس كان ينبش الأشياء التي تخصه،.. كنت وقتها أسكن في الطابق العلوي لداخلية "بحر الجبل" وفي نحو الثالثة فجرا سمعت صوتا يناديني على نحو متكرر وقفت على النافذة وصحت: نعم ماذا في الأمر؟ فما كان من م. ر. إلا أن صاح: وين البنقو يا جعفر.. وصارت لازمة "وين البنقو يا جعفر" تطاردني طوال الفترة التي تلت تلك الحادثة في الجامعة.

عاشق عابر للقارات

قلت من قبل إنني لم أجد في الجامعة زميلة "تقتنع" بي، فرغم أنني كنت على علاقة طيبة بالعشرات منهن، إلا أنهن كن أعقل من التورط معي في "قصة حب"، ولكن ذلك لم يكن "يفرِق" معي، فحتى بعد ان هجرت سعاد حسني بعد ان ضبطتها تقبل المطرب الراحل عبد الحليم حافظ، كنت واثقا من "جاذبيتي"، وبحكم وجود سينما النيل الأزرق في النطاق الجغرافي لجامعة الخرطوم وبحكم أنها كانت متخصصة في أفضل أفلام هوليوود، وبسبب ضعف جيناتي العربية، (بحكم أنني نوبي على السكين.. بالمناسبة عبارة "على السكين" جاءت من تجارة البطيخ، وعندما يقول لك البائع: على السكين فمعناها "على ضمانتي .. نقطعها وسترى كم وكيف هي حمراء ولذيذة الطعم"، وهكذا صارت العبارة تطلق على الشيء المضمون او القاطع/الحاسم، فتقول عن شخص ما مثلا أنه "بعثي على السكين".. دون أن يعني ذلك أنه إرهابي).. بحكم كل ذلك كنت من زبائن تلك السينما التي لم يكن يدخلها إلا من يجيد الانجليزية، وبالتالي كانت شبه مخصصة لطلاب جامعة الخرطوم، وكنا ندخلها بتذاكر مخفضة.. وفي تلك السينما حدثت لي الطفرات العاطفية التي اعترف بأنني تباهيت بها كثيرا في مقالاتي، فقد أحببت الممثلة الراحلة ناتالي وود حد الجنون، وبادلتني حبا بحب، وكانت تستغل أن منطقة جلوس الجمهور مظلمة وترسل إلى نظرات وغمزات ذات معنى، بل كانت تبتسم لي حتى لو كان الموقف في الفيلم يتطلب الحزن، ولكنني اعترف بأن عيني كانت "زائغة" ففي أول لقاء بيني وبين الممثلة الايطالية كلوديا كاردينالي، كان الحب من أول نظرة.. تعلق قلبي بها ونسيت ناتالي وود، وكان ذلك في ما قالت مصادر في هوليوود سبب انتحار ناتالي وهي في عز الشباب،.. حزنت عليها كثيرا وأحسست بالذنب، ثم حزنت على نفسي عندما اكتشفت ان كلوديا خائنة وغشاشة، فقد انجبت طفلين دون ان تكون متزوجة، وهكذا هجرتها كما عشقتها الى الأبد، ورددت مع الصديق الشاعر الراحل علي عبد القيوم: يا قدرتي على الصمود/ يا تماسكي / مدد، مدد

كانت دور السينما في الخرطوم مقسمة الى فئتين: واحدة متخصصة في الأفلام العربية والهندية، وإذا دخلت أيا منها تكتشف ان الجمهور يحفظ الحوار والأغاني التي في الأفلام عن ظهر قلب ويرددها مع الممثلين والممثلات، وبالتالي لم يكن ممكنا لمن يدخل تلك الفئة من السينمات فهم شيء مما يدور في الأفلام التي تعرضها (ولكن أحيانا كان

هناك فاعلو خير يتطوعون لطمأنة المشاهدين بأن بطل الفيلم لن يموت بسبب الإصابة التي لحقت به، أو بأن سوسو ستتزوج حمودة رغم الجفاء الظاهر بينهما وبأنهما سيأكلان فرخة كاملة بمفردهما) وكانت الفئة الثانية هي سينمات "الخرطوم غرب" بالقرب من إستاد الخرطوم وسينما كوليزيوم في شارع القصر، وسينما النيل الأزرق، وتعرض دائما أحدث أفلام هوليوود الناجحة.. وكنا نذهب الى سينما الخرطوم غرب جيئة وذهابا سيرا على الأقدام قاطعين نحو 15 كيلومترا، فلم تكن مواردنا المالية تسمح بترف استخدام المواصلات العامة بانتظام.. كانت تلك أيام الأفلام اللي "هي": مدافع نافرون وصوت الموسيقى وماي فير ليدي ومحاكمات نورمبيرغ، وسبليندر إن ذا قراس وسقوط الامبراطورية الرومانية.. (كان آخر فيلم عربي شاهدته في حياتي هو فيلم الأرض للمخرج يوسف شاهين وبطولة محمود المليجي وعزت العلايلي.. ولكن وخلال المراهقة الثانية عشقت ليلى علوي ثم حولت عواطفي الى نبيلة عبيد وكتبت المقالات الطوال طالبا يدها وجاء ردها البايخ في مقال نشرته باسمها تعبر فيه عن تقديرها لعواطفي، ولكن "أحسن نكون أصحاب وبس".. والله هذا ما حدث بالفعل عندما كنت أكتب في مجلة "المجلة" ونشرت هي مقالها ايضا في المجلة، وحاولت أن تكحلها بأن قالت إنها "حاليا في سويسرا وإيه رأيك أنت والمدام تكونوا ضيوفي أسبوع؟".. وبسبب ذلك منعتني المدام نهائيا من مشاهدة حتى القنوات الفضائية العربية!!)

أباظة والورقة "البايظة"

كانت السنوات التي قضيتها في جامعة الخرطوم شديدة الخصوبة، "مما جميعه"، أكاديميا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا، من الناحية الأكاديمية درسنا كل شيء على أيدي عمالقة في مجالات تخصصهم، ففي مجال اللغة العربية – وعلى سبيل المثال لا الحصر- كان هناك الأديب والعالم اللغوي الفذ عبد الله الطيب وبروفسور غنيمي هلال الموسوعي العارف بآداب الصين وإسبانيا وفرنسا معرفة تخصصية، وكان بروفسور تمّام أول من درس اللغويات والصوتيات باللغة العربية في تاريخ جامعتنا العتيدة، أما غنيمي (المصري) فقد تعمق في دراسة الأدب السوداني وطرح على كليتنا (الآداب) دراسة الشعر الصوفي السوداني، وكان وهو يحدثنا عن هذا اللون الشعري تنتابه نوبات "دروشة" فيتكلم بلا توقف وهو لا ينظر إلى الطلاب، وأحيانا يهمهم بكلام تعجز أذنه هو عن التقاطه.. ولأننا كنا نحبه جدا فقد كنا نجلس أمامه كالخشب المسندة لا نفرفر ولا ننطق بشيء.. (في ذات ندوة عن النقد الأدبي خاض في الموضوع محاضر ديناصور وكان واضحا أنه لا يعتبر أي شيء كتب بعد القرن الثاني عشر "أدباً"، فانتفض بروفسور غنيمي واقفا وهو يصيح: بس .. مش ممكن.. انا عندي ضغط. إيه ده؟ مش ممكن!) في العلوم السياسية كان هناك البروفسران جعفر بخيت ومدثر عبد الرحيم.

وبالنسبة لي كان الانتماء والانحياز لشعبة اللغة الانجليزية تاما وكاملا، فقد كنت ولا أزال عاشقا لتلك اللغة، وبادلتني عشقا بعشق فصارت سلاحي عندما دخلت الحياة العملية، كان رئيس الشعبة على أيامنا بروفسور مكميلان، وكان إنجليزيا من الطراز التقليدي، ولحسن حظنا لم يكن يدرس إلا مادة النحو (القرامر) الحديث، وبالتالي لم تكن

له أكثر من محاضرة واحدة في الأسبوع من المستوى الأول حتى الخامس، وكان هناك حبيب الجماهير جون أباظة.. إنجليزي معتق ينحدر من العائلة الأباظية في مصر، ومشهور عالميا كأبرز دارسي مسرح شكسبير.. في أول سنة في الكلية كاد أباظة أن يوديني في داهية، ففي امتحان نصف العام كنت الطالب الوحيد الذي لم تظهر نتائجه في الأدب الإنجليزي، وسألت بعض الأساتذة الذين يدرسون بعض فروع تلك المادة وطمأنوني بأنني أحرزت درجات طيبة في الفروع التي تخصهم، وأخيرا ذهبت الى أباظة فأخرج ورقتي وعليها علامات استفهام عديدة.. خير يا مستر بظبظ!! اتهمني بأنني دخلت الامتحان، حاملا معي كتابا ل"برادلي" أحد مشاهير نقاد شكسبير ونقلت منه بالمسطرة.. حلفت له بالطلاق أن ذلك لم يحدث فكان رده ما معناه: مش لما تتجوز الأول.. المهم، هو يتهم، وأنا أنكر، فصار يقرأ لي مقاطع مما نقلت عن برادلي وكاد فكه الأسفل ان ينفصل عن بقية رأسه عندما وجدني أكمل كل عبارة شفاهة دون أن أنظر الى الورقة.. شلت الدهشة لسانه لبعض الوقت وصاح: وات؟ هل تقصد انك تحفظ مقتطفات من كلام برادلي الأبله هذا عن ظهر قلب؟ قلت "نعم".. فصاح مجددا: آند واي دو يو دو ذات؟ ولِمَ تفعل ذلك؟ قلت له إنني لا أتعمد الحفظ ولكنني احفظ أي شيء أقرأه عدة مرات، وكي أؤكد له ذلك رددت أمامه مقاطع من شعر شكسبير من مسرحيات وسوناتات مختلفة.. هنا تحول الاتهام بالغش والسرقة الى "إعجاب" ولكنه قال لي بحزم: دونت كووت برادلي (لا تنقل نصا عن برادلي) وحدثني مطولا عن ان برادلي ناقد ساذج كثير الشطح والنطح .. وبعد امتحان آخر السنة استدعاني أباظة مجددا، وقال ضاحكا: تركت برادلي ومسكت في ويلسون نايت؟ وللأخير عدة كتب في منتهى الحلاوة عن مسرح شكسبير، وكالعادة كنت قد حفظت مقاطع من آرائه عن ظهر قلب، وأوردتها في ورقة الامتحان.

إيييه ما دائم إلا الله.. اليوم عندما يسألني مسؤول ما عن اسمي الثلاثي، أنظر إلى أعلى ثم أهمهم: جعفر آآآآآ جعفر عتريس.. لا إدريس.. غبوش.. استغفر الله.. معمر عباس.. جعفر عجرم .. لا.. أظن عباس، ولو جاء مثل هذا السؤال في مطار "عينك ما تشوف حتى النور"، وخلال التحري في أكثر من حادث مروري سألتني الشرطة عن رقم سيارتي، فقلت لهم: مش عارف.. الرقم مكتوب في اللوحة فيطلبون رخصة السيارة ورخصة السواقة كي يتأكدوا من أن السيارة ليست مسروقة.

الحب الأول والوحيد في الجامعة

على عهدنا بكلية الآداب جامعة الخرطوم، كان تدريس اللغة الإنجليزية وآدابها وقفا على البريطانيين والآيرلنديين.. وكانت الشخصية السودانية الوحيدة في الشعبة هي توحيدة حضرة، وكانت "مساعد تدريس" في بداية مسيرتها نحو الأستاذية، وكانت هناك مس كوك وكنا نسميها "حبوبة" بمعنى "جدة"، فقد كانت باسمة على الدوام، وكانت تدرسنا شيئا من الشعر، ولكن مجال تخصصها الأساسي كان الأدب الروائي.. كان صوتها خافتا رغم حدته، ولم تكن هناك مايكرفونات في قاعات المحاضرات، وبالتالي كانت محاضرات مس كوك فرصة لجماهير المقاعد الخلفية لممارسة النوم دون ان تفطن هي

إلى ذلك، فقد كان مدى إبصارها أقصر من مدى صوتها.. كانت تحبني بلا تحفظ أو مداراة وعلى المكشوف، فإذا رأت اسمي على ورقة أعطتني درجة عالية دون ان تكلف نفسها عناء قراءة محتواها.. وكان حبا من أول نظرة، وفي بداية السنة الأولى كانت قد كلفتنا بكتابة مقال نقدي عن قصيدة "أنشودة الملاح القديم The Rhyme of the Ancient Mariner لساموبل تيلر كولردج، وهي قصيدة عانت منها أجيال متعاقبة من طلاب كلية الآداب لنحو 40 سنة، وجاء يوم توزيع الأوراق وعليها الدرجات ونادت "خضر" فتقدم الزميل خضر ليتسلم ورقته فنظرت إليه وقالت (بكل بجاحة) بصوت متهدج إنها آسفة لأن الأمر اختلط عليها.. وتعجب خضر لتأسفها لأنه كان قد نال درجة ممتازة في تلك الورقة، وأوضحت لي مس كوك لاحقا أنها حسبت أن خضر هو "جعفر" ومنحته الدرجة "المخصصة" لي ومنحتني (بالتالي) الدرجة التي استحقها بدون محاباة، فقلت لها: ولا يهمك يا حبوبة.. خيرها في غيرها وخضر فعلا طالب متفوق وبالتأكيد يستحق الدرجة التي كان من المفترض ان أنالها أنا، وهكذا صار خضر أيضا (ببركاتي) من أحبابها.. كانت كوك الأنثى الوحيدة التي أحبتني في الجامعة، ولكن عزائي أنها كانت أنثى ناضجة وليست ساذجة فقد كان عمرها نحو 75 سنة فقط

وكان هناك ماكراي، ذو الشعر المسدل، وأصغر أعضاء هيئة التدريس، وكان يدرسنا الشعر الإنجليزي، وعلى وجه خاص ما يسمى بالشعر الميتافيزيقي، وهو شعر فحواه من عنوانه.. شعر مشبك ومشربك ومخربط وملخبط اشتهر به أندرو مارفِل وجون دان، ووليم بليك الذي يسبب شعره تلبكا في المعدة يؤدي حتما الى الإمساك والإصابة بالباسور والناسور، ولكن ماكراي كان يقرأ لنا شعر أولئك الشعراء المجانين، وهو في حالة جذب صوفي.. لم يكن يقرأ الشعر إلا جالسا وواضعا رجلا على رجل بصوت شجي أرغمنا في النهاية على استلطاف الشعراء الميتافيزيقيين الى حد ما.. وخلال محاضرات ماكراي كانت قريزيلدا الطيب تجلس دائما إلى جواري، وهذه السيدة الإنجليزية هي زوجة عالم اللغة والأدب العربي الراحل عبد الله الطيب، وكانت تكبرنا بنحو كذا وعشرين سنة، وكان اسمها معروفا لأبناء وبنات جيلي لأن كل الرسوم في كتب المطالعة في المرحلة الابتدائية كانت بريشتها، وكانت قريزيلدا قد قررت الحصول على درجة جامعية في الأدب الإنجليزي، ثم تقضي معظم وقت المحاضرة وهي ترسم ماكراي في أوضاع مختلفة، وذات يوم ضبطها وهي "مندمجة في الشخبطة" وما أن رأى رسوماتها حتى صاح: هذه قطعا أجمل من القصائد التي أقوم بتدريسها.

وكان في شعبة اللغة الانجليزية ايضا الآيرلندي أودنهيو الذي لم يكن يرتدي غير الشورت، وكان ضخما في كل شيء، حتى صوته كان ضخما.. وكانت هناك الآنسة الحليوة مس سميث، وكانت جميلة – كما أدركنا لاحقا بعد أن رأينا نساء الخواجات في مواطنهن الأصلية- فقط مقارنة بمن حولها من محاضرات، وكانت تدرس علم اللغويات linguistics وكنا نلاحظ أنها تلاقي صعوبة في تدريس تلك المادة، وبالتالي كانت محاضراتها مملة، ولكن ومع ذلك "كاملة العدد" فقد كان كثيرون يجلسون أمامها وهم "طالعين كيت" أي لا يفهمون شيئا، فقط للتمتع بمفاتنها المفترضة.. وتزوجت لاحقا

بحبيبنا جون أباظة عاشق شكسبير، وانجبت منه طفلا ثم هجرته وهربت عائدة الى بريطانيا، وظلت اجيال متعاقبة من طلاب آداب جامعة الخرطوم تصب عليها اللعنات، لأنها جرحت أباظة الرقيق المرهف الحساس، ووقتها كان بشعبة اللغة الانجليزية عدد من الأساتذة السودانيين كرسوا الشهور لمواساة أباظة حتى اجتاز محنة الهجر من قبل مس سميث (مسز أباظة) الغبية وظل محاضرا في الكلية حتى صار عاجزا عن الحركة بسبب عامل السن.. في ذات محاضرة ضباحية كانت مس سميث تقف أمامنا والزر الذي يجعل البلوزة تغطي صدرها غير مشبوك فتقدم منها عبد المنعم صالح (بندق) ونبهها كي "تستر" بضاعتها فانهالت عليه الشتائم من جماهير المقاعد الخلفية: مالك ومالها يا حاسد؟

ثم انضم ثيلوال الى الشعبة، وكان متخصصا في مجال الصوتيات، وأنشأ أول مختبر للغة الإنجليزية، ولم ينصرف فقط للتدريس بل عكف طوال سنوات عمله في جامعة الخرطوم على جمع مختلف الأصوات في اللغات المحلية السودانية وأرشفتها، واسترزق بعضنا من العمل معه خلال العطلات الصيفية، فقد خصصت الجامعة ميزانية لجهده ذاك وكان يعطي أجرا للطالب الذي يذهب الى مناطق نائية ويسجل القصص الشعبية باللغات واللهجات المحلية على ألسنة كبار السن بوصفهم الأكثر إجادة للغة.. وفي كل محاضرة للصوتيات phonetics وهي مادة صعبة ومعقدة في بادئ الأمر، كنت أتذكر زميلي في المدرسة المتوسطة ساتي عبد الدائم الذي غاظه انني ضحكت عند سماع مقطع من حكاية بالانجليزية كان المدرس يتلوه علينا فصاح محتجا: الإنجليزي كمان فيه ضحك؟

مارس شهر "الكوارس"

عشنا في جامعة الخرطوم حياة جامعية بالطول والعرض، وكنت سعيدا بحياتي في الجامعة بدرجة أنني مثل معظم زملائي لم أكن أفرح بالإجازات، فقد كانت فترة حافلة بالنشاط المثمر الممتع في كل المجالات، رغم ان المناخ الأكاديمي كان ضاغطا ومرعبا، وفي كل دفعة كان من الوارد جدا ألا يتخرج أحد بتقدير أعلى من جيد، فلم يكن هناك سخاء في توزيع الدرجات كما يحدث في جامعات العباقرة حاليا، بالعكس كان هناك تشدد صارم في منح الدرجات، ولو كنت راسبا بدرجة واحدة في مادة أو ورقة يجتمع مجلس الكلية للنظر في أدائك العام ليقرر ما إذا كان ممكنا التصدق عليك بدرجة، وكان من المعتاد جدا أن تبدأ دفعة بمائتي طالب ويبقى منهم في السنة النهائية 112 طالبا، وكانت كلية الطب في جامعة الخرطوم تحتل المرتبة ال34 عالميا كتفا بكتف مع جامعات العالم العريقة، وكان خريجو مختلف كليات جامعة الخرطوم يقبلون في جامعتي أوكسفورد وكيمبردج البريطانيتين بلا نقاش للدراسات العليا، وكانت جامعتا ليدز وريدنغ محطتين في مسار كل سوداني يرغب في الماجستير او الدكتوراه في اللغة الإنجليزية، وكانوا يعاملون كخواجات بلا توفل ولا تِفِل، بينما كانت جامعة لندن تفتح أذرعها لكل خريج من جامعة الخرطوم في مختلف التخصصات، في السبعينات كان ثلاثة سودانيين يديرون ثلاث مستشفيات في كبريات المدن البريطانية وكان في لندن

الكبرى وحدها نحو سبعمائة طبيب سوداني بين دارس ومتفرغ.. في كلية القانون كانت هناك لجنة "إنعاش" تحمل اسم الفايفا، وتعني في ما تعني "الإنعاش"، وكان منتهى الرأفة أن يجرى اختبار شفهي لطالب تنقصه نصف درجة او (بالكتير) درجة واحدة كي ينجح، وكان هناك طالب غير مسلم متميز من ابناء جنوب السودان قد رسب في مادة الشريعة الاسلامية التي كانت الزامية في السنتين الأُوليين في تلك الكلية، وتم استدعاؤه أمام اللجنة لينظروا في أمر منحه درجة تؤهله لمواصلة الدراسة ومن باب التيسير عليه سألوه: أين ولد البروفيت (الرسول) محمد.- وكان السؤال بالانجليزية طبعا – ففكر صاحبنا لبعض الوقت وقال: آي ثنك إن سعودي أرابيا.. اعتقد في السعودية.

وبسبب شراسة الامتحانات في الجامعة كان مألوفا إصابة بعض الطلاب بالرهاب/ الفوبيا او الجنون التام (خاصة في كلية الطب) بعد سنة او سنتين "بالكتير" من الالتحاق بها، وكانت كرة السلة هي اللعبة الأكثر شعبية في الجامعة وكنا نحيط بملعب السلة خلال المباريات الكبيرة ونشجع فريقنا بهتاف عجيب: يحكى أن .. أن إيه؟ أن جامعة .. جامعة إيه .. جامعة شيزو .. شيزو إيه؟ شيزوفرانيا.. كان ذلك تلميحا لإصابة طلاب الجامعة بمرض الفصام النفسي خلال الامتحانات.. (وللمرة ال8373645 فالتسمية الانجليزية الصحيحة لهذا المرض ليست شيزوفرانيا بل سكِتزوفرانيا schizophrenia، وإذا رأيت ان تجعل في بداية الكلمة حرف الألف بالكسرة فأنت حر، وأنا أتفهم وأقدر ظروفك، فلأنه ليس في اللسان العربي كلمة تبدأ بالسكون فإننا نقول اسكتلندا ونقول ان المدرسة هي اسكول، مع ان الكلمتين تبدآن بحرف السين/إس، فنأتي نحن بألف مكسورة على عادة لساننا)

كان ذلك زمان تسير فيه العملية التعليمية بانضباط شديد، ولم يكن هناك طالب في أي مرحلة تعليمية يسأل عن موعد بدء الإجازات أو انتهائها، فعند بداية ونهاية كل عام دراسي كان تقسيم الفترات الدراسية وما يتخللها من إجازات ثابتا.. وكان كل الطلاب في كافة المراحل يجلسون للامتحانات في شهر مارس ويستأنفون الدراسة في يوليو(ما عدا في منطقة البحر الأحمر لاختلاف أحوال المناخ عن بقية السودان) وفي منتصف ليل آخر يوم في فبراير من كل عام كان جميع طلاب جامعة الخرطوم يسيرون مواكب تطلق العويل والنواح في مرح صخاب وتجوب الشوارع المحيطة في الجامعة تشاؤما بقدوم "مارس شهر الكوارس/ الكوارث" التي هي الامتحانات .. كانوا يطلقون صرخات تحنن قلب الكافر، كانت الصرخات ذات طابع "نسائي"، أي أنهم كانوا يقلدون نواح النساء عند وقوع البلايا والرزايا، ويتضامن معهم أصحاب السيارات: شدة وتزول يا شباب.. شدوا حيلكم، الله معكم.. ولكن معظم المارة كانوا يفاجأون بتلك التظاهرة الغريبة التي يمتزج فيها العويل بالضحك والقهقهات، وكان ذلك بالنسبة لبعض أهل الأرياف دليلا قاطعا على ان الجامعة تفسد الأخلاق وتحول الرجال الى "حريم".. من منطلق انهم يعتقدون أن رجلا يتلقى التعليم في نفس الحجرة مع البنات "أصلا مش راجل"، وبنت تدرس مع الأولاد "منه العوض وعليه العوض"

أسرع توظيف في التاريخ

رغم استمتاعي التام بالدراسة الجامعية، إلا انني كنت في لهفة للتخرج ودخول الحياة العملية، لأنال الاستقلال الاقتصادي، ولم يكن هناك خريج يعاني من البطالة لأكثر من 6 أشهر بعد التخرج، وكان خريجو كل دفعة يتسلمون شهاداتهم في حفل جماهيري مهيب بحضور آلاف الأقارب والأحباب يقام في أحد ميداني كرة القدم بالجامعة، بعد شهور من مغادرتهم الجامعة بحيث يأتون الى الحفل وجيوبهم مليانة بعد تسلم رواتب عدة أشهر، وكان التقليد الثابت هو أن يصطحب الخريج أصدقاءه من الدفعات التي ما تزال تتلقى الدراسة للعشاء واللهو على نفقته، ثم يعطي كلا منهم ما تيسر من كاش لتأكيد أنه صار موظفا "فنجريا"

كان من عادتي أن استعد للامتحانات قبل مواعيدها بنحو شهرين او ثلاثة على الأقل، بحيث لا أعرض نفسي لأي ضغط عصبي أو نفسي ليلة الامتحان، التي كنت أفضل قضاء جزء منها في دار للسينما ثم النوم المبكر، ولهذا لم تكن الامتحانات ترعبني قط، وإن كنت لا أحب أجواءها الكئيبة، حتى في المواد التي كنت ضعيفا فيها كنت أدخل قاعة الامتحانات متماسكا رابط الجأش بمنطق "عملت اللي عليك والباقي على الله"، وأورثت فلسفتي تلك لعيالي: ذاكر دروسك جيدا واجلس للامتحان وانت مقتنع بأنك لم تقصر في الاستعداد له وبعدها ليحصل ما يحصل.. فالامتحان مثل البطيخة لا تعرف محتواه إلا بعد "الفتح"، ولا جدوى من اللطم والبكاء إذا طلعت البطيخة بيضاء! صح؟

كنت أقيم في السنة النهائية في الطابق الأول من داخلية بحر الجبل، بالقرب من قاعة الطعام الرئيسية ونادي/ دار اتحاد الطلبة وحوض السباحة المركزي، وبعد انتهاء آخر امتحان، توجهت الى غرفتي وغسلت وجهي بماء بارد متكئا على الحوض دون النظر في المرآة، وأحسست أن الماء غسل عني عبء سنوات طوال من الدارسة والبهدلة والضرب وجدول الضرب... أغمضت عيني، وأحسست براحة عجيبة وكأنما صخرة ضخمة كانت جاثمة على صدري ساحت وذابت بفعل الماء، وأخذت طريقها الى شبكة المجاري، وعندما فتحت عيني وجدت الحوض مكتسيا لونا أحمر.. كان الدم ينزل من أنفي بغزارة، ولكنني لم أجزع لأن جسمي كان في حالة استرخاء تام، وراودني احساس او اقتناع بان الدم ذاك جزء من عبء سنوات الدراسة يتخلص منه جسمي.. ثم خلعت قميصي الذي كان ملطخا بالدم وضغطت به على أنفي فتوقف الرعاف، وتخلصت من القميص ثم ارتديت قميصا نظيفا وتوجهت نحو وزارة التربية التي كانت تتاخم السكن الطلابي المعروف بالبركس، وذهبت الى إدارة التعليم الثانوي وقلت لهم: أنا خلصت الدراسة الجامعية قبل شوية ومتخصص في اللغة الانجليزية واريد العمل مدرسا.. قالوا: مرحبا.. اسمك؟ بلدك/ قريتك/ مدينتك.. وغادرت الإدارة بعد ان طلبوا مني إحضار نسخة من الشهادة بعد ظهور النتائج.. غادرتها مدرسا.. يعني دخلت الحياة العملية بعد آخر امتحان بنحو ثلاث ساعات.. يعني لم أعان من البطالة ولو ليوم واحد، وكانت الوظائف في مختلف القطاعات متاحة بالهبل، ولكنني كنت راغبا في التدريس، وكانت المفاجأة السارة هي أنني سأتقاضى راتب نحو 3 أشهر دون ان امارس أي عمل، وكل ما كان مطلوبا مني بعدها هو متابعة كشف توزيع المعلمين على المدارس في الإذاعة في

أواخر يونيو.. وعندما تسلمت النتيجة توجهت الى الوزارة لتقديم نسخة منها لإدارة التعليم الثانوي، وهناك التقيت باستاذي عمر حسن مدثر الشهير بعمر ماث لأنه كان بارعا في علم الماث (الرياضيات) وكان مشرفا على داخلية ابو قرجة التي كنت اقيم فيها في مدرسة وادي سيدنا الثانوية وسألني: إيه اللي جابك هنا، فقلت له: بقينا زملاء.. ولم يفهم فشرحت له انني صرت مدرسا، فصاح: حيوان.. غبي..امشي من وشي (وجهي).. الله يرحمك يا عمر اللماح الفطن ذو اللسان اللاذع الحلو.

****

أول راتب خذلني مع الحذاء الفاخر

فزت بوظيفة مدرس لغة إنجليزية في المرحلة الثانوية، بعد ساعات من انتهاء آخر امتحان لي في السنة النهائية في الجامعة، وقبل صدور النتائج بوقت طويل، وكنت قد أحرزت مرتبة الشرف في الإنجليزية ولكنني كنت متلهفا لدخول الحياة العملية وبالتالي لم أفكر في البقاء في الجامعة لمتابعة الدراسات العليا، وبما انني صرت موظفا ومعلما في شهر مارس أي مع نهاية العام الدراسي، فقد تقاضيت راتب 3 أشهر بالأوانطة في انتظار فتح المدارس في يوليو، وكان أول ما فكرت فيه مع تسلم أول راتب، التخلص من ملابس المرحلة الجامعية، فلم تكن بينها قطعة واحدة تصلح للحياة العملية، وكان بالخرطوم وقتها محلات تجارية في السوق الإفرنجي لا يفكر أمثالي حتى في مجرد المرور أمامها، وكان حلم حياتي شراء حذاء من متجر اسمه بون مارشيه، وبعد ان تسلمت الراتب الأول دخلت ذلك المتجر، ورأيت فيه أحذية من النوع الذي تستطيع أن ترى انعكاس وجهك على جلودها الناعمة، ولم "يعبرني" أي من البائعين في المتجر، ربما لأن شكلي كان يوحي بأنني في "المحل الغلط"، وكان أرخص حذاء بنحو 15 جنيها أي ثلث راتبي البالغ 45 جنيها، فخرجت منه مكسور الخاطر، وقلت في سري: صبرا يا بون مارشيه فإن موعدنا الدرجة دي إس.. كان الخريج الجامعي الطازة يبدأ السلم الوظيفي باسكيل (الدرجة) كيو، وتليها الدرجة دي إس، ثم اسكيل بي، وكان علي قضاء 4 سنوات في الدرجة كيو، حتى انال الترقية، وبالتالي تأجل شراء الحذاء الراقي 4 سنوات، وعندما نلت الترقية كان المتجر قد أغلق أبوابه، فقد أصيب الرئيس السوداني في تلك الحقبة المشير جعفر نميري بلوثة اشتراكية غير حميدة، جعلته يؤمم ويصادر البنوك والشركات المملوكة للأجانب، وكان بمدن السودان المختلفة عدد كبير من الإغريق والسوريين والأرمن والهنود واليهود، فهربوا بما خف حمله وغلا ثمنه، فما كان من نميري إلا ان صادر ممتلكات بعض السودانيين، وشملت المصادرات الاشتراكية مخبز بابا كوستا وبار كوبا كبانا!!

كان أكثر ما تاقت إليه نفسي أن أخفف الأعباء التي ظل شقيقي عابدين يتحملها، فقد قطع دراسته وصار كل همه أن نكمل أنا وشقيقي الأصغر محجوب دراستنا.. كان والدي ميسور الحال حينا من الدهر، ويملك اكثر من مطعم في سوق كوستي ثم أصيب بجلطة سببت له شللا جزئيا، جعله يعجز عن إدارة المطاعم التي تقلصت الى مطعم واحد، فالتحق عابدين بإدارة النقل النهري .. ولعابدين هذا حكاية عجيبة فرغم أنه

يكبرنـي "مباشـرة" إلا أننـي عشـت سـنوات طويلـة وأنـا لا أعـرف أن لـي شـقيقا اسـمه عابدين، فحتى إكمالي للمرحلة المتوسطة في البرقيق في شمال السودان، وانتقالي مع العائلة الى كوستي في أواسط السودان، كنت أعرف فقط شقيقي الذي يكبرني مباشرة: عبد الحفيظ، وفوجئت بأن أهل كوستي ينادون عبد الحفيظ الذي أعرفه "عابدين"..هي فوضى وللا سايبة تسموا الناس على كيفكم؟ اتضح ان الداية ولسبب ما قررت تجاهل اسم عبد الحفيظ الذي اختاره والدي له، واستبدلته في السجلات الرسمية ب"عابدين"، ولم يعرف صاحب الاسم نفسه بالأمر إلا عند التحاقه بالمدرسة المتوسطة عندما حمل معه شهادة ميلاده واتضح ان اسمه الرسمي هو عابدين

التفسير الوحيد لتصرف الداية هو أنها لم تفهم من والدي ما هو الاسم الذي يريده لولده ذاك، فبسبب عجمة لسانه النوبي أرجح أنه قال لها إنه يريد ان يسميه: أبد الهفيس أو الهفيد، فلا مكان لحرفي العين والظاء في اللغة النوبية، وكان لفظ عبد الحفيظ بالفعل ثقيلا على ألسنة أهلنا فكانوا ينادونه "أبدو" أي "عبده/ عبدو".. وصار بقرار من الداية "آبدين" وطالما هو من جزيرة بدين... ماشي.

سنار الثانوية ومتعة التدريس و"الخفافيش"

عند صدور كشف تنقلات المعلمين، كانت مدرسة سنار الثانوية من نصيبي، كنت أعرف مدينة سنار جيدا، فقد كان فيها أخي "الحاج عباس" الذي كان يعمل في السكك الحديدية، وزرته هناك عدة مرات، وأعجبني فيها الخزان الذي تم تشييده خلال الحكم البريطاني للسودان، لري أكبر مزرعة مروية في العالم (مشروع الجزيرة الزراعي الذي يعاني حاليا من الجفاف والتصحر بعد ان صدقنا أننا دولة نفطية ونسينا أن كارنا وكار كبارنا هو الزراعة والرعي.. كار كلمة نوبية تعني مهنة / حرفة وتستخدم بهذا المعنى في العامية المصرية المعاصرة أيضا)، وكانت بالقرب منه حديقة عامة جميلة كانت بها أعداد كبيرة من القرود تسرق الكحل من العين، وكان أهل سنار يسمونها مُكْوار، بل كانت هناك سناران، إحداهما "سنار التقاطع" وفازت بهذا الاسم لتقاطع خطوط السكة حديد فيها، والأخرى "سنار المدينة" حيث المكاتب الحكومية والمستشفى والمدارس والمرافق الحضرية... وكانت سنار عاصمة أول دولة إسلامية منذ سقوط الأندلس، وكانت مركزا تجاريا مهما بين السودان ومصر من جهة، ووسط أفريقيا والقرن الأفريقي من جهة أخرى، وعند ما نال السودان استقلاله عام 1956 دعا عدد من المثقفين الى تحويل اسم البلاد الى "جمهورية سنار" باعتبار ان كلمة سودان ليست اسما لبلد ما، بل صفة أطلقها الرحالة والجغرافيون العرب على سكان منطقة ما استنادا إلى لون بشرتهم، وكانت تشاد ومالي وبوركينا فاسو تسمى أيضا السودان الفرنسي.

كانت مدرسة سنار الثانوية حسنة السمعة، فقد كان معظم طلابها "يجتاحون" نتائج امتحانات الشهادة الثانوية ويدخلون الجامعة ب"المزيكة"، وكان بالمدرسة سكن داخلي للطلاب ومنازل مخصصة للمعلمين والموظفين الإداريين والماليين، وفور وصولي الى المدرسة وجدت أنهم كلفوني بأن أكون ضابطا ل"داخلية جَمَّاع"، مما كان يعني ان أقيم في غرفة خاصة بتلك الداخلية وأشرف على الانضباط والنشاط الثقافي والرياضي

للمقيمين فيها، وكان ذلك يعني أن تأتيني الوجبات المجانية في غرفتي، ولكنني لا أذكر قط أنني أكلت من الطعام الحكومي المجاني، فقد كانت المدينة "رَخِيّة" أي تعيش حالة من الرخاء والنعيم.. كنا نشتري عشر دجاجات بجنيه واحد، ولو رغبنا في سمك ذهبنا الى موقع الخزان فنشتري نحو عشرين سمكة بخمسين قرشا ولو "طولت بالك" وانتظرت حلول المساء كنت تحصل على السمك مجانا لأن الصيادين لم يكونوا يملكون ثلاجات وبالتالي كانت أفضل وسيلة للتخلص من السمك الفائض عن حاجة السوق منحه لمن يرغب فيه أو إلقاءه في النيل الأزرق ليصبح طعاما لأسماك أخرى

كان معظم طلاب المدرسة من الأرياف القريبة من مدينة سنار، وكانوا على درجة عالية من الأدب والانضباط الأخلاقي والأكاديمي، وكنت سعيدا جدا بتدريس الإنجليزية فيها لأن معظم الطلاب كانوا يجيدونها، وأذكر أنني درست دفعة مقرر الأدب الإنجليزي (مسرحيتان ورواية) للشهادة الثانوية، قبل سنة كاملة من موعد الجلوس للامتحانات، وكان مصدر الضيق الشديد لي خلال السنة التي قضيتها في سنار، الوطاويط/ الخفافيش، فقد كانت الآلاف منها تعيش في تجاويف سقوف المدرسة والسكن الطلابي، كان أحد الطلاب قد أهداني مصباحا كهربائيا جميلا مصنوعا من قرني ثور، وذات ليلة دخلت الغرفة وأضئت المصباح فانطلق من تجويف القرن وطواط كالصاروخ، وصرخت، وقمت، ووقعت، والوطوط يروح ويجيء بعد أن أربكه الضوء، وسمع الطلاب صرخاتي وهبوا لنجدتي وطردوا الوطواط وأشبعوني تريقة، ولجأت الى منزل زميلي (وأستاذي سابقا في مدرسة وادي سيدنا الثانوية) عثمان عبد المجيد وقضيت ليلتي عنده،.. وصرت كلما أردت دخول غرفتي الصغيرة طلبت من الطلاب استكشاف الوضع والتأكد من خلوها من الوطاويط.. وفي ساعة متأخرة من ذات ليلة مهببة، سمعت صراخا عاليا من أحد عنابر الداخلية و"فتحت الأنوار" وكانت مفاتيح الكهرباء في غرفتي للتحكم في مواعيد إطفائها في الموعد المحدد للنوم، ودخلت العنبر الذي صدر منه الصراخ، ورأيت مشهدا ما زال مجرد تذكره يجعل جسمي يتكهرب خوفا.. انهار جزء من السقف الداخلي وسقطت على رؤوس الطلاب عشرات الوطاويط البيبي بينما ظلت الوطاويط الكبيرة تطير على غير هدى .. وبدون تردد تركتهم على ما هم فيه من حال وتوجهت مجددا الى منزل عثمان عبد المجيد وكان ذلك بعد منتصف الليل ولما رآني قال: بيتنا كمان مليان وطاويط.. ثم ضحك واستضافني لتلك الليلة وقررت بعدها أن أسكن على نفقتي الخاصة بعيدا عن المدرسة.

من الخفاش الى المخ.. يا قلب لا تحزن

كان بالسودان عدد كبير من المصريين يعملون في مدارسه الثانوية، خاصة في مواد العلوم والرياضيات، وبعد جعل التربية الرياضية مادة الزامية بتلك المدارس، تم استجلاب مدربين عديدين من مصر، ولم تكن هناك مدرسة ثانوية سودانية تخلو من بريطاني يدرس اللغة الإنجليزية، وكانت هذه الفئة من البريطانيين تعرف ب" في. إس. أو VSO" وتعني "الطلاب المتطوعون في الخارج" وكانوا جميعا تقريبا من خريجي جامعتي أوكسفورد وكيمبردج اللتين تلزمان الخريج بالعمل في أي مكان في العالم لسنة

واحدة قبل الحصول على الدرجة الجامعية، ولم يكونوا يتقاضون رواتب، بل توفر لهم وزارة التربية المسكن وتعطيهم مبلغا يكفي فقط لإعاشتهم، ورغم أنهم كانوا الأقل أجرا بين مدرسي المرحلة الثانوية إلا أنهم كانوا مخلصين في عملهم، وقد أدى وجودهم إلى تحسن كبير في مستوى استيعاب الطلاب للغة الإنجليزية، على أيامنا كطلاب في المرحلة الثانوية كان عدد المدرسين البريطانيين كبيرا، وكان بعضهم يدرس مواد غير الإنجليزية، وكان معظم المدرسين المعارين من مصر من الأقباط، ففي ذلك الزمان لم تكن الدول الخليجية تتقبل فكرة ان يتولى مسيحي تدريس عيالهم "حتى الجمباز".. ولعل أشهر مدرس رياضيات مصري في تاريخ السودان هو قطر حنفي، وهو قبطي مصري درسنا الرياضيات في مدرسة وادي سيدنا الثانوية على مدى اربع سنوات، ومن باب الاعتراف بجهوده صار "الأجنبي" الوحيد الذي يشغل منصبا إداريا رفيعا في وزارة التربية كما تم استثناؤه من قانون التقاعد فظل يعمل بالوزارة حتى تجاوز ال75

كان معنا في مدرسة سنار الثانوية التي بدأت فيها حياتي العملية كمدرس للغة الإنجليزية، ثلاثة مصريين، اثنان منهما يدرسان العلوم الطبيعية والثالث م. ط. مدرب التربية الرياضية، وكما قلت في مقالي السابق فقد قررت ترك سكن المدرسة المجاني والانتقال الى مسكن بعيد عن المدرسة التي كانت موبوءة ومحتلة بالخفافيش التي أخاف منها خوفا مَرَضيا، وهكذا انتقلت الى البيت الذي كان المصريون الثلاثة يستأجرونه في أحد أحياء المدينة بعيدا عن المدرسة، وكان مدرس الكيمياء رفعت ماهرا في الطبخ، ولكنني توقفت عن مشاركتهم الطعام بعد أن صار رفعت يطبخ اللسان والمخ البقري يوميا، والسر في ذلك أنهم اكتشفوا ان اللسان والمخ لا زبائن لهما في مدينة سنار، وبالتالي كان الجزارون يعطونهم كميات ضخمة منهما بلا مقابل، فنشفوا ريقي بهما.. ليس عندي مانع في أكل اللسان، ولكن المخ؟ إخخخ

م ط مدرس التربية الرياضية قضى 4 سنوات في السودان وبعدها بنحو عشر سنوات صرت أجد صورته بلحية وقورة ومسبحة في صحيفة الأهرام المصرية التي كانت الى جانب مجلة روز اليوسف توزع اكثر من 50 ألف نسخة في الخرطوم وحدها.. والسر في ذلك أنه كان هاربا من القانون، وكانت صوره كلها مصحوبة بعبارة "الملياردير الهارب م ط"، وما حدث هو أنه عمل مدرسا للرياضة في السعودية حينا من الدهر، وصار تاجر عملة يتسلم من المصريين العاملين في السعودية "ريالات" ويعطي أهلهم في مختلف أنحاء مصر، عبر مندوب له، ما يقابلها من جنيهات مصرية واجتمعت له بذلك ثروة بسيطة ثم جاءت هوجة "توظيف الأموال" في مصر بمبادرات من نفر معظمهم من البلطجية اطلقوا اللحى وصاروا يعطون المستثمرين أرباحا فلكية ولكن بنظام "ضع طاقية هذا على رأس ذاك",, يعني شيل فلوس زيد واعط جزءا منها لعبيد كأرباح، ولما تضاءل عدد المستثمرين الجدد لم تعد هناك سيولة تسمح لهم بالاستمرار في استعباط الناس فهربوا الى اوربا ومعهم المليارات وكان على رأسهم م. ط
من دفتر الذكريات السنارية

في الأفلام المصرية القديمة، كانت النهايات السعيدة دائما تعطي مساحة كبيرة على المائدة للفراخ، فلحم الدجاج كان وما يزال بعيدا عن متناول الطبقات الكحيانة التعبانة، بعكس ما هو حادث حاليا في منطقة الخليج حيث الدجاج هو طعام الفقراء لكونه أقل سعرا من اللحوم الحمراء ولحوم الأسماك، ولم يحدث قبل عملي مدرسا في سنار الثانوية أن "تهنيت" بأكل دجاجة كاملة بمفردي.. ففي سنار كان الدجاج بتراب الفلوس بينما كان جيبي مليانا لأن راتبي كان 45 جنيها.. سألت شقيقي عابدين عن المبلغ الذي ينبغي ان اساهم به في ميزانية بيت العائلة فقال: 10 جنيهات!! اعتبرت ذلك استخفافا بي وذكرته بالراتب المهول الذي كنت أتقاضاه، وشرحت له انني قد انحرف إذا بقي عندي كل شهر 35 جنيها، وانتهت المفاوضات برفع مساهمتي الشهرية لإعاشة العائلة الى 15 جنيها.. وسبحان الله صار الدجاج اليوم في قائمتي السوداء إلى جانب الكوسا والمخ والقرنبيط وفاروق الفيشاوي.

كان العام الدراسي مقسما الى ثلاث فترات تنهي الأولى في سبتمبر والثانية في ديسمبر والثالثة بنهاية العام في مارس، وفي أول إجازة مدرسية قررت السفر من سنار الى كوستي، وكان هناك خيار القطار، ولكنه كان بطيئا لتوقفه في 4 محطات (هي جبل دود وجبل بيوت وجبل موية وربَك) قبل الوصول الى كوستي، فذهبت الى موقف الشاحنات في ركن من سوق سنار ووجدت واحدة متجهة الى كوستي،... فكرت في هدايا لأهلي وتذكرت ان سوق كوستي به بضائع أكثر تنوعا من سوق سنار، ولكنني استحيت ان ادخل البيت بيد "فاضية" وهكذا توجهت الى محل قريب واشتريت ثلاثة أسِرّة حديدية، وثلاث مراتب ورفعتها على الشاحنة.. وعند وصولي كوستي انتفخ رأسي من الفرح عندما رأيت الجيران يقولون وهم يشهدون إنزال الأسرة والمراتب: ما شاء الله .. جعفر جاب لأهله عفش (أثاث) فاخر.

وظل الحبل السري الذي يربطني بجامعة الخرطوم قائما، ففي كل اجازة كنت احرص على زيارة الخرطوم، لأقيم في السكن الداخلي مع زملائي الذين لم يكونوا قد أكملوا المسيرة الجامعية، والى يومنا هذا لا أذكر انني ذهبت الى الخرطوم دون زيارة شعبة اللغة الانجليزية التي اعتبرها "مسقط رأسي الأكاديمي"، وأقول بكل فخر إنني عملت وما زلت أعمل قدر استطاعتي لرد دين تلك الجامعة في رقبتي، وحصلت قبل أعوام على تبرع سخي من محسن سعودي وأنشأنا مكتبة الكترونية للمكفوفين في تلك الجامعة، كما قدمت لمكتبتها المركزية نحو عشرين الف كتاب في مختلف التخصصات بعد ان لاحظت بؤس حالها في السنوات الأخيرة.. كما افتتحنا في إبريل من عا 2012، أي قبل مثول هذا الكتاب للطبع بأيام كافتيريا جميلة في كلية التربية يخصص ريعها للطلاب ذوي الاحتياجات الخصاة، ليس من حر مالي بل جمعنا المال والكتب بالشحتة (التسول)، حتى صارت جامعة قطر تبادر بالاتصال بي بين الحين والآخر: يا ابو الجعافر عندنا كذا الف كتاب تيجي تاخدهم وإلا..

وكان بسنار ناد فخم للموظفين به كافتيريا ومطعم لا تجد لهما نظيرا في أسواق اليوم، ونظمت ذات مرة سوقا خيرية لصالح الطلبة الفقراء في المدرسة، ومنحنا التجار سلعا

درت علينا 150 جنيها، وكان مبلغا يكفي للحصول على عروس طازة وسيارة سكند هاند.. وكان بها محل حلاقة، عبارة عن كشك يديره "اسحق".. وظللت زبونا دائما عنده ولكنه سمع بحكاية خوفي من الوطاويط ودبر لي مكيدة.. جلست على كرسي الحلاقة، وإذا بي أرى على المرآة وطواطا يتأرجح من السقف، (عرفت لاحقا انه كان مطاطيا)، وأطلقت صرخة وركضت خارج المحل وأنا ارتدي "المريلة" إياها تاركا ورائي اسحق يقهقه وهو ممسك بمقص، ومن فرط الخجل قلت للناس ان اسحق "جنّ" وحاول طعني بالمقص فهربت منه، ولكن تفشى الخبر وذاع وعم القرى والحضر وهكذا قررت مفارقة سنار بعد عام دراسي واحد.

من البنين الى البنينات

كانت تجربة العمل كمدرس مبتدئ في مدرسة سنار الثانوية للبنين خصبة جدا، لوجود عدد كبير من الأساتذة الأكفاء بالمدرسة، ولأن طلابها كانوا تواقين للتحصيل الأكاديمي والتفوق، ولكن المدرسة كانت محتلة من قبل الخفافيش التي اتخذت من سقوف المباني أوكارا، وأهون عندي أن أتابع فيلما او مسلسلا لفاروق الفيشاوي لثلاث دقائق كاملة وأنا أقضم قطعة كوسا غير مطبوخة ومحشوة بالقرنبيط، من أن أرى خفاشا يحلق ولو على شاشة التلفزيون، فلله في خلقه شؤون، وأعرف رجالا ذوي شوارب مفتولة يخافون من الضفدع او الضب أو القط، و90 من النساء يخفن من الفئران والصراصير، بينما قد لا تتردد الواحدة منهن في مواجهة لص يقتحم البيت بعد منتصف الليل مسلحة بشبشب.

المهم: طلبت نقلي من تلك المدرسة طلبا لسلامتي العقلية التي كادت الوطاويط ان تفتك بما تبقى منها، وكان قاصمة الظهر يوم أن كنت أقف أمام طلاب السنة الثالثة في المدرسة ورأيت عبر النافذة الأستاذ م. م. يجتاز فناء المدرسة.. توقف فجأة وبدأ يتحسس بنطلونه بيديه، وهو في حالة ارتباك (والله على ما أقول شهيد).. ثم ركض على نحو مضطرب في اتجاه بيته المطل على المدرسة.. التقيت به لاحقا وسألته عن تفسيره للحركات البايخة التي صدرت عنه، فقال إنه أحس وهو يقترب من المدرسة بشيء يتحرك داخل البنطلون، وحسبه في بادئ الأمر محفظة نقود أو قطعة قماش انحشرت في "المكان الخطأ".. ولكن ذلك الشيء بدأ يتحرك و"يخربش"، فعاد الى البيت وخلع البنطلون فإذا بوطواط ابن خفاش يخرج منه مندفعا!! بعدها قلت: يا أبو الجعافر ما بدهاش.. انت ما زلت شابا ولا معنى للتضحيات الجسام في سبيل الاستمرار في مدرسة أحببتها، ولكنها لم تقدر مشاعرك واستضافت أعداءك.

وبعد ترك سنار الثانوية صرت ملطشة في وزارة التربية والتعليم، فقد نقلوني الى مدرسة الخرطوم الثانوية للبنات، وكانت مدرسة ذات شنة ورنة، وتحرز طالباتها مراكز متقدمة في امتحانات الشهادة الثانوية، وكان من المألوف وقتها أن يكون غالبية المدرسين في مدارس البنات من الرجال، وبعد نحو أسبوعين او ثلاثة جاءني الأمر بالانتقال الى مدرسة الأم الثانوية للبنات، وهي مدرسة خاصة، ولكن وزارة التربية والتعليم السودانية كانت تساعد التعليم الخاص بمدرسين في المواد الأساسية، وقضيت بها نحو ستة أشهر، دخلت خلالها في مصادمات كثيرة مع إدارة المدرسة، فإذا عاقبت

طالبة لأمر يتعلق – مثلا – بعدم التقيد بمواعيد الحصص الدراسية، أو الثرثرة، كنت أجد من بين أعضاء إدارة المدرسة من يقول – مثلا: دي بنت كويسة وأهلها يدفعون المصاريف بانتظام.. ولهذا كانت فئة قليلة من بنات الأسر الغنية لا تبالي باللوائح المدرسية وأنا لا أبالي بأنهن "كويسات" لكونهن يدفعن مصاريف الدراسة، وأطردهن خارج غرف الدراسة، فيحدث الصدام مع الإدارة.

ولكن غالبية الطالبات في مدرسة "الأم" كن مهذبات وبشوشات، وحتى أولئك اللواتي كانت الإدارة تدلعهن، كن كثيرا ما يأتين ويعتذرن عما بدر منهن من سلوك يستوجب المساءلة، ولكن العمل في مجال تدريس البنات لم يكن يخلو من مواقف عجيبة .. أحيانا كانت هذه الطالبة او تلك تعطيك الإحساس بأنك "مش راجل".. كيف؟ تقول لها: قابليني في المكتب خلال الفسحة فلا تأتي، وتسألها لاحقا لماذا لم تأت، فيكون الرد: جيت، لكن لقيت معك راجل!! وتتذكر: نعم كان فلان زميلي في مدرسة أخرى يزورني في الوقت المحدد لمقابلة تلك الطالبة.. طيب يا بنت الناس: أنا كمان راجل فلماذا تقابلينني على انفراد و"تخجلين" من مقابلتي بشأن أمر مدرسي في حضور رجل آخر؟ أعرف الإجابة ولكنني كنت أطرح السؤال على كل طالبة تتعلل بعدم مقابلتي في الموعد المضروب بحجة وجود "رجل" معي... ولم يحدث قط أن دخلت دورة المياه الخاصة بالمعلمين في تلك المدرسة لأنها كانت ملاصقة للحمامات المخصصة للطالبات، مما يعني ان تدريس البنات من قبل الرجال يسبب لهم الإمساك ومن ثم البواسير

التمرد أنقذني من التمرد

عند قرب انتهاء الإجازة السنوية للعام الدراسي الذي قضيت شطرا منه في مدرسة الأم الثانوية للبنات، بثت الإذاعة كشف تنقلات المعلمين، ولما نطق المذيع باسمي توقف قلبي عن العمل لنحو دقيقتين.. كان كشف تنقلات المعلمين ونتائج الامتحانات الخاصة بالانتقال من مرحلة إلى أخرى، تذاع في الثامنة مساء، وهو موعد ما كان يسمى ب"نشرة الأخبار المحلية"، وكان جميع السودانيين تقريبا حريصين على متابعة تلك النشرة رغم أن ختامها كان على الدوام نكدا وغماً: توفي فلان الفلاني بمدينة/ قرية كذا وكذا وسيشيع جثمانه الى مقابر أبو الجعافر في الكشامر.. وتتوالى أسماء "المراحيم"، والسوداني قد يغفر لك عدم حضور حفل زواجه، أو تهربك من سداد مبلغ اقترضته منه، ولكنه لا يسامح أبدا من لا يعزيه في فقيد، وبالتالي كان الناس يتابعون تلك النشرة ليعرفوا ما إذا كان هناك شخص من الأقارب أو الأباعد قد توفي، حتى يقوموا بواجب العزاء، ولو تطلب ذلك السفر لمئات الكيلومترات

قالت الإذاعة إنني نُقِلت الى مدرسة رمبيك الثانوية.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. صرخت أمي وكأنما كان اسمي ضمن المراحيم في تلك النشرة الإخبارية.. وأجهشت أخواتي بالبكاء، بينما أصابني الشلل الرعاش.. رمبيك هذه في جنوب السودان، حيث حركة تمرد اسمها الأنيانيا، وكان الإعلام السوداني يسمي المتمردين الخوارج، (وهكذا فإن إضفاء الطابع "الجهادي" على الحرب التي كان الجيش السوداني يخوضها في الجنوب لم يبدأ مع حكومة المشير عمر البشير فكلمة خوارج ذات دلالات دينية تاريخية).. حسرة على

عليك يا ابو الجعافر.. هذه عاقبة "التفلسف" والشكوى من إدارة مدرسة الأم الثانوية للبنات.. ها أنت ستساق إلى حتفك.. ولم يكن من يُقتل في الجنوب وقتها يحظى بلقب شهيد.. يعني أموت "فطيس".. والمتمردون الجنوبيون لم يكونوا يعرفون أنني أتألم لأن إقليمهم عانى من الظلم الفادح البشع الباطش، وأنهم اضطروا لحمل السلاح، لا حبا في الموت بل طلبا للحياة الكريمة، وبالتالي فقد يطخوني وأنا في الشارع او في بيتي، فقد كان تمرد الأنيانيا "أهوج"، ومقاتلوها يعتبرون كل من هو غير جنوبي عدوا، بعكس الجيش الشعبي الذي كان الراحل جون قرنق يقوده وصار شريكا في السلطة بعد ما يسمى باتفاق نيفاشا الذي قاد الى تقسيم البلاد، فجماعة قرنق لم يحاربوا سوى القوات النظامية او شبه النظامية، لأنهم كانوا يرفعون شعار "تحرير السودان" وليس الجنوب فقط، ورحل قرنق ولحس معظم ورثته ذلك الشعار، وصاروا يطالبون بدولة مستقلة في الجنوب (ونالوا مرادهم بعد نشر هذا المقال بأشهر)

ولكن ربك دائما كريم، فبسبب التمرد الذي خشيت أن "أروح ضحيته"، بانتقالي الى مدرسة رمبيك، كانت الحكومة قد نقلت المدرسة الى أم درمان، بالقرب من المجلس البلدي والمجلس الثقافي البريطاني، أي أنه بسبب التمرد تم نقل المدرسة من الجنوب الى العاصمة فنجوت من أهوال التمرد، وما أن علمت بأن المدرسة في أم درمان حتى رقصت الماكارينا، قبل ان يعرف بأمرها العالم بنحو 15 سنة.. أم درمان بلد الأمان.. أنا أم درمان أنا السودان.. مدينة الشعر والرياضة والفن والثقافة، شقيقة الخرطوم الكبرى ويفصلها عن مدينتي الأثيرة الخرطوم بحري جسر على النيل.. وهكذا انقلب الغم الى فرح.. كنت في غاية السعادة لأنني سأدرس طلابا من جنوب السودان، وكانت لي علاقات واسعة بالطلاب الجنوبيين خلال المرحلة الجامعية، وكان معظمهم يناصر التمرد، ولكنني أيضا كنت "متمردا" بطريقتي الخاصة.. كان المشير جعفر نميري يحكم السودان وقتها، وكنت أرى أن البلد لا تتحمل "جعفرين": يا أنا يا هو!! وكان الجواب: هو!!

المندكورو في رمبيك

يا للسعادة، فمدرسة رمبيك الثانوية التي نقلوني إليها، في أم درمان ست ستات مدن السودان، وليس في جنوب البلاد، حيث التمرد الذي أهلك آلاف العباد، وفي أول يوم في المدرسة وجدت نفسي في جو غريب خلال اجتماع لهيئة التدريس.. كان مدير المدرسة (ونجت برسوم) مسيحيا قبطيا، وكان علما على رأسه نار في مجال التدريس والإدارة المدرسية،.. وبدأ ونجت يقدم لنا أسماء الحضور: أبونا فلان الفلاني.. كيف يكون "أبونا" وهو شاب في الثلاثينات؟ ثم أبونا فلان الفلتكاني.. هذه مدرسة نظامها جديد علي، لأن بها شعبة للديانة المسيحية يعمل بها قساوسة.. وكان بها معلمون مسلمون يدرسون التربية الإسلامية، وكانت هناك علاقات خاصة وحميمة بين جماعة التربية المسيحية وجماعة التربية الإسلامية.. وكان بالمدرسة عدد كبير من المدرسين الجنوبيين، ولكن الجو العام للمدرسة لم يكن فيه ما ينم عن وجود ما يفرق بين الشريحتين، بل كنا نتناول

وجبة الافطار سويا، وكثيرا ما كنا شماليين وجنوبيين نلتقي بعد نهاية اليوم الدراسي في أماكن ترفيهية او في بيوت المتزوجين منا

وفي أول درس قدمته، فوجئت بأن عددا كبيرا من الطلاب أكبر مني سنا: اسمك إيه يا عمو؟ اسمي جون ماجوك .. ولماذا تأخرت مسيرتك التعليمية فصرت طالبا بالمرحلة الثانوية وعمرك فوق الثلاثين؟ كنت رائدا في حركة التمرد "أنيانيا".. ثم قررت مواصلة تعليمي.. وفي كل صف دراسي كنت أجد الرقيب فلان والنقيب علان، ممن كانوا يحملون السلاح ثم عادوا من الغابة الى مقاعد الدراسة، وكانت هذه الفئة من الطلاب هي الأكثر انضباطا ورغبة في التعلم، ولكن وبكل صدق وثقة أقول إنني عملت في نحو خمس او ست مدارس ثانوية، ولكنني لم أجد في أي منها طلابا مؤدبين ومهذبين ومنضبطين مثل طلاب مدرسة رمبيك الثانوية، وكانوا جميعا من جنوب السودان.. كان بعض طلابي من ذوي النزعات الانفصالية الصريحة ويناصر حركة التمرد، بل كان منهم من يكره اهل شمال السودان ويسميهم "مُندكورو"، ولكنهم وفي علاقتهم بنا كانوا جميعا يتحلون بالأدب وحسن السلوك والأداء الأكاديمي، ولكن وبالتأكيد كان من الواضح انهم ينتمون إلى ثقافة تختلف عن ثقافة أهل الشمال.. خذ في الاعتبار ان معظم الطلاب جاءوا من الجنوب الى ام درمان رأسا دون سابق تواصل مع المجتمع الشمالي

ولكن أسرة التعليم من شمال السودان في تلك المدرسة كانت منسجمة مع الطلاب، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية وانتماءاتهم السياسية، وبما ان معظم الطلاب فيها كانوا قد تلقوا تعليمهم بالإنجليزية في مراحل ما قبل الثانوية في مدارس كنسية تبشيرية، فقد كانت مهمتي كمدرس لغة انجليزية سهلة، .. والأهم من كل ذلك أن الطلاب كانوا يلتزمون الهدوء التام اثناء الحصص الدراسية، بل وكانوا يزجرون كل من يثير ضجة ولو عفويا بأن يجر كرسيه على أرضية حجرة الدراسة محدثا صريرا

كان مبنى المدرسة بائسا وغير لائق،.. بناء طيني يعود الى العصر الحجري الوسيط، وغرف دراسة ضيقة لا يستطيع الطالب الجالس في الصفوف الخلفية الخروج منها إلا قفزا أو بعد زحزحة المقاعد و"الأدراج"، ذلك ان نقل المدرسة من الجنوب الى الشمال تم على عجل وبطريقة مكلفتة، وكنت أبدي ضيقي علنا من ذلك في اجتماعات هيئة التدريس، ويقول مدير المدرسة ونجت برسوم أن ريقه نشف وهو يخاطب وزارة التربية في ذلك الخصوص.. ثم دخل الطلاب في إضراب عن الدارسة مطالبين بنقل المدرسة الى مبنى لائق.. ودخلت أنا السجن.. نعم السجن والزنازين.

من مدرسة رمبيك الى فندق كوبر

تم نقلي الى مدرسة رمبيك الثانوية الخاصة بالطلاب من جنوب السودان، وكانت في أم درمان بعد نقلها من الجنوب بسبب استفحال التمرد المسلح هناك، وقلت في مقالي السابق ان مبانيها لم تكن لائقة حتى كمخازن للحبوب، وكنت أتذمر من ذلك على نحو مسموع، ثم قرر اتحاد طلاب المدرسة الإضراب عن الدراسة، للمطالبة بنقلها الى مبنى لائق، واعتصم الطلاب في المدرسة وأغلقوا بوابتها الرئيسية بالجنازير، وكان المربي الكبير محمد التوم التيجاني وقتها وكيلا لوزارة التربية، وجاء إلى المدرسة، لمناقشة مطالب

الطلاب، ووقف عند البوابة ومعه عدد من المسؤولين، ولكن الطلاب رفضوا فتح البوابة، وظلوا يرددون الهتافات، فصحت فيهم بالانجليزية: يا أغبياء.. جاءكم مسؤول رفيع للاستماع إليكم فكيف ستسمعونه مطالبكم وأنتم تصرخون من وراء باب مغلق.. ورأيت الدهشة على وجه وكيل الوزارة ومن معه من مسؤولين، وكنت أعرف أن من بين مرافقيه عدد من رجال الأمن جاءوا للشمشمة لتقصي الأوضاع، خاصة وأن لتلك المدرسة "حساسية" خاصة: كيف يخاطب هذا المدرس الشمالي الشاب طلابا جنوبيين ثائرين بعضهم ضباط متمردون سابقون بتلك اللغة؟ وما زاد دهشتهم ان الطلاب استجابوا لصرختي وفتحوا بوابة المدرسة وسمحوا للوكيل بالدخول، ولكنهم اشترطوا وجودي معه في المفاوضات.. فعلوا ذلك لأنهم كانوا يعرفون أنني متعاطف معهم، شأني شأن غالبية المعلمين في المدرسة، ولكنني كنت الأجهر صوتا، بحكم أنني كنت نشطا الى حد ما في معارضة الحكومة وقتها.. حكومة المشير جعفر نميري، وخلال دقائق معدودة كان الأستاذ محمد التوم التيجاني قد التزم أمام الطلاب بنقلهم الى مدرسة "بيت الأمانة الثانوية للبنات" المقابلة لمبناهم البائس، وكان رحمه الله صاحب دعابة في أصعب المواقف، وختم حديثه مع ممثلي طلاب رمبيك قائلا: لو لم يحدث ذلك خلال شهر على أبعد تقدير سأحضر شخصيا وأشارككم الإضراب والاعتصام.. ولابد ان جماعة الأمن استنتجوا أن شابا يستطيع ان يزجر متمردين جنوبيين دون ان يثير غضبهم لابد ان يكون متواطئا معهم

وخلال اقل من شهر كنا قد انتقلنا الى المبنى الموعود، وكان جميلا ورحبا وحسن التخطيط، وبعدها بنحو أسبوعين تم استدعائي الى مكتب مدير المدرسة، ودخلت عليه وألقيت نظرة على وجهه.. بحكم أنه قبطي من أصول مصرية فقد كان ذا بشرة فاتحة ولكن وجه كان مُصفَرا في تلك اللحظة، فحسبت أنه سيبلغني بوفاة شخص عزيزي لدي.. فقد كان من الممارسات العجيبة والجميلة في السودان، أن من يتسلم برقية تخص شخصا آخر يعرفه، يقوم بفضها وقراءة محتوياتها، .. حتى سعاة البريد (وكان البريد وقتها يوزع على المكاتب والمساكن يدويا) كانوا يقرأون محتوى البرقيات قبل تسليمها الى الأشخاص المعنيين، وكان السر في ذلك ان معظم البرقيات كانت تتعلق بالوفيات، وبالتالي كانوا يحرصون على عدم فتح الشخص الذي يهمه أمر المتوفى المفترض، البرقية بنفسه، حتى لا يصاب بصدمة، ولا يبلغونه بالأمر إلا بعد تدبير طريقة الإبلاغ بواسطة شخص عاقل ورصين

استبعدت احتمال إبلاغي بوفاة شخص عزيز لأن المكتب كان يضم خمسة أشخاص آخرين، بينهم وكيل عريف في جهاز الأمن كنت أعرفه بحكم قرابته لزميل لي في جامعة الخرطوم، وتوجهت نحو المدير، ولكنه أشار بيد مرتجفة نحو الجالسين، فألقيت التحية على وكيل العريف، ولكنه لم ينظر إلي بل اشاح بوجهه وهو يهمهم بكلام غير مفهوم، شعرت بقرقرة في مصاريني، وتذكرت عادل إمام في مسرحية "شاهد ما شافش حاجة" عندما روى تجربته مع الأسد الذي اقترب منه في حديقة الحيوان: ده جاي لي أنا ده بأه (بقى).. أدركت ان الجماعة كلهم من جهاز الأمن، وأنهم أتوا لترتيب

استضافتي في فندق كوبر "أبو نص نجمة"، حيث يستضاف المجرمون والمعارضون السياسيون.. واستجمع وكيل العريف شجاعته ونهض وصافحني وقال: انت مطلوب لاستجوب بسيط في وزارة الداخلية، فطلبت منه عدم اللف والدوران: لو اعتقال صارحني كي لا أذهب الى السجن بلا ملابس او مستلزمات أخرى.. فقال: في الحقيقة في امر باعتقالك وستذهب فقط الى الوزارة لالتقاط صور وبصمات، ثم.. قلت له: الله يطمنك.. على كده هل ممكن أن تأخذني الى البيت في الخرطوم بحري كي اتزود ببعض الملابس.. فكان الرد: بكل سرور.

مناضل ونص وخمسة!!

قادني العسكر من مدرسة رمبيك الثانوية في أم درمان بعد صدور أمر باعتقالي وإيداعي السجن، بوصفي خائنا ل"الثورة"، ومن مروجي الفتن التي تستهدف "أمن ورخاء واستقرار وطننا الحبيب"، وقد كنت بالفعل خائنا ل"الثورة" وهي كلمة تستخدم كاسم دلع للانقلابات العسكرية، والثورة التي خنتها كانت تخص جعفر نميري الذي استولى و"صحبه الكرام" على مقاليد السلطة في 25 مايو من عام 1969، وقد كنت معارضا لحكمه ولكن بأسلوب أضعف الإيمان أي باللسان، ويؤسفني أنه ليست لدي سجل نضالي حقيقي اتباهى به، ولكن قرار حكومة نميري بإيداعي السجن أهلني لنيل لقب "مناضل"..هي الألقاب بفلوس؟

ورغم أنني ظللت وبكل فخر أعارض جميع الحكومات المتعاقبة في السودان، إلا أنني لم أمارس معارضة فعالة بمعنى أنني لم أكن نشطا في إطار أي تنظيم معارض، وإنصافا لحكومة نميري فقد كان لديها ما يبرر اعتقالي، فقد كانت لدي صلات قوية بشيوعيين بارزين، وكنت معجبا بالحزب الشيوعي خلال معاركه الشرسة مع حكومتي ابراهيم عبود وجعفر نميري العسكريتين، وسردت من قبل كيف إنني أعجبت بالطفرة الغنائية والموسيقية التي أحدثها المطرب السوداني الكبير الراحل ابراهيم عوض، وكيف أن والدي كان يزجرني بعنف إذا ضبطني متلبسا بالاستماع الى أغنياته، وكانت أغنية "حبيبي جنني" التي سطع بها نجم أبو خليل، مكروهة من جيل الكبار، من منطلق أنه لا يليق برجل ان يقول " حبيبي جنني وغيَّر حالي/ وحيّر فكري وشغل بالي"، ولكي ينفرني من ابراهيم عوض زعم والدي أنه شيوعي فاستنتجت في سري أن حزبا ينجب موهبة أحدثت ثورة في فن الغناء السوداني لابد وأن يكون جديرا بالإعجاب

من بين القادة الشيوعيين البارزين كانت تربطنا علاقة عائلية قوية مع الراحل الكبير الخاتم عدلان، بدأت بزمالة بينه وبين شقيقي محجوب في جامعة الخرطوم، وكان الخاتم شخصا حاد الذكاء ومرحا وودودا وعنيدا شديد الكبرياء، وكثيرا ما قضى في بيتنا في كوستي جانبا من إجازاته السنوية كطالب، وعندما بات الخاتم مطاردا من قبل أجهزة أمن نميري، أصبح "تأمين" الخاتم، بمعنى إخفائه واجبا اضطلع به جميع أفراد عائلتي بمن فيهم أمي رحمها الله، كنا نؤويه في بيتنا ثم نشرف على انتقاله الى بيوت آخرى، عندما نستشعر الخطر،.. وعندما جاءت حكومة "الإنقاذ الوطني" الحالية بانقلاب عسكري في يونيو من عام 1989 وأصبح الخاتم في قائمة المطلوبين أمنيا، ظل أفراد

أسرتي يسهمون في تأمين تحركاته وتنقلاته، وكانوا يلتقون به مرارا، وكان يراسلني في تلك الفترة بانتظام، وأطلعني في إحدى تلك الرسائل، بأنه قرر هجر الحزب الشيوعي والماركسية، ولم يقع في قبضة أجهزة الأمن بل نجح في التسلل الى خارج السودان في أوائل تسعينات القرن الماضي، ولم يعد إليه إلا محمولا على آلة حدباء ليدفن في قرية أم دكت الجعليين في منطقة الجزيرة

يعني كنت استأهل السجن رغم أن أجهزة الأمن لم تكن تعرف بأمر مساهمتي في إخفاء الخاتم عدلان عن أعينها، واتضح لي لاحقا ان جعفر نميري كان يكرهني "الله في لله" إذا جاز التعبير، ربما كان يحب فاروق الفيشاوي ويعرف أنني أكره الفيشاوي مثل كرهي للخفافيش.. فبعد خروجي من السجن، وعودتي الى مهنتي كمدرس، صار وهو رأس الدولة وزيرا للتربية بالوكالة.. (ربما لحبه للتكويش.. تذكرت هنا قريبنا النوبي الذي رأى نعامة لأول مرة في حديقة الحيوان وسأل مرافقه عنها فأجابه: ده الدجاج بتاع جماعة الحكومة، فما كان من بلدياتنا إلا ان صاح: الله يلعن أبو حب النفس).. المهم أصدر وزير التربية جعفر نميري قرار بفصلي من الخدمة.. جزاه الله خيرا على هذا!! وصارت شهادة إنهاء خدماتي كمدرس بتوقيع رئيس الجمهورية صكّاً، أبرزه بمناسبة وبدون مناسبة لإثبات أنني شخص خطير.

زبانية وحانية؟ نعم

كان رجال الأمن الذي أتوا ليقودوني الى السجن في منتهى اللطف والظرف، فقد كان مقررا ان تكون وجهتنا وزارة الداخلية لالتقاط الصور التذكارية لتوضع في ملف/ فايل خاص بي، ولكنني طلبت منهم ان يسمحوا لي بالتوجه الى البيت لتحضير حقيبة ملابسي، وكانت لدي ملابس في بيت أخي عبد الله في حي المساكن الشعبية في الخرطوم بحري، وسألتهم إن كان ممكنا أن تقف سيارتهم طراز "كومر" الشهير بعيدا قليلا عن بيت أخي حتى لا يراني عياله، وأنا أصعد تلك السيارة التي كانت مجرد رؤيتها تبث الخوف في نفوس الناس، وكنت قد كلفت زميلا لي مدرسة رمبيك الثانوية في ام درمان التي اعتقلت منها، بأن يتصل بشقيقي عابدين، لاحقا ليبلغه خبر اعتقالي، مع التوصية بأن يتكتم عابدين على الخبر شفقة بأمي وأبي وإخوتي، لأن شقيقي الأصغر محجوب كان قد سبقني سلفا الى السجن (عائلة معتادة إجرام)، ولدهشتي فقد أوقفوا الكومر على بعد نحو نصف كيلومتر من البيت، وقالوا لي: روح هات ما يلزمك، وللوصول الى بيت أخي عرجت يمينا ويسارا عدة مرات بحيث اختفيت تماما عن مجال أبصار رجال الأمن الذين تعاملوا معي من منطلق الثقة الذي ينبغي ان تكون بين "أولاد البلد الأصلاء"، لم يخطر ببالهم او ببالي قط أن "أزوغ" وأهرب

عدت الى عربة الكومر حاملا حقيبة صغيرة حشوتها بما توفر لي من ملابس، وكانت معظم ملابسي في سكن للعزاب كنت أقيم فيه بصفة دائمة في حي بعيد، واستحيت ان اطلب من رجال الأمن ان يعرجوا على ذلك البيت، ولكنني سألتهم على استحياء ان كان ممكنا أن نتوقف "في طريقنا" لبعض الوقت أمام متجر "سلوى بوتيك" للملابس الجاهزة لشراء ملابس إضافية، فكان ردهم إيجابيا، ثم "مسختها": ممكن نوقف قدام دكان آخر

لشراء أمواس حلاقة وسجائر وحلويات؟ لم يعارضوا ولكن أحدهم صاح ضاحكا: يا زول انت رايح السجن وللا ديسكو؟ .. كنت أعرف أن السجائر أهم سلعة في السجون، وان حيازة النقود داخل السجن تعتبر من الكبائر، ولهذا حرصت على تبديد كل النقود التي كانت معي، بشراء أشياء قد احتاج اليها شخصيا أو قد يحتاج اليها من سبقوني الى السجن

ثم توجهنا الى وزارة الداخلية حيث قسم التصوير، والتقطوا لي كذا صورة، وانتبهت الى ان رجال الأمن الذين أتوا بي إلى مبنى الوزارة اختفوا وتساءلت: طيب مين اللي حيوديني السجن؟ فقال أحد العساكر الحضور ضاحكا: مستعجل على شنو يا زول؟ حتشبع سجن!! وبعد قليل جاء جماعتي يحملون أطباقا من الفول والكبد والسمك،.. كان ذلك "العشاء الأخير".. الله ما أجمل سودان أيام شبابنا: هؤلاء رجال مهمتهم اعتقال خصم للحكومة والزج به في السجن، وإذا بهم يلبون كل رغباته ثم يولمون له وليمة دسمة "حفل وداع"، لأنهم يعرفون أن الفول والعدس والفاصوليا وكلها من مسببات الغازات الضارة بالأوزون والجيوب الأنفية هي قوت نزلاء السجون على مر الأيام والسنين..

تلك المعاملة الطيبة جعلتني أنسى أنني ذاهب الى السجن، وودعوني بحرارة عند مكتب مأمور السجن النقيب عثمان عوض الله، وكأنما صداقة عمر تجمع بيننا (بينما كنت أعرف فقط واحدا منهم معرفة عابرة بحكم أنه كان قريب أحد زملائي في جامعة الخرطوم)، وكنت أعرف عثمان عوض الله جيدا، ورأيت الحرج والضيق على وجهه وهو يجد نفسه ملزما باستكمال إجراءات حبسي،.. وبعد تبادل أوراق التسليم والتسلم، طلب مني عثمان حمل "النمرة" وهي برش (حصيرة من سعف النخيل) بداخلها بطانيتان جديدتان من الوكالة، ونادى على عسكري ليقودني الى مكان الحبس.. وفوجئت بالعسكري يدخل بي حوشا صغيرا به نحو 14 أو 16 زنزانة وكانت جميعها خالية.. خطير يا ابو الجعافير، ستفوز بجناح خاص في سجن كوبر العتيد

المهانة في الزنزانة

عاملني رجال الأمن بتهذيب جعلني أنسى أنني ذاهب الى السجن، ثم سلموني الى النقيب عثمان عوض الله في سجن كوبر العمومي، وكانت بيننا علاقة مودة وصداقة، ولكن الشغل هو الشغل، فلأنه كان يحس بالحرج، فقد أكمل إجراءات دخولي بسرعة وأمرني بحمل لفافة تضم برشا مصنوعا من جريد النخيل، وبداخله بطانيان جديدتان، ثم أمر عسكريا باصطحابي الى الغرفة المخصصة لي.، وسار بي العسكري عبر دهاليز عديدة وفتح في طريقنا عدة أبواب ثم أغلقها وراءنا، وأخيرا توقف بي أمام حوش يحمل اسم "الغربيات الجديدة" بحكم انها تقع في الجانب الغربي للسجن الضخم، و"جديدة" بحكم أنها الإضافة السودانية الوحيدة للسجن العتيد الذي شيده الإنجليز وصار يحمل اسم مستر كوبر Cooper،.. نعمل فاست فوروورد.. أي نقوم بزيادة حركة الشريط ونقفز فوق الأحداث لنرى كيف أن الغربيات الجديدة انهارت تماما بعد مغادرتي إياها

بأشهر!!(تذكروا أنها كانت الإضافة السودانية الوحيدة في السجن وبقية المباني الأقدم منها بستين سنة في ذلك الوقت ما تزال صامدة الى يومنا هذا)
كانت بذلك الحوش عدة زنازين، وكانت جميعها خالية من السكان، وأدركت ان عثمان عوض الله أراد إكرامي وخصص لي جناحا كاملا، وطلب مني العسكري ان اختار زنزانة أضع بداخلها البرش وحقيبة ملابسي،.. كانت الزنازين في ما أذكر 14 موزعة على صفين متقابلين، ويتوسط طرفها الغربي دورة مياه وحمام به دش.. طلب مني العسكري مرافقته الى خلف الحمامات، وهناك أشار بيده قائلا: شيل واحدة!! نظرت الى الأشياء التي أشار إليها فإذا بها قصريات.. أوعية متوسطة الحجم بمقبض على الجانبين ،من المعدن المطلي باللون الأبيض ونسميه في السودان "طلس"، بفتح الطاء وكسر اللام.. تجاهلت كلام العسكري ولكنه كرره: شيل واحدة يا استاذ؟ هنا نشطت جينات الخواجات في دماغي وصحت فيه: وات؟ يو ستيوبيد كريزي مان؟ هل هذا سجن ام مستشفى ولادة؟ وحتى لو كان مستشفى ولادة هل لديك معلومات بأنني حامل، أو انجبت قبل دخولي السجن بقليل؟ هل أنا عاجز عن الحركة وتلزمني قصرية استخدمها دورة مياه؟ وهتفت: إخص عليك يا عثمان عوض الله... هذه آخرة العُشرة؟ اضطر صاحبنا الى حمل القصرية بنفسه ووضعها داخل الزنزانة قرب حقيبتي ثم قال لي: تفضل .. خش!! أخش وين وليه يا عبيط؟ قال لي: دي زنزانتك؟ قلت له: عارف ان دي زنزانتي ولكن ليه أخش فيها؟ قال لأنه يريد إغلاق بابها علي!! هنا اقتنعت بأنه كريزي رسمي وقررت التعامل معه بالهداوة والمنطق: يا ابن العم أنا بمفردي في هذا الحوش وليس حولي بشر ولا بقر، فلماذا تغلقون باب زنزانة واحدة علي وحولي أسوار ارتفاعها أكثر من عشرة أمتار، يعلوها طوق من السلك الشائك وبها أبراج عليها حراس مدججون بالسلاح؟ قال: هذه سياسة السجن.. لازم المعتقل يقضي الفترة الأولى من الحبس في زنزانة انفرادية.. ودخلت الزنزانة وأغلق الباب ثم عاد وقدم لي طاسة أخرى من الألمنيوم فقلت له: شكرا .. عندي سلفا قصرية تؤدي الغرض المطلوب، فضحك وقال: دي ما قصرية.. دي حتاكل وتشرب منها.. فوضت أمري لله: قصرية صغيرة للطعام والشراب قبل الهضم وأخرى كبيرة لما بعد الهضم!
والله لم أكن خائفا من تجربة السجن، أحسست بالضيق من فكرة الحبس،.. ولكن، "خوف"؟ لا وكلا.. كان العديد من معارفي داخل السجن سلفا وكنت أتوقع لقاءهم والتمتع بصحبتهم، ولكن "القصرية" جعلتني أحس بالمهانة، كما أن بقائي محبوسا بمفردي في حوش كامل جعلني أوسوس: ماذا لو كانت الزنزانات الأخرى موبوءة بالوطاويط؟ ماذا لو قرروا تعذيبي وأتوا لي بتلفزيون لا يبث إلا مسلسلات وأفلام فاروق الفيشاوي؟
ذكريات من دفتري النضالي
سجن كوبر العمومي في الخرطوم بحري يبلغ الآن من العمر قرابة قرن كامل، ويحتل موقعا جميلا على النيل الأزرق ومحاط ببستان ومسطحات خضراء، وعند بوابته الرئيسية تحسب أنك في الأزهر.. آيات قرآنية مكتوبة بخط رقعة كبير وجميل في

الواجهات.. والمباني تحفة معمارية من الحجر، ويتألف السجن من عدة أقسام لكل منها أسواره الخاصة وباب خاص، ويقال بأن بذلك السجن 99 بابا داخليا، وللأقسام أسماء بعضها حسب موقعها: الشرقيات والغربيات والبحريات (الشماليات) .. وهناك "المعاملة" و"الكرنتينة" والمدرسة والورشة والسرايا، وغيرها، وكانت الزنازين الشمالية هي الأسوأ سمعة لأنها كانت موبوءة بالفئران.. بعد شهر او اثنين من دخولي السجن انضم الى في الزنزانة في قسم الغربيات الجديدة، صديقي الراحل الخاتم عدلان، وحكى لي كيف أنه كان قبل النوم يرتدي بيجامة ثم يربط ساقيها بخيط قوي حول ساقيه منعا لتسلل الفئران........!! في السجن يعطونك مع وجبة الإفطار ثلاث قطع من الرغيف.. واحدة للفطور والذي يكون عادة "فول" والثانية للغداء ويتألف إدامه من الفاصوليا او الرز المطبوخ بالبصل والصلصة.. والرغيفة الثالثة للعشاء.. تأكلها حاف.. يعني لم يكونوا يقدمون لنا شيئا نغمس فيه الخبز في العشاء، وكان على السجين ان يحتفظ بتلك الرغيفة ليقرمشها بعد حلول الليل.. وقال لي الخاتم أنه كثيرا ما فوجئ عند مد يده الى الرغيفة الليلية بأنها تتكسر في يده كالبسكويت، والسر في ذلك ان الفئران المجرمة (ولو لم تكن مجرمة لعاشت في مكان غير السجن تتوفر فيه القمامة) كانت تتسلل الى الرغيفة وتأكل اللب الذي بداخلها وتترك القشرة الخارجية فتظل الرغيفة محتفظة بشكلها الخارجي.... وبالمناسبة فقد كان السجن نظيفا جدا، حيث كان السجناء العاديون مكلفين بتنظيف كل حوش وقسم وممر، وخلال الفترة التي بقيت فيها في الحبس الانفرادي في زنزانة، وبقية الزنازين حولي خالية من الضيوف، كان الترفيه الوحيد الذي أنعم به عندما يأتي محمد لتنظيف حوش الزنازين وأتبادل معه الحديث، وسألته ذات مرة عن سبب دخوله السجن فقال: كتلت (قتلت) زول.. حمدت الله وقتها بأنني في زنزانة محكمة الإغلاق، وأن ذلك القاتل لن يستطيع الوصول إلي.. وأدرك محمد مدى خوفي وشرح لي ما حدث: أنا من أطراف الخرطوم وأبيع اللبن من على ظهر حماري، كل صباح لبيوتها وذات يوم "تلفظ" شخص بكلمات بذيئة بحقي، فضربته على رأسه مرة واحدة بعصا كانت في يدي فسقط ميتا.. ثم أضاف: سبحان الله هي نفس العصا التي أضرب بها الحمار عشرات المرات ولم يحدث قط ان تعثر الحمار نتيجة الضرب بها،.. كدت أقول له إن الحمار لا يموت نتيجة الضرب لأنه "حمار" بينما القتيل آدمي، ولكنني فرملت لساني، وبعدها اكتشفت كم هو ودود محمد ذاك، بل اكتشفت لاحقا ان إدارة السجن لا تثق إلا بالمتهمين في جرائم قتل لخدمة المعتقلين السياسيين، لأنهم عادة أناس قرويون بسطاء ارتكبوا تلك الجرائم بغير تعمد، ويتمتعون ب"عزة النفس" ولا يمكن ان يسرقوا ممتلكات السياسيين.

كان بالسجن خليط من الإسلاميين وقياديين في حزب الأمة والحزب الاتحادي وحزب البعث، ولكن غالبية النزلاء كانوا من الحزب الشيوعي، وكان قياديو تلك الأحزاب (ما عدا البعثيين) موزعين على أقسام ليست بها شيوعيين، وكان بعضهم من كبار السن ومن بينهم قطب الحزب الاتحادي المعروف أحمد زين العابدين، محتجزين بصفة دائمة في مستشفى السجن الذي حظيت بالإقامة فيه عن طريق الاستهبال نحو عشرة أيام، كانت

من أحلى أيامي في السجن لأن المستشفى كان نظيفا جدا وكانت خدمات الطعام فيه فندقية

شلة الأنس في الحبس

بقيت محبوسا لعدة أيام في زنزانة في حوش ليس به شخص غيري، وبعد أيام قليلة رأيت باب الحوش ينفتح وصديقي ع. ط. يدخل حاملا حقيبته، ففرحت جدا ومددت يدي من خلف القضبان فصافحني، وطلب من العسكري الذي كان يصطحبه ان يخصص له زنزانة مقابلة لزنزانتي، حتى نستطيع رؤية بعضنا البعض ونحن نتآنس، ولكن السخيف البايخ تجاهل طلبه وأدخله في الزنزانة الملاصقة لزنزانتي.. وبعد خروج العسكري، التصقت بأسياخ باب الزنزانة وطفقت أسأله عن هذا وذاك من أصدقاء مشتركين، دون أن أتمكن من رؤية وجهه،.. وبعد دقائق قليلة كف ع. ط. عن التحدث معي.. انزعجت ورفعت صوتي ولكنه توقف عن الحديث .. ماذا أفعل؟ ونحن في أول المساء، وليس حولي شخص استنجد به .. هل سمموه ثم أتوا به الى السجن، ليموت ثم يزعموا أنه انتحر؟.. صرت اصرخ مناديا إياه كل نحو ساعتين، فلم يكن واردا أن أنام بينما صديقي كف عن الكلام بعد دخوله زنزانة ملاصقة لزنزانتي بدقائق.. وفي نحو الثانية فجرا رد على النداء بصوت فاتر فسألته: مالك؟ هل أنت بخير؟ تخيلوا ماذا كان رده: جيت فتران وتعبان ونمت على طول!! أطلقت عليه ترسانة من الشتائم من العيار الثقيل وختمتها بالقول: الإعدام خسارة فيك يا أبو قلب ميت!! يا رجل يسحبونك من بيتك ويرمون بك على الأرض لتنام على حصير رقيق فوقه بطانية سمكها سنتيمتر، في زنزانة انفرادية، وأول ما تفكر فيه النوم؟ قاطعني بصوت يحنن قلب الكافر: لسه نعسان.. الله يخليك اسكت والصباح رباح.. ورغم شتمي إياه فقد كبر في نظري: هذا شاب جاءوا به الى السجن، ولا يدري كم يقضي به، وينام فور دخوله الزنزانة.. هذا صنف من الرجال لا تخيفه السجون ولا "تكسره"

قلت إنهم كانوا يخصصون للسجين في زنازين سجن كوبر قصرية بيضاء يستخدمها كدورة مياه، وقصرية صغيرة فضية من الألمنيوم يضعون له فيها الطعام ثم يغسلونها ويصبون له فيها الشاي والماء.. كان وجود القصرية أكثر ما يضايقني ويكسر خاطري، وكان أسوأ من استخدامها أنهم كانوا يفتحون لك باب الزنزانة كل صباح لتفريغ محتوياتها في دورة المياه الصحيحة، وبعدها تنظف أسنانك وتستحم.. كل ذلك في حدود نصف ساعة.. ما زلت إلى يومنا هذا أتذكر حالتي وأنا أحمل القصرية بكلتا يدي، وأمشي بحذر وأنا مطاطئ الرأس، كمن يحمل دليل إدانته في جريمة تتعلق بالشرف، ولكن شيئا فشيئا صارت الزنازين من حولي ومن أمامي مأهولة، فبعد كل كذا يوم كانوا يأتون بمعتقل جديد أو أكثر، وكنت سعيدا لتمكني من رؤية ثلاث أشخاص على الأقل في الزنزانات المقابلة،.. كنا نجلس كالقرود ملتصقين بأسياخ الزنازين وممسكين بها ونتآنس لساعات متأخرة من الليل.. ما ورانا شيء.. نشارك في مطارحات شعرية، ونجري مسابقات في حل الألغاز.. كان في إحدى الزنازين إمام مسجد في الخرطوم، وكان كلما

قال أحدهم خلال المطارحات الشعرية بيتا من الشعر النواسي به "قلة أدب"، صاح وهو يضحك: اسكت يا مطموس عشان ربنا ما يغطس حجرك!
بعد نحو شهر من الحبس الانفرادي، صاروا يفتحون لنا الزنازين منذ الصباح الباكر وحتى بعد وجبة الغداء، ثم يسوقوننا مثل الدجاج الى زنازيننا الخاصة..وبعدها بنحو اسبوع صار عددنا كبيرا ولم يعد ممكنا تخصيص زنزانة لكل معتقل، فتوقفوا عن إغلاق الزنازين علينا وصرنا نقضي معظم الوقت مع بعضنا البعض نتآنس ونتشاكس، ولكن الغريب في الأمر ان كل واحد منا كان عندما يريد ان ينام يدخل زنزانته ويغلق بابه عليها، غير منتبه الى ان بابها لا يستر من الأعين، ولكنه التعود والاعتياد
****

ما زلت في الزنازين الغربية
عندما أتذكر تجربتي في السجن، خلال فترة حكم جعفر نميري، أتذكر درة الشعر الفلسفي، التي صاغها شاعر الكبير إيليا أبوماضي "الطلاسم"، والتي يتساءل فيها عن ماهية الإنسان وصيرورته: جئت لا أعلم من أين/ ولكني أتيت/ ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت/ وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت/ كيف جئت/ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري/ .... ويمضي قائلا: ولماذا لست أدري؟/ لست أدري. وكحال الآلاف مثلي دخلت السجن وخرجت منه وأنا لا أدري لماذا دخلت أو خرجت، وكان هناك المئات من أمثالي في سجن كوبر العمومي، ومنهم من قضى فيه شهورا مثلي ومنهم من قضى السنين، وخرج دون أن يعرف لماذا!! بالطبع كان معنا أشخاص يستأهلون السجن لكونهم ساسة محترفين ومعروفين
أعود الى الزنزانات المسماة بالغربيات الجديدة، حيث كنت محتجزا في زنزانة خاصة، ثم امتلأت الزنازين من حولي، ولم يعد ممكنا تدليلنا وتدليعنا بتخصيص زنزانة منفصلة لكل واحد منا، ففتحوا لنا أبواب الزنازين على مدار اليوم، وكان أجمل ما في الموضوع، الاستغناء عن القصريات، حيث صار من حقنا استخدام دورة المياه مثل بقية خلق الله، كان عساكر السجن شديدي التهذيب مع المعتقلين، وكان أرباب السوابق من السياسيين الذين دخلوا السجن مرات عديدة عبر السنين يعاملون معاملة خاصة تتسم بالاحترام الشديد من قبل السجانين، لأنهم التقوا مرارا، وكانت بالسجن لجنة مركزية من كبار وعقلاء المعتقلين تبت في الأمور، وكانت تحظى باعتراف غير مباشر من إدارة السجن، وكانت توجيهات تلك اللجنة صارمة في ما يخص التعامل مع حرس السجن: هؤلاء ليسوا أعداءنا، بل هم رجال بسطاء يؤدون وظائف هي مصدر رزقهم وفقا للوائح ملزمة.. تعاملوا معهم بأدب.. وهكذا كنا نحن "شباب المعتقلين" لا نخاطب معظمهم إلا بعبارة "يا عم فلان"، وكان عم وأبو الجميع هو الصول "لوج"، أعلى الحراس رتبة، وكان صاحب دعابة، يجمع بين الحزم واللطف.. وكان يداعب عواجيز الشيوعيين بكلام مثل: يا أخونا فلان.. حرام.. قضيت معنا في السجن سنوات أكثر من التي قضيتها في بيتك .. خلي الحكومة تبني لك بيت هنا بباب يفتح على السجن وباب على الشارع وتكون نُص معتقل ونُص حر باقي عمرك

وكان هناك الشاويش رشاد وكان مثل العم لوج من جبال النوبة، وكان مهذبا وودودا، غير أن أكثر السجانين لطفا وتهذيبا كان رجلا اسمه "خ"، دائم الابتسام، وكان نوبيا مثلي وكنت استمتع بالتحدث معه باللغة النوبية.. ثم نفرت منه، بعد أن علمت أنه "الشناق".. المكلف بتنفيذ أحكام الإعدام شنقا،.. ولكن حكماء المعتقلين أصدروا أوامرهم بعدم إبداء أي نفور من العم خ. فهو يؤدي وظيفة رسمية، ولا يمارس الشنق كهواية، ولم أر عم خ بعد ان انتقلت من الغربيات إلى أقسام تضم أعدادا كبيرة من السياسيين، ويبدو أن إدارة السجن لم تكن تريد له ان يتحرك بين كبار الشيوعيين على نحو منتظم وهو الذي نفذ أحكام الإعدام في عدد من قيادييهم

كان أسخف ما في السجن هو الاستيقاظ المبكر ل"التمام"، وهو حصر عدد المعتقلين، وعندما كنت في الحبس الانفرادي كنت استيقظ عند الفجر مذعورا، لأن العساكر كانوا يضربون سيخ الزنزانة بعصيهم الغليظة: كررو كررو.. ثم: صباح الخير... وكثيرا ما رددت على التحية بأسوأ منها: هل أنتم وِش (وجه) خير؟ شرحوا لي أن عليهم حصر أعداد المعتقلين صباحا ومساء، وبالنسبة للشخص النائم في زنزانة لابد من ايقاظه للتأكد من أنه حي.. فأقول لهم: ستسببون لي سكتة قلبية بالدوشة التي تحدثونها كل صباح.. ويخرجون فأقرر مواصلة النوم، ثم "كررو.. كررو": شنو يا جماعة؟.. إنه شاي الصباح.. أقول لهم: لا أشرب شايا في الصباح، ولكنهم يصرون: نحن ملزمون بتقديم الشاي لك وعليك بعدها ان تقرر ما إذا كنت ستشربه أو تستحم به.

فيتامين ب يسبب فقر الدم؟ جائز

كنا مجموعة متجانسة في زنازين الغربيات الجديدة في سجن كوبر، وكنا نكلف بعضنا البعض بتقديم محاضرات وننظم ندوات، أو نلعب الورق والشطرنج (كنا نصنع قطع الشطرنج من الصابون)، وبعد بضعة أشهر، صار عددنا ينخفض بالافراجات المفاجئة، وجاء يوم وجدت فيه أن شريكي الوحيد في ذلك القسم قبطان مصري وجدوا في سفينته سبائك من الذهب، وبدلا من ان يحاكموه بتهمة التهريب، دبسوا فيه تهمة "التخريب"، وقالوا إنه يهرب الذهب لتمويل نشاط المعارضة، كان شخصا بسيطا، ولهذا كان مرعوبا من "التهمة السياسية"، وليس الجنائية، فقد كان واثقا من أنه يستطيع ان يثبت للمحكمة أن الذهب يخص صاحب البضاعة التي كانت محملة على سفينته، ولكن كيف المخرج من "الجريمة السياسية"، وكان على حق في مخاوفه فبعد أن رموه في سجن كوبر نسوا أمره ولم يواصلوا التحقيق معه.

بعد ان صرنا أنا والقبطان "راس"، أي بمفردنا في قسم كامل في السجن، انقلب علي، فكان كل مر بنا السجانون يردد دعاء من شاكلة: اللهم انصر جعفر نميري على أعدائه، .. ولأنه لم يكن يعرف لي لونا سياسيا معينا فقد كان يرفع يديه بالدعاء: اللهم شتت شمل الشيوعيين والإخوان المسلمين واليهود والنصارى،.. وكمان البعثيين، وانصر نميري على القوم الكافرين، كان المسكين يعتقد ان العساكر سيبلغون نميري بأن هناك سجينا يحبه ويدعو له بالخير،.. وكثيرا ما قلت له: يا كابتن.. عساكر السجن لا يعرفون نميري بل إن بعضهم ما زال يعتقد أن الإنجليز يحكمون البلد .. اترك نميري في حاله واطلب

من الله الفرج لنفسك، بل من مصلحتك ان ربنا ياخد نميري عشان تسقط عنك تهمة مساعدة المعارضة!! بس مفيش فايدة.. ظل يدعو علي بطريقة غير مباشرة عدة مرات في اليوم حتى كاد ان يسبب لي انهيارا عصبيا، وحدثت قطيعة بيننا.
كان حوش زنازين الغربيات الجديدة ملاصقا لمستشفى السجن، وبين الحين والآخر كنت أرى بعض نزلاء المستشفى يمرون أمام باب حوش الزنازين فنتبادل التحايا القصيرة، وذات يوم مر بي الصديق محمد وردي (مطرب أفريقيا الأول)، وكانوا ينقلونه الى المستشفى العسكري لمقابلة طبيب أخصائي، كحال بقية المعتقلين، الذين تتطلب حالاتهم الصحية رعاية خاصة، فحكيت له حكاية الكابتن وقلت له: لو بقيت في هذه الزنازين يا قاتل يا مقتول، فطلب مني ان اصبر يومين او ثلاثة، ولكن وفي عصر نفس اليوم فوجئت بحجر يسقط داخل حوش الزنازين وعرفت أنه رسالة من "جيراني" في المستشفى، فقد كان ربط الرسائل على حجارة هو أحد الوسائل المتاحة للتخاطب عبر أقسام السجن، وكانت الرسالة تقترح علي ان أختار لنفسي مرضا "محترما" يتطلب نقلي الى المستشفى، و"خلي الباقي علينا".. فكرت لعدة دقائق: تمرض بإيه يا أبو الجعافر؟ حمى؟ مش ممكن.. سيأتي الممرض ويقيس درجة حرارة جسمي ويكتشف أنني شخص بارد؟.. إسهال؟ العلاج في الحمام.. وهناك صاحبي القبطان الذي من المؤكد أنه سيشهد لمن سيأتون لنجدتي بأنني مستهبل، وفجأة انتبهت الى مظروف ورقي في زنزانتي كانت به أقراص فيتامين ب، وتفتقت عبقريتي عن حيلة ماكرة: تلك الأقراص مكسوة باللون الأحمر.. وبكل مهارة قمت بتذويب بعضها في الماء وتشكل عندي سائل أحمر.. نثرت منه كميات تجارية على قميصي، والجزء الأسفل من وجهي مع رسم خطوط تؤكد أن الأنف هو منبع الدم المفترض وخرجت من الزنزانة مترنحا، ورآني الكابتن وصرخ مرعوبا.. ربما خشي ان أزعم أنه اعتدى علي بالضرب ثم جرى نحو الديدبان، وهو الحارس القابع في البرج الذي فوق الحائط، وأبلغه بحالتي، وخلال دقائق كان عم "الصادق" الممرض بعيادة السجن ومعه حارسين ينقلانني وأنا "خائر القوى" إلى مستشفى السجن.

أيام العز في المستشفى

تم نقلي من القسم المسمى الزنزانات الغربية الجديدة، الى مستشفى السجن، بعد ان قمت ببطولة وإخراج فيلم هندي، بأنني نزفت دما كثيرا عبر الأنف، كنت قد صنعته من أقراص فيتامين ب، ذات اللون الأحمر، ودخل بي الممرض، وكان اسمه الصادق، المستشفى وأنا مسنود على كتفي حارسين، وأنفي محشو بالقطن .. كان المعتقلون في السجن يعرفون أنني مستهبل وأن من وضع الخطة الإجرامية لتهريبي من الزنازين هو صديقي المطرب محمد وردي.. وسمعت صديقي خالد الكد يقول: يا لطيف، حالته صعبة.. مسكين نزف نصف دمه.. وكدت أموت اختناقا وأنا أحاول كتم ضحكاتي.
كانت نقلة كبيرة.. فمن الزنازين المعتمة وجدت نفسي في حوش يضم حديقة حسنة الإضاءة، وعنابر بها أسرة عليها مفارش وأغطية بيضاء نظيفة، ورفعوني على سرير وأنا أتصنع الإعياء، واستدعى الممرض طبيبا من بين المعتقلين ليشرف على حالتي،

حتى يأتي طبيب السجن صباح الغد، أحسست بمتعة عجيبة للاستلقاء على السرير.. يااااه.. ظللت أنام على الأرض عدة أشهر، يا ما أنت كريم يا رب.. وأغمضت عيني فوجدت نفسي محاصرا بالمعتقلين المرضى وهم يصيحون: هاي صدقت نفسك.. قوم خلاص الجماعة فاتوا.. قلت لهم: القرار للدكتور وأشرت نحو الطبيب الذي كلفه ممرض السجن بمتابعة حالتي، فقالوا: ليس من مصلحتك ان تنتظر قرار الدكتور لأنه أخصائي "نساء وولادة"، فانتفضت واقفا: كله إلا الطعن في الشرف

كانت ليلة لا تنسى، قدموا لي عصير قريب فروت طازجا، فليس في العالم كله ما يضاهي القريب فروت السوداني، ولا أفهم لماذا لم ننجح في تصديره مع أنه كان سيزيح أنواع القريب فروت الموجود – مثلا- في أسواق الخليج والتي تسبب الذبحة الصدرية من فرط "حموضتها".. ثم كان العشاء.. "كبدة" وفول وسلطة خضراء ولحم ضاني مسلوق، فصحت فيهم: هل أنتم مناضلون سياسيون أم في شهر عسل؟ إيه المسخرة دي؟ لا يمكن ان يكون هذا المكان سجنا! فقرروا سحب الطعام ولكنني "سحبت" كلامي وتوسلت حتى وضعوه أمامي مجددا، .. كل ذلك وأنا أفكر في مصيري عند مقابلة طبيب السجن صباح اليوم التالي.. ولكن العبد في التفكير والرب في التدبير، فلأن الله لطيف بعباده ولأن معدتي كانت قد توقفت عن التعامل مع الأكل اللذيذ النظيف طوال فترة الحبس في الزنازين، فقد شهد جهازي الهضمي انتفاضة عارمة وعواصف رعدية.. وبحلول الصباح كان جسمي قد خلا من السوائل، مع ارتفاع في الحرارة: يا حليلك يا ابو الجعافر كنت تفكر وتخطط الليلة الماضية في مرض يتيح لك الانتقال الى مستشفى السجن، وها هو الله يبتليك بمرض قد ينقلك من ظهر الأرض إلى باطنها.

وفي الصباح تمت تغذيتي بالمحاليل الوريدية، وبقيت طريح الفراش نحو أربعة أيام،.. يعني استحققت لزوم سرير المستشفى بجدارة وب"عرق جبيني ومصاريني"، وكان بمستشفى السجن نزلاء من كل لون سياسي ولكن غالبيتهم كانوا من الشيوعيين، وكانت المعتقلون في كل أقسام السجن يتقاسمون مهام النظافة وغسل آنية الطعام، والطبخ (لاحقا).. وكان بالمستشفى محمد نور السيد، وكان يعمل في تجارة الذهب وميسور الحال، وكان كلما كلفوه بمهمة ما يصيح محتجا: أنا ما وش بهدلة! إيه اللي رماني مع الشيوعيين المقطعين؟ كان شخصا مرحا ومحبوبا، وكان يعرف لماذا هو في السجن،.. لم يكن ناشطا سياسيا ولكن كانت تربطه صداقة قوية جدا مع عبد الخالق محجوب سكرتير عام الحزب الشيوعي الذي سبق إعدامه في نفس السجن.. بعد خروجي من السجن بنحو سنتين او ثلاثا، زارني في مدرسة بحري الثانوية التي كنت أعمل بها وعرض علي ان نتغدى سويا، ولما وجدني اتوجه معه الى سيارته سألني ما إذا كنت سأترك سيارتي في المدرسة، ولما أبلغته أنني لا أملك سيارة قال: العربية دي – وكانت فولكس واجن بيتل- قيمتها زي 400 جنيه وأبيعها لك ب200 فقلت له: ما عندي.. فقال: 150 جنيه.. ما عندي.. بالاقساط؟ ما عندي، فقال: خسارة فيك الغداء وركب سيارته وانطلق تاركا إياي واقفا!!

الشرقيات والموت القريب

نعم حكومة جعفر نميري زجت بي في السجن، ولكنها لم تكن قد شرعت بعد في تفكيك مؤسسات الدولة، وبالتالي، كانت هناك قوانين تمنع الأجهزة الأمنية من التغول على صلاحيات مصلحة السجون أو إملاء الأشياء عليها، وكانت هناك لوائح تنص على معاملة السجناء السياسيين على نحو لائق وعدم تعريضهم حتى للاهانة اللفظية، بل من الإنصاف القول إنه حتى الذين خضعوا للاستجواب من قبل جهاز الأمن كانوا يعاملون بأدب واحترام، وبعد خروجنا من السجن بسنوات ترهلت الأجهزة الأمنية ودخلها بعض الشوارعية، ولكنهم كانوا النشاز والاستثناء والخروج من القاعدة العامة

بعد أيام قصيرة قضيتها في رفاهية في مستشفى السجن، جاءني حارس يوما ما وقال إنه تقرر نقلي الى "الشرقيات"، وحزنت لأنني تعرفت في المستشفى على نفر كريم من المعتقلين، ولأنني سأفارق المطرب الكبير محمد وردي الذي كنت أجلس معه الساعات الطوال ندندن، وشهدت مولد أغنيته الشهيرة "قلت أرحل"، ونمارس النميمة والحش في الآخرين باللغة النوبية.. لم نكن نفعل ذلك حقيقة، ولكن الناطقين بالعربية يتحسسون عندما يجلس بينهم نوبيان أو أكثر ويحدث تبادل جانب من الحديث باللغة النوبية.. أنا أتفهم ذلك، وكنت سأتضايق لو كنت أجالس بعض الناس وطفق بعضهم يحدث بعضا باللغة البلجيكية او المكسيكية (إذا كنت قارئا من النوع الذي نسميه في السودان "دايش"، أي تعاني من فقدان التوازن العقلي المؤقت، فاعلم انه لا توجد هناك لغة بلجيكية او مكسيكية.. واستخدم هذه الحيلة كثيرا في مقالاتي وأحاديثي، تماما، وكما أشرت في مقال سابق كأن أسأل أحدهم: هل تحفظ شيئا من سور جزء عم، فتكون الإجابة في غالب الأحوال بنعم فأسأله: طيب .. في سورة النازعات.. والنازعات نزعٌ أم نزعا؟ في 95% من الحالات سيجيب عليك حتى من يحفظ معظم سور القرآن تجويدا وترتيلا: النازعات نزعا!! في حين أن الآية الكريمة تقول: النازعات غرقا.. ولا يخطئ الناس في الإجابة لجهل أو عدم معرفته بتلك الآية، بل لأن السؤال مضلل ويستدرجك للخطأ.. كأن تطلب من أحدهم أن يجيب على السؤال التالي بنعم أو لا: هل توقفت عن ضرب زوجتك؟ إذا قال نعم فإنه يوحي بأنه كان يضربها وإن قال لا، فهي تعني أنه ما زال يضربها)

المهم انتقلت الى الشرقيات وهي حفرة عميقة، بها زنازين واسعة ورحبة، وبعكس بقية أقسام سجن كوبر فإن جدران الزنازين الشرقية من الارتفاع بحيث تصبح رؤية القمر "في تلتلة".. الزنازين تقع بالضبط أسفل الجانب الشمالي من جسر القوات المسلحة (كوبري كوبر) ولكن لو استعرت رقبة زرافة ما نجحت في رؤية الجسر الذي يرتفع نحو ثلاثين مترا فوق سطح الأرض.. ووجدت في الشرقيات خلقا كثيرا، وكالعادة – عند قدوم ضيف جديد الى أي قسم في السجن- احتفلوا بي، ولم يكن الحراس يغلقون أبواب الزنازين في هذا القسم، وكان كل بضعة أشخاص يتقاسمون الزنزانة الواحدة، لأنها واسعة كما قلت (ويبدو أنه شيدت للحبس الجماعي)، وبعد انتهاء حفل استقبالي دخلت الزنزانة للنوم بعد تبادل بعض الحديث مع اثنين كانا يشاركاني إياها، ثم "تصبحوا على خير" ونمت، وسمعت وأنا نصف يقظان صرخات شخص يعاني من ألم مريع.. كان التنبلان اللذان معي نائمين ولم يوقظها العويل فهززت أحدهما وقلت له: سامع؟ فرد:

أيوه سامع اتخمد ونوم.. صحت فيه: يا ح*ا ن، كيف أنام ولا أعرف مصدر الصوت؟ ربما زميل لنا معتقل يتعرض للضرب او وجع ضرس العقل.. انتفض صاحبي جالسا وقال في غضب: ده زول في زنازين الإعدام اللي ورانا وغالبا الإعدام حيكون الصبح!! ارتحت .. يللا نوم.. وكانت الأيام التي قضيتها في الشرقيات أتعس أيام السجن وكنت أنام بالنهار وأصحو الليل بطوله خوفا من كوابيس المشنقة.

وداع الشرقيات الله لا أعاد أيامها

كنت أتجول في أقسام السجن حاملا ثروة ذات قيمة عالية، ففي تلك الفترة لم يكن مسموحا باستخدام الورق والأقلام ولا قراءة الصحف أو متابعة وسائل الإعلام، وكانت موضة الشعر في ذلك الزمان هي ال"آفرو" ومع الأشياء التي حملتها من البيت قبل التوجه الى السجن ثلاثة أقلام حشرتها في تلافيف شعري الغزير.. وفي السجن يفلفلونك وأنت داخل وأنت خارج.. حتى عندما تنتقل من قسم الى آخر تخضع للتفتيش، ولكن لم يخطر ببالهم قط ان تل الشعر الذي يعلو رأسي يخفي أسلحة الدمار الشامل، وكنت كلما انتقلت الى قسم جديد شككت الأقلام في شعري وخضعت للتفتيش بقلب جامد... يا ويلك اذا ضبطوك تحمل ممنوعات مثل الورق والقلم: مصيرك الزنازين البحرية (الشمالية) المأهولة بالفئران والتي يربط المحتجزون فيها سراويلهم وبيجاماتهم حول سيقانهم قبل النوم دفاعا عن الشرف،.. وكنت أقوم بتأجير أقلامي لزملائي المعتقلين، بالسجائر: تستخدم القلم لساعة بسيجارة وعرض خاص: ثلاث ساعات بسيجارتين، والسجائر هو أهم عملة في السجن، يأتي المساجين المدانون بأحكام في قضايا جنائية لتنظيف الأقسام التي بها سياسيون، ويغسلون لك خمس قطع ملابس بسيجارتين، والحلاق أيضا كان من السجناء وكان يتقاضى ثلاث سيجارات من كل زبون، وكان الحلاق الذي صادفته مصريا يقضي فترة عشر سنوات سجنا.. وحكى لنا حكايته: عندي قرايب في السودان وعجبني الحال وعشت في أم درمان مبحبح.. وكنت أتجول في سوق أم درمان كثيرا عندما لفت انتباهي ان بعض متاجر الذهب تسهل سرقتها،.. المهم لم تكن عنده سابق خبرة في مجال السرقة! ولكن وكشخص نال حظا من التعليم فقد قرر اللعب ع المضمون، وسرقة أحد تلك المتاجر دون التعرض للمخاطر، وعمل صحبة مع أحد الصاغة وصار يزوره بشكل شبه منتظم الى ان جاء اليوم الذي قرر فيه ان يضرب ضربته: حلف صاحبنا على التاجر بالطلاق ان يقوم هو بشراء عصير ليمون من قهوة "يوسف الفكي" الشهيرة، وحمل الكوبين ووضع في احدهما اقراصا تكفي لتنويم قطيع من الأفيال.. شفط الصائغ شفطة واحدة وراح دايخ.. "شلته وحطيته ورا الترابيزة وكان معاي كيس ورحت انزل السلاسل والعقود من الفترينات.. ما صدقتش نفسي واني خطتي ناجحة وما تخرش ميّه.. بس فاتت علي حاجة بسيطة.. نسيت ان قزايز الفترينات شفاف.. والناس شافتني وهجموا علي وعينك ما تشوف إلا النور.. فاكرين إني قتلت الراجل.. سممته ولـلا حاجة.. حلفت لهم ان الراجل حي.. وأول مرة افرح لما اشوف البوليس عشان خلصوني من الحوش الروش اللي ما ميزوش بين النايم والميت.. وأديني زي ما شايف في السجن!"

قلت في مقالي السابق انني قضيت أسوأ فترات السجن في الزنـازين المسماة بالشرقيات لقربها من زنازين المحكوم عليهم بالإعدام، بعد ان سمعت عويل وبكاء أحدهم في أول ليلة لي هناك، وما يؤكد أنني فعلا سي. دي. أبو الجعافر، ذو الكرامات التي تحول العمالقة الى سنافر، فقد استمرت إقامتي في تلك الحفرة أقل من أسبوع حيث تقرر نقل جميع نزلاء الشرقيات الى السرايا.. النقل الى السرايا كان بمثابة "الإفراج"، فقد كان أكثر أقسام السجن بهجة وضجيجا وحيوية لكونه يضم أكثر من مائتي شخص، وعندما دخلنا السرايا وكان عددنا نحو ثلاثين، اهتزت جنبات السجن بهتاف مئات الحناجر.. وجدنا انفسنا في احضان العشرات الذين لا نعرف معظمهم ولكن يجمعنا "المصير المشترك" وهو أفضل من المصير العربي المشترك الذي هو "مستخبي" منذ قرون، فالسجن على الأقل محكوم بمدة زمنية وليس عطاء مفتوحا كالمصير العربي!!

في السرايا.. يا للسعادة

كانت الحياة في قسم السرايا بسجن كوبر العمومي صاخبة ومبهجة، حولك نحو مائتي شخص من كل مشارب ومسارب الحياة: وزراء سابقون وأساتذة جامعات ومهنيون من كل لون وسائقو سيارات أجرة وميكانيكيون، وقبل أن أنتقل إلى السرايا كان فيها "رأس الخروف"، وهو شخص أمي، كان سكرانا ويحمل "رأس خروف" محمرا، ليتناوله بعد وصوله البيت، وكان حظر التجوال قد بدأ فاستوقفته دورية عسكرية، فحسب أنها عصابة من قطاع الطرق تريد الاستيلاء على رأس الخروف، وبدورهم حسب العسكر أنه يحمل متفجرات أو منشورات سياسية وطاردوه.. استطاع ان يصل الى مقابر فاروق ويتخذ من شواهد القبور سواتر جعلت المطاردة صعبة على العساكر ولكنهم نجحوا في آخر الأمر في القاء القبض عليه متلبسا بحيازة راس خروف، وساقوه الى المخفر وهو يصيح: يا جماعة راسي.. راسي!! يعني راس الخروف.. وإلى حين تحري وضعه تم اعتباره معتقلا سياسيا ونقلوه الى كوبر.. وطوال وجوده في السجن، كان يردد: أنا ما خايف من السجن بس محسور وموجوع على راس الخروف، وأورد الأستاذ خليل إلياس حكاية صاحبنا راس الخروف في كتابه الممتع "كوبر هاجن" عن تجربته في السجن، وقد كان خليل منخصصا في "الافتراء" على صديقه شيخ العرب محمد عبد الغفار، ويروي عنه حكايات بعضها صادق – مع إضافة الكثير من البهارات – وبعضها مفبرك، لاستدراج شيخ العرب الى معركة كلامية، وكان كلاهما يعطيانك الانطباع بأنهما يمضيان الوقت في الريفيرا الايطالية وليس سجن كوبر، فقد كانا يبثان البهجة والمرح في النفوس، بحكاياتهما ونوادرهما (وهناك شخص معروف في الخرطوم تم ضبطه راقدا في حالة سُكر، في الحديقة الواقعة أمام القصر الجمهوري بعد سريان حظر التجول، وصاح فيه العسكر: يا زول .. انت مش عارف إنه في حظر تجول؟ فرد عليهم: منو اللي بيتجول.. انا راقد.. ضحكوا وأوصلوه الى بيته!!)

وكانت هناك جماعة حائط المبكى، وهم الذين لم يتحملوا السجن منذ يومهم الأول فيه، وكان معظمهم من فئة "شعب كل حكومة"، أي تلك النوعية التي ترسل برقيات التأييد لكل حكومة جديدة، وتخرج في مظاهرات تأييد لها، والغريب في الأمر أنهم كانوا من

أبرز من شارك في المظاهرات التي سيرها الشيوعيون بعد استيلاء عسكريين يساريين على السلطة في يوليو 1971، بعد الإطاحة بحكم جعفر نميري، ولكن الإنقلاب الذي قاده ضباط شيوعيون سقط بعد 3 أيام وعاد نميري الى الحكم، واستعرضت الأجهزة الأمنية أشرطة التلفزيون الخاصة بتلك المظاهرات ووجدت في صدارتها عددا من الناس تم اعتقالهم، ومن بينهم جماعة حائط المبكى، واستحقوا التسمية لأنهم "فرزوا عيشتهم" من بقية المعتقلين ورابطوا ليل نهار قرب بوابة السجن الكبيرة، وظلوا يرسلون البرقيات الى رئاسة الجمهورية ووزارة الداخلية يلعنون فيها خاش الإسلاميين والبعثيين والشيوعيين والناصريين والبوذيين وكافة الأحزاب، وألف الموسيقار الراحل جمعة جابر عنهم طقاطيق ساخرة ولطيفة كنا نرددها في ليالي السمر التي كانت تُنظم مرة في الأسبوع

كانت السرايا مبنى جميلا مؤلفا من طابقين بكل منهما (إن لم تخني الذاكرة) أربعة عنابر واسعة، وبينها ممرات تتسع للعشرات، وكان بها مسرح ومسجد، ثم نصبت خيمة عملاقة لاستيعاب المزيد من الضيوف، وبما انها كانت تضم خليطا من كل المهن والمهارات والميول السياسية والفنية، فقد كانت السرايا نادياً اجتماعيا ثقافيا يحفل بنشاط منظم: محاضرات وندوات ومسرحيات وغناء ومباريات كرة القدم (مصنوعة من الجوارب المحشوة بقطع الملابس، وكان النزلاء منقسمين الى أندية.. كنت أشجع نادي الأرز (بفتح الهمزة في الألف الثانية).. وكان هناك نادي التعريفة، والتعريفة كانت تساوي خمسة ملاليم أي نصف قرش، وكانت التعريفة قبل أن يفقد الجنيه السوداني قواه العقلية تكفي لشراء وجبة فطور لتلميذ في المدرسة، وسر التسمية أن مجموعة من أبناء أم درمان بقيادة عالم الآثار الجهبذ البرفسور الراحل أسامة عبد الرحمن النور، عثرت على تعريفة في الجانب الخلفي من السرايا، ووجود أي نوع من العملة داخل السجن أمر خطير وجلل، وبالتالي كان لتلك التعريفة قيمة تاريخية، وتكريما لها، اتخذوا من موقع الحفريات الذي عثروا فيه على التعريفة مسكنا لهم، وصار هناك ناد يحمل اسمها ويخوض المنافسات الرياضية والفنية.. الغريب في الأمر أن الديدبانات، وهم العساكر الذين يحرسون السجن من أبراج فوق الأسوار صاروا ينحازون لهذا النادي أو ذاك ويتابعون المباريات بحماس بالغ، إذ كانوا يتركون مراكزهم ويتجمعون قبالة الساحة الأمامية للسرايا حيث كانت تجري المباريات.

عن السرايا وزروق

تحملوني وابقوا معي في سجن كوبر العمومي في الخرطوم بحري، ضيوفا علي، خاصة وقد انتقلت الى قسم ضخم وفخم اسمه السرايا وهي كلمة تركية تعني القصر، وكنا نتشعبط الى نافذة عالية في العنابر التي في الطابق العلوي منها، ونتمكن من رؤية الشارع وحركة المرور ونحس ببعض "الحرية"، وكانت رؤية ما يدور خارج السجن من حياة عادية أمرا مشوقا، وكلما ذهب احدنا الى مستشفى خارج السجن، كنا نتحلق حوله ونسأله عن الأشياء التي "شافها".. حكى لنا بعض عواجيز السجناء ان الأستاذ حسن الطاهر زروق، وهو أول شيوعي يفوز بمقعد في البرلمان، كان معتقلا خلال

فترة حكم الفريق إبراهيم عبود، وذات يوم كان في عربة السجن مع نفر من المعتقلين في طريقهم الى مستشفى الخرطوم الملكي (كان هذا هو الاسم الرسمي لمستشفى الخرطوم الحالي، وكلمة ملكي كانت تطلق حتى عهد قريب على كل ما هو غير عسكري، وفلان ملكي يعني "مدني"، وكان العساكر يسمون المدنيين "الملكية").. المهم حسن الطاهر زروق عاش سنوات طويلة في مصر حيث درس وقضى جل سنوات شبابه وكان يتكلم على الدوام بلهجة مصرية، وكان مصري النكتة والدعابة، وفي الطريق الى المستشفى كان كلما رأى حسناء صاح: يا حلوة يا بطة .. إيه الجمال ده كله؟ يا نور النبي! ولم يكن الرجل في حقيقة الأمر من النوع الذي يعاكس النساء، ولم يكن معنيا بشيء غير الأدب والسياسة، ولكن المزاج المصري كان يحمله على التفكه الهازل، وتضايق أحد شباب الشيوعيين الذين كانوا برفقته لكون رمز حزبي كبير يتغزل بالنساء على قارعة الطريق، فقال: حتى أنت يا بروتس، فانفجر زروق في غضب حقيقي: ومين اللي آل (قال) لك إن أنا بروتس.. ده أنا حسن

ويقال إن حسن الطاهر زروق كان متيما بفن أم كلثوم، ولو قالوا له إن الثورة الشيوعية ستنجح في توقيت يتزامن مع حفل لأم كلثوم كان يقول: عنها ما نجحت.. كان زروق مطاردا خلال الديكتاتورية العسكرية الأولى (17 نوفمبر 1958 – 21 أكتوبر 1964)، وكان ذات مرة يتخذ من بيت في أم درمان مخبأ، وكان هناك شاب يقوم بدور همزة الوصل بينه وبين قيادة الحزب الشيوعي ويوفر له حاجياته، وذات يوم اقترب ذلك الشاب من البيت "المخبأ" وانزعج واضطرب لأنه رأى شرطيا يقف في أول الشارع المؤدي الى البيت، وظل يلف ويدور حتى تمكن من التسلل الى المخبأ.. دخل الغرفة التي يقيم فيها زروق، ولسوء حظه كانت أم كلثوم تغني، وزروق يستمع إليها واضعا رأسه فوق جهاز الراديو وهو في حالة انتشاء تام، وربت الشاب على كتفه: استاذ، استاذ .. في بوليس واقف بره.. للحظة فكر زروق في أن يقتل الشاب خنقا، ولكنه قرر التخلص منه عبر الوسائل القانونية، ففتح الشباك المطل على الشارع وصاح: يا بوليس يا بوليييييييييس.. وكاد الشاب ان يصاب بسكتة قلبية، ولبى الشرطي النداء فطلب منه زروق ان يدخل البيت ثم أبلغه وهو يشير الى الشاب المسكين: الراجل ده ما اعرفوش.. تعدى على بيتي وأنا عايزك تطلعو من هنا وتفتح عليه بلاغ.. انزعج الشاب لكون فتح البلاغ يعني ان يذهب حسن الى مركز الشرطة وينكشف غطاؤه ويتم اعتقاله، وصاح: عيب يا استاذ حسن، ولحسن حظه فإن الشرطي كان "ابن بلد" وقال لزروق: معليش يا استاذ.. ده باين عليه ابن ناس.. يطلع بره البيت وخلاص.. وانتهى الأمر بسلام

الشيوعيون كادوا يقتلوني

كانت حياتنا في قسم السرايا بسجن كوبر حافلة بالنشاط الثقافي والرياضي، وكانت هناك لجنة من أرباب السوابق ومعتادي الإجرام السياسي تضع اللوائح والضوابط التي تحدد إيقاع الحياة في المعتقل وأساليب التعامل مع إدارة السجن،.. كنت اقوم بتدريس الانجليزية للبعض وكان هناك من يدرس لغات مثل الفرنسية والروسية، وكانت هناك محاضرات في الاقتصاد والادب وكل ضروب المعرفة، وبحكم أن الشيوعيين يعتبرون

سجن كوبر "بيت أبوهم" فقد كانوا يسيطرون على تلك اللجنة، وقاموا بتقسيم المعتقلين الى مجموعات كل واحدة منها تسمى "كميون commune) وهي التسمية الماركسية للجماعة التي تشترك في الأنشطة الحياتية وتتقاسم أعباءها وعوائدها.. فات عليهم أن تجربة كميون باريس فشلت (هي أول حكومة للطبقة العاملة في التاريخ، قامت في باريس ما بين 18 مارس 1871 حتى 28 مايو من نفس العام.. كانت حكومة "محلية" ورغم قصر عمرها تعتبر محطة مفصلية في تاريخ الحركة الشيوعية رغم ان الفوضويين anarchists نسبوا الفضل في قيامها لحركتهم). كان كل كميون في السجن يقسم العمل بين أعضائه (غسل أواني الطعام ولاحقا إعداد الطعام والمشروبات الساخنة).. وكان العضو ملزما بتسليم الكميون كل شيء يأتيه به أهله: سجائر ومأكولات وصابون إلخ

وكانت الحياة في السرايا تسير بسلاسة، لأنها كانت حافلة بالنشاط والأعباء، ولكن الشيوعيين "نكدوا عيشتنا" تلك.. طلع في دماغ لجنة المعتقل ان طباخي السجن لا يحسنون الطبخ وطالبوا بتسليم المعتقلين مكونات الطعام في شكلها الخام ليتولوا هم بأنفسهم مهمة الطبخ، ورفضت إدارة السجن هذا المطلب "السخيف"، وحمدت الله على ذلك.. في السودان يتهكمون على أهلي النوبيين ويقولون إن "النوبي إذا فلح يبقى طباخ"، فقد كان كل الطباخين في القصور والفنادق في السودان ومصر ولاحقا في دول الجزيرة العربية من النوبيين، لسبب بديهي وهو أنه لم يكن يوجد غيرهم في المنطقة يعرف المائدة المنوعة، ولديه "ثقافة طعام".. وشككت في نوايا لجنة المعتقل، بحسبان أنهم يطالبون بمواد غير مطبوخة ثم سيقولون لنا نحن النوبيين وكنا نحو عشرة في ذلك الجزء من المعتقل من بين نحو مائتين: يللا شوفوا شغلكم ... ورونا شطارتكم!! بذمتكم هل هناك شخص عاقل يأتيه الطعام جاهزا فيقول: لا أنا أريده نيئا لأطبخه بنفسي؟

كان الشيوعيون يريدون جنازة ليشبعوا فيها "لطم" كما يقول المصريون، وجاءتهم الجنازة برفض إدارة السجن منح المعتقلين المواد الخام ليعدوا طعامهم بأنفسهم، وهكذا قرروا دخول المعتقلين في إضراب عن الطعام،.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. قمت بتشكيل لوبي (مجموعة ضغط) لإلغاء الإضراب والإطاحة بلجنة تسيير المعتقل، ولكن لم ينضم إلينا سوى نفر معدود،.. وأضربنا عن الطعام.. وبعد مرور نحو 36 ساعة صارت معدتي ترفض الماء، وفقدت القدرة على التركيز، ورقدت على الأرض خائر القوى،.. ثم شعرت بهزة في جسمي، وفتحت عيني بصعوبة، ورأيت كائنا غريب الملامح فقلت: أكيد ده عزرائيل.. حسرة على شبابك يا أبو الجعافر قتلك الشيوعيون وأنت غض العود.. وأمسك ذلك الكائن برقبتي من الخلف، فرددت الشهادتين، ثم أحسست بشيء دافئ في شفتي، فقلت: هذه هي لسعة الروح وهي تخرج.. وسمعت صوتا يقول: اشرب.. خُد شفطة.. وشفطت بصعوبة وأحسست بطعم لذيذ وهتفت في سري: يبدو أنني دخلت الجنة بوصفي شهيدا لأنني مت مظلوما ولقيت حتفي على يد الشيوعيين، وشفطت مرة أخرى وثالثة وسابعة.. وتنبهت حواسي بعض الشيء، .. كان أحد زملائي في المعتقل يسقيني شوربة دافئة بعد ان تقرر فك الإضراب عن

الطعام لأن إدارة السجن "تخاذلت" ولبت مطالب لجنة المعتقل بتسليمنا المواد الخام للطعام... وسبب تخاذلها كما علمت لاحقا هو أن الشيوعيين الملاحيس كانوا بطريقة أو بأخرى ينظمون احتجاجات وإضرابات متزامنة في كل سجون السودان.. يعني كان المعتقلون في سجون مدن الأقاليم أيضا وكانوا بالآلاف مضربين عن الطعام أيضا
الشيوعيون يخططون لقتلي مجددا
الشيوعي نكدي لكونه يرفض الواقع جملة وتفصيلا، ولا يرى أن هناك تحسنا في الأوضاع، وأن الأمور تسير كما يرام طالما لم يقم النظام الشيوعي، وهم الذي ابتدعوا "الإضراب" كسلاح سياسي بغطاء "مطلبي"، وقلت في مقالي الأخير إنهم عرضوني للموت بعد ان أرغمونا على الدخول في إضراب عن الطعام (لا أعرف كم دام الإضراب لأنني دخلت في غيبوبة في اليوم الثاني)، حتى انصاعت إدارة السجن للمطلب العجيب للجنة المعتقل بتسليمنا مواد الطعام وهي غير مطبوخة.. ومر نحو شهرين أو ثلاثة بسلام.. نمارس النشاط الثقافي (لم يكن لي دور في النشاط الرياضي بسبب عقدتي من الرياضيات) ونقضي الساعات الطوال في لعب الورق والدومينو والشطرنج.. في لعبة الكنكان العادية تكون الفورة أي العدد الأقصى لنقاط الفوز إما 51 أو 101، ولكن في السجن كانت الفورة 2000 أو 5000، ما في شيء ورانا، بل المطلوب ان تستغرق جولة الكنكان الواحدة ما بين 4 الى 6 ساعات
ثم طرحت لجنة المعتقل فكرة الإضراب عن الطعام مجددا؟ مالكم؟ في إيه؟ ما الذي ينقصكم؟ في كل صباح تسلمكم ادارة السجن كميات مهولة من اللحم والبصل والطماطم حسب رغبتكم، ماذا تريدون؟ تزويد السجن بال"فانتا" عبر شبكة مواسير المياه؟ قالوا: نريد المطالبة بأسرة لأن النوم على الأرض فوق البرش والحصير لا يليق بالآدميين؟ ..نعم؟ سرير لكل معتقل؟ لماذا لا تطالبوا – بالمرة – بنقلكم الى فندق؟ ثم إنه من الثابت علميا ان النوم فوق البلاط يوفر الوقاية من آلام الظهر.. ولكن الشطح لم يتوقف عند ذلك الحد: سنطالب أيضا بتزويدنا بالصحف اليومية وأجهزة الراديو والتلفزيون!! قلت لهم:إيه رأيكم نطالب بالمرة بإقامة دار سينما داخل السجن؟ وتوظيف عشرات المختصين في المساج كي "يمسدوا" العضلات التي تيبست من طول الرقاد على البلاط؟.. كيف يسمى سجنا مكان يطبخ المقيمون فيه الأكل كما يشتهون ثم تأتيهم خدمات الإذاعة والتلفزيون والصحف ببلاش؟ وقلت لهم أيضا: لو حققوا لكم مطالبكم التعسفية هذه، فإن الحكومة ستتكبد الملايين للإنفاق على المعتقلين السياسيين لأن عشرات الآلاف من المواطنين سيتعمدون التحرش بالحكومة ليدخلوا السجن وينعموا بتلك الخدمات الفندقية، وبالتالي فإنها مطالب تعجيزية ستؤدي إلى هلاك نصف المعتقلين، خاصة وان الشيوعيين يعشقون الإضرابات المفتوحة عن الطعام (سعاد ابراهيم احمد، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أضربت في أواخر عهد نميري عن الطعام لنحو ستة أشهر متصلة، وهي تعاني من السكري)
عقدت اجتماعا سريا لمريدي سي دي ابو الجعافر وقلت لهم: الشيوعيون هؤلاء يريدون تصفيتنا جسديا، والإضراب عن الطعام هذه المرة سيؤدي الى موت جماعي، ولابد من

تحرك سريع لنزع الثقة من لجنة المعتقل كخطوة ضرورية لإفشال الإضراب.. وجلسنا على المسرح الواقع في الجزء الشرقي من قسم السرايا في السجن ورفعنا أيدينا بالدعاء على اللجنة: اللهم بدِّد شملهم وفرِّق كلمتهم.. يا لطيفا لم تزل، ألطف بنا مما نزل، وأخرجنا أحياء من هذا المعتقل.. ولم ننجح في طرح أي خطة معقولة لإجهاض الإضراب، وكانت أكثر الخطط عقلانية تلك التي تقضي بتصفية أعضاء اللجنة جسديا أو إلحاق إعاقات مستديمة بهم، ولكن جميع مريدي سي دي ابو الجعافر كانوا كحيانين، يفتقرون إلى الحد الأدنى من اللياقة البدنية

وجاء يوم الإضراب المفتوح عن الطعام وطلبت "إعفاء"، فقالوا: هات شهادة تثبت انك تعاني من السكري او أي مرض "محترم".. وشاركت في الإضراب.. واحتفظت بكامل قواي العقلية حتى بداية اليوم الثالث.. ثم خارت قواي العقلية والجسدية.. ووجدت نفسي أزحف على بطني صوب مكان تخزين ممتلكات مجموعتي على أمل ان اجد فيه ما يؤكل، ولم أجد غير كميات من السكر..وأخذت لحسة.. والله خلال ثوان شعرت بالامتلاء، وبالنشاط الدافق ومع اللحسة الثانية كان الاحساس بالجوع قد زال، وهتفت في سري: يلا ليستمر الاضراب شهرا ونشوف مين اللي يتعب.. طالما هناك سكر فمرحبا بالنضال!!

أخيراً نجوت من الموت

ودخلت مع المعتقلين السياسيين في سجن كوبر في ثاني إضراب عن الطعام، وكانت المطالب هذه المرة، منح سرير لكل معتقل وتوفير الصحف وأجهزة الراديو والتلفزيون، وبعد كذا يوم من بدء الإضراب، أبلغت إدارة السجن لجنة المعتقل ان تلك المطالب قيد البحث وأن المرجح الاستجابة ولو لبعضها، ولحسن حظي كان في اللجنة بعض ما احتفظ بجانب من قواه العقلية، وصوتوا لصالح رفع الإضراب، لمنح إدارة السجن مهلة محددة.. وانقضت المهلة المحددة دون ان تحدث استجابة لأي من تلك المطالب، ورأيت لجنة المعتقل تجتمع في ركن في قسم السرايا بالسجن، وتوجهت نحوهم وقلت لهم: علي بالطلاق تقرروا اضراب تاني عن الطعام سأرسل برقية تأييد إلى جعفر نميري وأبلغ الأجهزة الأمنية بمخططاتكم الاجرامية حتى يضعوا كل عضو في لجنتكم في زنزانة بلا سقف!.. ضحكوا وقال كبيرهم: شد حيلك يا أبو الجعافر فالإضراب سيعود علينا بمكاسب كبيرة تجعل الإقامة في السجن مريحة وممتعة.. قلت لهم: أنا كده مرتاح ومستمتع، وأفضل أشوف التلفزيون واسمع الراديو في بيتنا

وهكذا حددوا يوما للدخول في إضراب آخر عن الطعام، وجلست ألعن اليوم الأغبر الذي رماني في سكة الشيوعيين كي يقتلوني قتلا بطيئا.. فهمت لاحقا ان الشيوعيين يفتعلون "أنشطة" كالإضرابات ليس بالضرورة لتحقيق مطلب معين،ولكن كوسيلة للشحن السياسي المعنوي،.. للإبقاء على يسمونه "الروح النضالية الصِدامية".. يا رب أنا تكفيني "الروح" التي تبقيني على قيد الحياة، ولا أريدها نضالية أو صدامية.. وذات صباح استجاب الله لدعواتي، فقد دخل علينا عدد من حراس السجن وبدأوا في تلاوة اسماء المفرج عنهم ومن بينهم "جعفر عباس سيد أحمد".. أتعرفون ماذا كان رد فعلي:

أقسم بالله لم أفرح.. بل وكلما أتاني زميل معتقل مهنئا بنيل الحرية أجهشت بالبكاء. بكاء صادق لفراق أناس أحببتهم وارتبطت بهم في لحظات شدة.. رجال أبطال من مختلف التنظيمات السياسية دخلوا السجن مرات ومرات قبلي، وعندهم زوجات وعيال ومع هذا لم ينكسروا او يتخاذلوا.. أشخاص رائعون أمضيت معهم عدة أشهر في السهر والسمر الممتع.. جميع من نالوا الإفراج كانوا يبكون ليس فرحا بالعودة الى بيوتهم بل لفراق "الصديق وقت الضيق"

وكما فعل المفرج عنهم من قبلنا انقسمنا نحن من نلنا حريتنا الى مجموعات، كل واحدة تطوف ببيوت عدد معين من الذين ما زالوا قيد الاعتقال لطمأنتهم على أحوالهم، وظللت أنتقل من بيت إلى بيت، ولم أدخل بيتنا إلا بعد الإفراج عني بنحو عشر ساعات.. وبعدها بأيام حان موعد إضراب الجماعة عن الطعام، وفي اليوم الثالث منه كانت وزارة الداخلية قد استجابت لمطالب المعتقلين وصرنا نحن الذين لم نشهد فترة "العز" تلك نتهكم على الذين نعموا بها بأنهم "مناضلين أي كلام" لأن السجن "باظ" وصار حال النزيل السياسي فيه أفضل من حال من يقيم بِحُر ماله وكامل إدارته في فنادق السوق العربي في الخرطوم، والتي كان من يريد الإقامة فيها يستأجر سريرا ضمن عشرات الأسرة الموزعة داخل الحوش، وكانت بها غرف خاصة ولكن الإقامة فيها كانت تعني ان تتقاسم السكن مع ثلاثة أو خمسة أشخاص لا تعرفهم ولا تربطك بهم صلة.

واعترف على مضض بأنني لم أغادر السجن بسجل نضالي ناصع، فكما أسلفت، عارضت كل المحاولات الإجرامية للتوقف طوعا عن الأكل كوسيلة لضغط إدارة السجن لتحسين شروط الاعتقال، فعلت ذلك خوفا من التهلكة.. ولكن هناك فضيحة مدوية كنت طرفا فيها في السجن وقد استجمع شجاعتي واكتب عنها، وقد... أتكتم عليها

الإفراج أعفاني من الإحراج

ذكرياتي عن الأشهر التي قضيتها في سجن كوبر في الخرطوم بحري خلال فترة حكم نميري تعطي الانطباع بأنها كانت فترة ترفيهية، بالتأكيد لم تكن كذلك، ولكن ما خفف وطأتها على النفوس هو أن السجون كانت تعج بالآلاف، من جميع ألوان الطيف السياسي، وشخصيا لم يكن عندي "محمد أو فاطمة"، كما نقول في السودان عن الشخص الأعزب الذي لم يؤسس عائلة، وكنت طوال فترة السجن في رفقة طيبة، وكتبت أكثر من مرة كيف ان المدة التي قضيتها في الزنازين أسهمت في تحسين إلمامي باللغة العربية، فبحكم أنني نوبي أعجمي فإن تعلم العربية في المدرسة في ظل مناهج عقيمة تركز على النحو والبلاغة كان ثقيلا على النفس، ولجأت الى الشعر وعثرت فيه على جماليات اللغة، وصرت من عشاق المتنبي، رغم كل الكلام البايخ الذي قاله عن ابن عمي كافور الإخشيدي: وأسود مشفره نصفه/ يقال له أنت بدر الدجى/ وشعر مدحت به الكركدن/ بين القريض وبين الرقى/ .. ثم قوله: وتعجبني رجلاك في النعل إنني/ رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا

المهم في السجن كانت جميع أنواع الكتب ممنوعة، وعندما أصبحنا انا وقبطان بحري مصري (عثروا في سفينته على سبائك ذهب مهربة واتهموه بأنه يمول نشاط

المعارضة) بمفردنا في قسم الزنازين الغربية الجديدة، وحدثت قطيعة بيننا لأسباب كتبت عنها في مقال سابق، طلبت من إدارة السجن تزويدي بمصحف، وهل يستطيع مسلم أن يقول لك: القرآن ممنوع؟ وأتوني بالمصحف وطفقت أقرأه بهدوء وتماسك، وبعد عدة أيام اكتشفت أنني استطيع فهم معاني معظم الآيات دون الحاجة الى قاموس او تفسير.. وتوقفت طويلا عند بلاغيات القرآن، ووجدتها في غاية الإمتاع، لم أتمعن فيها من زوايا الاستعارة والجناس والطباق، بل من زاوية أن التعبير المجازي في القرآن يجعلك تحس بمواطن الجمال فيه وإدراك المعاني الكامنة فيه "بدون وجع الرأس" الذي سببته لنا دروس البلاغة والنحو

في فترة ما صار عددنا نحو 12 في الزنازين الغربية الجديدة، وكنا نعيش أحرارا، أي لم يكونوا يغلقون علينا أبواب الزنازين، واقترب عيد الأضحى.. كانت إدارة السجن تعطي كل معتقل عددا محددا من التمرات ك"تحلية"، وكان تمراً نسميه نحن أهل شمال السودان "جاو"، وهو من النوع الذي يسبب الغرغرينا في اللثة، لأنه من فصيلة خشب الزان، وبالتالي لم نكن نأكل منه كثيرا، وقبل العيد بيومين قررنا صنع الشربوت من التمر، بعد أن قال لنا الحراس إن إعداده غير ممنوع، والشربوت مشروب نوبي ينتج عن نقع التمر في الماء لمدة أقصاها يومان، ويساعد على الهضم كما أنه عالي القيمة الغذائية، وبعد اليومين يتحول الشربوت الى شيء اسمه الدكاي، ويصبح مُسكرا.. نقعنا التمر في جردل كبير وقبل دخول العيد بنحو عشر ساعات شن عساكر السجن غارة علينا وصادروا الشربوت ووضعوا كل واحد منا في الحبس الإنفرادي، باعتبار أننا خالفنا اللوائح بإعداد الشربوت.. بعدها بيومين أوثلاثة جاء عم خيري وهو من منطقتنا (من أرقو بالتحديد) وقال لي ضاحكا باللغة النوبية: منذ سنوات لم أذق شربوتا بمثل تلك الحلاوة!! فصحت فيه: يعني عملتو فيلم هندي عشان تصادروا الشربوت وتطفحوه.. إلهي ما ينفعكم

وبعد انتقالي الى قسم السرايا في السجن حيث كان هناك قرابة 200 معتقل، وجدت كميات مهولة من التمر غير الصالح للأكل، وكنت وقتها أقيم في خيمة ملاصقة للمسرح مع عدد من الملاحيس الذين طلبوا مشورتي بصفتي نوبيا لإعداد شربوت من ذلك التمر، وشرحت لهم الطريقة، ولكنني حذرتهم بأنه ما ان يشم الحراس رائحة الشربوت حتى يقوموا بعملية مداهمة تنتهي بنا جميعا الى الحبس الانفرادي، فما كان منهم إلا أن أتوا بزير فخاري ضخم دفنوه في حفرة عميقة بعد ملئه بالتمر والماء، وإحكام غطائه، ووضع أحدهم فرشه فوق الحفرة بحيث لم يكن ممكنا اكتشاف أمره.. وبعد نحو 36 ساعة فتحنا الحفرة وشربنا شربوتا لذيذا في ساعة متأخرة من الليل، وفي الصباح كان جميع من شربوه يعانون من اسهال مدمر، وحدث هرج ومرج في الطابور الصباحي فما ان يبدأ العساكر في العد والإحصاء، حتى يهرول شخص أو أكثر نحو دورات المياه! وتم الإفراج عني بعدها بنحو اسبوع، وكنا بعد تجربة الاسهال الوبائي قد صرفنا النظر عن شرب الشربوت، وتركنا الزير مدفونا بمكوناته، تفاديا للإصابة بالكوليرا.. وبالطبع كان الشربوت قد تحول الى دكاي مسكر عجز التراب عن ستر رائحته وظل

الحراس يشمشمون أركان قسم السرايا حتى حددوا موقع الزير الأثري، وبمهارة فائقة أخرجوه من باطن الأرض سالما كاملا بمحتوياته الفواحة.. وطاف العساكر بالزير كل أقسام السجن وهم يرددون: شوفوا المناضلين بقوا صناع خمور.. وتم نقل جميع من كانوا في تلك الخيمة الى الحبس الانفرادي في زنازين "البحريات" حيث متوسط دخل الفرد من الفئران سبعة عشر يوميا!

خرجت من السجن وخرج والدي....

خرجت من السجن، وفوجئت بوالدي قد أتى من مدينة كوستي الى الخرطوم بحري للعلاج من التهابات سببت له حمى على مدة عدة أيام، وسعدت لأنه كان قد خرج على التو من المستشفى، واحتضنني وبكى وأبكاني، ثم مسح دموعه وأمرني بالسفر فورا الى كوستي حيث أمي وبقية إخوتي، وأقنعته بأن أمكث معه ليلة واحدة ثم أسافر الى كوستي فقبل على مضض، وكان سبب حرصه على سفري الفوري الى كوستي أن شقيقي الأصغر محجوب كان وقتها أيضا في السجن، ولكن في كوستي نفسها، وبالتالي فإن وجودي مع العائلة سيخفف عليها الأحزان، وكان من غرائب الصدف ان القطار الذي كنت أستقله وصل الى كوستي قبل دقائق من انطلاق قطار كان يقل محجوب الى الخرطوم منقولا إلى سجن كوبر الذي كنت قد خرجت منه قبل نحو 24 ساعة، ليتسنى له الجلوس للامتحانات في جامعة الخرطوم التي كان طالبا بها، وتسنى لي بذلك لقاء محجوب وقضاء بعض الوقت معه في محطة القطار.. وقضيت ليلتين مع العائلة في كوستي وقررت العودة الى الخرطوم ل"ممارضة" والدي، لأنني كنت الوحيد ال"خالي شغل" بين إخوتي، وفي الطريق الى محطة القطار مع شقيقي عابدين، مررنا بمحاذاة مكتب البريد، فإذا بابن عمتي أحمد كمبو يستوقفنا وفي يده برقية تفيد بأن والدي توفي إلى رحمة مولاه، وكانت عائلتي تحسب أن خروجي من السجن بداية النهاية لموسم الأحزان فإذا بالموت يخطف كبير العائلة

مكثت قرابة أسبوع مع أهلي في كوستي، وسافرت وعدد منهم الى الخرطوم، لقراءة الفاتحة على قبر الوالد العزيز، ثم استقر بي المقام في الخرطوم بحري حيث دفن الوالد وحيث مسقط رأسي، وكان قانون الاعتقال السياسي يقضي بأن يتقاضى المعتقل راتبه الأساسي كاملا، خلال وجوده في السجن وبعد خروجه منه، حتى يتم النظر في أمر عودته الى وظيفته أو إنهاء خدماته، ولم تكن النسبة المخصومة من الراتب كبيرة بل كانت في حدود 5% التي كانت تسمى علاوة غلاء المعيشة، وبالتالي كان وضعي المالي مريحا: عواطلي وعندي راتب محترم

كنت قد دخلت السجن شابا صغيرا قليل التجربة في الحياة، وتعلمت هناك أشياء أهمها التماسك في وقت الشدة والاعتماد على النفس في أمور كثيرة، وفوق كل ذلك، أن أكون جزءا من فريق أو مجموعة تتعاون في ظروف الشدة، وقررت عدم الإقامة في بيت أي من أقاربي، واستأجرت غرفة في عمارة تقابل نادي التحرير في الخرطوم بحري، سبقني إليها عدد من زملائي المفرج عنهم من السجن، وطوال السنوات التي أعقبت خروجي من السجن وسبقت هجرتي الى منطقة الخليج كان أقرب الأصدقاء إلى نفسي

هم أرباب السوابق السياسية الذين تعرفت بهم في السجن، فظللنا متواصلين على المستوى الاجتماعي ومتكافلين على المستوى الاقتصادي/المالي.. وتبنى القانونيون المفرج عنهم قضايا بسطاء متهمين بجرائم قتل كانوا منسيين في السجن لسنوات، ونجحوا في إسقاط التهم عنهم،.. كان من بين هؤلاء واحد من ابناء جنوب السودان اسمه "عرديب"، وكان شخصا مرحا مهزارا، وقضى سنوات في الخرطوم متنقلا بين بيوت عدد من المعتقلين السياسيين السابقين، مشاركا إياهم أفراحهم وأتراحهم، فتعرض للاعتقال مجددا بشبهة أنه يمثل حلقة وصل بين سياسيين يقومون بنشاط سري.. وبعد أن نال الإفراج "الثاني" قلت له مازحا: يا عرديب ما عندك طريقة إلا تنضم للتمرد في الجنوب!! وكان رده صاعقا: فكرت فعلا انضم للتمرد أو أي عمل مسلح ضد حكومة جعفر نميري ولكنني أخشى أن أقتل قريبا لواحد من الشماليين الذين أنقذوني من السجن المؤبد/المشنقة، وظلت علاقتي بعرديب مستمرة حتى شعرت ان نميري حول السودان كله الى سجن كبير فهاجرت الى الخليج

حبس انفرادي ولكن "إرادي"

كانت الفترة التي أعقبت خروجي من السجن من أخصب فترات حياتي، بل شكلت نقطة تحول في تكويني الثقافي، فقد استأجرت غرفة في عمارة في السوق الجديد بالخرطوم بحري قبالة نادي التحرير الرياضي، سبقني إليها عدد من زملائي السابقين في سجن كوبر من أبناء الأقاليم النائية، وكان بالطابق الأرضي للعمارة مطعم "أمل" الذي يملكه قريبي صالح يعقوب، وكنت بالتالي أحصل على خدمات طعام فندقية، أي ان الوجبات كانت تأتيني وأنا في غرفتي (روم سيرفيس)،، ولكن لم يحدث قط ان تناولت أكثر من وجبتين في اليوم الواحد طوال إقامتي في تلك العمارة، ولم يكن بالغرفة أثاث سوى سرير وتربيزة (طاولة) صغيرة، وكنت أعلق ملابسي على مسامير مثبتة على باب الغرفة، وكانت أرضية الغرفة مغطاة بالكتب.. كان كتاب ما يشدني فأظل أقرأ فيه حتى انتهي منه، وهكذا كنت أحيانا أفرغ من قراءة تسعة كتب في الأسبوع الواحد، وشيئا فشيئا فقدت الإحساس بالزمن، فلأن الغرفة مضاءة 24 ساعة (لأنه لم تكن بها سوى نافذة صغيرة تسمح فقط بمرور جرعات قليلة من الأوكسجين)، لم أكن أحس بدخول الليل او الصباح إلا بالنظر الى الساعة، وكثيرا ما استيقظت من نومة طويلة لاكتشف ان الساعة بلغت الثالثة فجرا، مما يعني انني كنت أنام حسب التساهيل أحيانا في السابعة مساء بل وأحيانا في الثالثة عصرا لأجد نفسي نشطا في منتصف الليل، ويعصر الجوع مصاريني فأنبش جنبات الغرفة بحثا عن تمر او بسكويت،.. ثم اكتشفت أمر سيدة تبيع اللقيمات/ الزلابية وشاي الصباح قرب مطعم في السوق، وجل زبائنها من العمال المتوجهين الى المنطقة الصناعية.. كان ذلك اكتشافا مهما لأنني أحب اللقيمات ولأنني صرت قادرا على إسكات عواء مصاريني عند الاستيقاظ في ساعات الفجر الباكر عندما يكون المطعم مغلقا

وفي تلك الفترة قرأت كل ما وقع في يدي من كتب عن تاريخ السودان، ووقعت في غرام علم الأنثروبولوجي (تطور الأجناس البشرية وأعراقها وعاداتها إلخ)، وتعرفت على

عدد من الروائيين الأمريكان وكنت قبلها لا أقرأ إلا لكتاب بريطانيين.. وذات صباح (يا فتاح) خرجت من غرفتي في الطابق الأول من العمارة قاصدا محطة الشاي واللقيمات، ولم يكن سلم العمارة مضاء، وفجأة وجدت نفسي "أغرق" .. أي والله العظيم.. انزلقت رجلي ووجدت نفسي مغمورا بالماء فصرخت من هول المفاجأة.. هل هذا كابوس أم أنني كنت أقضي الليل في مركب على النيل ونزلت في الماء وفي جفوني بقية من نوم؟ سعدت لأنني وجدت رجلي ثابتة على الأرض بينما وصل الماء إلى خاصرتي.. تلمست طريقي الى السلم وأنا في حالة فقدان توازن عقلي وجسماني، وصعدت الى أعلى ووقفت عند شرفة تفصل بين الغرف وألقيت نظرة على الشارع الرئيسي وانتبهت إلى أن البلد كلها غارقة وأن أمطارا عنيفة ما تزال تجلد الساحات والبنايات.. وأدركت أن المياه تسربت الى الطابق الأرضي من العمارة وغمرته.. وبعد نحو عشر ساعات قررت الخروج لتفقد أحوال أهلي في المدينة، ولكن سرعان ما تراجعت عن ذلك القرار لاستحالة الوصول الى أي موقع بدون قارب.. كانت أمطارا استثنائية دمرت آلاف البيوت.. ولم يفتح المطعم الذي كان في الطابق الأرضي أبوابه طوال يومين واختفت بائعة الشاي واللقيمات لثلاثة أيام، وكنت سأهلك جوعا لولا أن بعض أقاربي أتوني بمواد تموينية على شاحنة ثم اقتادوني معهم محتجين بأنه لا يجوز لي ان أعيش مثل "المقاطيع" بينما بيوتهم مفتوحة أمامي في المدينة.

نهاية فترة البطالة الممتعة والتحول الى جوكر

كنت عند نهاية كل شهر أتوجه الى وزارة التربية والتعليم لأتقاضى راتبي الشهري، ناقصا علاوة غلاء المعيشة، شأني شأن كل معتقل ما زال في السجن أو معتقل سابق، وكنت مستمتعا بالبطالة المجزية، لأنني تفرغت تماما للقراءة في غرفتي البائسة في عمارة في سوق الخرطوم بحري الجديد، وتعرضت في أكثر من مرة ل"كمين" من الأستاذين عبد الفتاح أحمد عيسى وحمزة مدثر اللذين كانا وقتها في إدارة التعليم الثانوي بالوزارة، وكانا يريدان مني المثول أمام مجلس تأديب حسب توجيهات الحكومة لينتهي الأمر بكتابة المعتقل المفرج عنه تعهدا بعدم ممارسة أي نشاط معارض للحكومة ويعاد الى الخدمة، (أو يفصل، في حالة السياسيين المحترفين)، وكنت أزوغ من الكمين تارة متعللا بأنني "مشغول"، وتارة بأنني أخضع للعلاج، وكنت أعرف أن قلب أساتذتي شاغلي المناصب العليا في الوزارة علي، ويريدون لي العودة الى العمل، ولكن وعندما "زنقوني" ذات مرة قلت لهم: شوفوا يا جماعة.. أنا عايش مبسوط وأقبض راتبي الشهري ناقصا نحو خمسة جنيهات دون أن أفارق غرفتي، فلماذا "أغلِّب نفسي وحالي" وأعود الى العمل، بينما التنقل من والى المدرسة التي س"تدبسوني" فيها سيكلفني أكثر من خمس جنيهات شهريا.. وذات يوم جاءني من يبلغني ان مدير عام الوزارة الأستاذ دهب عبد الجابر يريد مقابلتي، فأدركت أنني رحت فيها، ليس فقط لأن دهب كان تربويا وإداريا مهابا ومحبوبا، ولكن لأنه أيضا "من أندنا" أي نوبيا، وكانت تربطني به مودة، وكنا رغم فارق السن نأنس بصحبة بعضنا البعض، فأزوره في بيته الحكومي قرب حديقة اركويت في الخرطوم بحري.

لم يكن أمامي من خيار سوى التوجه الى الوزارة لمقابلة الأستاذ دهب الذي ما أن رآني أدخل عليه حتى صاح ضاحكا: أهلا بالمناضل الطفيلي.. كان يقصد انني دخلت السجن كمعارض لحكومة جعفر نميري ثم صرت أتحايل لرفض استئناف العمل لأنني أتقاضى راتبي الأساسي كاملا!! شعرت بالخجل وقلت له إن كتابة التعهد بعدم معارضة الحكومة فيه إهانة وإذلال.. وكنت صادقا في ذلك، ولكنه قاطعني: خلاص عملنا ليك مجلس التأديب ووقعنا التعهد نيابة عنك.. وهذا ما حدث بالضبط، فقد فبرك الجماعة في إدارة التعليم الثانوي مجلس تأديب في غيابي وسجلوا محضرا ثم وقعوا نيابة عني عليه وعلى التعهد.. ولما قلت له إن شرطي الوحيد هو العمل في مدارس الخرطوم، قال لي دهب عبد الجابر إنني سأعمل كمدرس "جوكر"، وشرح لي مقصده: هناك نقص في مدرسي اللغة الإنجليزية وبالتالي تشهد العديد من المدارس إضرابات عن الدراسة واضطرابات طلابية، وحيثما حدث ذلك يتم نقلي الى واحدة من تلك المدارس الى حين الحصول على مدرس ثابت، وأنتقل أنا إلى مدرسة أخرى "مضطربة"، وبعد استقرار الأوضاع يتم نقلي الى مدرسة الخرطوم بحري الثانوية الحكومية.. وخلال شهرين كنت قد علمت في 3 مدارس ثانوية، كانت آخرها مدرسة خاصة تدعمها وزارة التربية بمعلمين في المواد الأساسية ولكنها كانت هايصة ولايصة ولا علاقة لها بالتدريس او التربية، وعدت الى دهب، وقلت له إن السجن أحب إليّ من البقاء في تلك المدرسة، فكان ان حولني الى مدرسة التجارة الثانوية الملاصقة لوزارة التربية كي أكون "تحت عينه" على حد تعبيره، ليستدعيني للعب دور الجوكر متى ما تطلب الأمر ذلك، وقضيت في تلك المدرسة عاما دراسيا ممتعا، لأنها كانت من المدارس العريقة وبها طلاب منضبطون ومجتهدون معظمهم من الأرياف، وبحكم انها مدرسة متخصصة في العلوم التجارية والمحاسبة إلخ، فقد وجدت فيها مدرسين أمضوا فيها ثلاثين سنة متصلة، ولكن العمل في تلك المدرسة كاد ان يعيدني الى السجن مرة أخرى لولا أن أستاذي دهب استخدمني كجوكر لإخراجي منها قبل أن يكمشني جماعة الأمن.

وخضت مجالي التجارة والزراعة

فتح العمل في مدرسة التجارة الثانوية في الخرطوم مدرسا للغة الإنجليزية عيني وعقلي على أهمية التعليم "الفني" – مقابل التعليم الأكاديمي التقليدي- فقد كان طلاب تلك المدرسة يتعلمون أصول المحاسبة ومسك الدفاتر والطباعة والعمل التجاري، وكانوا من ثم يحصلون على وظائف مجزية خاصة في القطاع الخاص، وكانت بالسودان مدارس قليلة في مجالات التجارة والحرف اليدوية والزراعة، وما زلت اعتقد ان حاجتنا الى تعليم فني ومهني (قبل الجامعة) أكبر من حاجتنا الى بكالريوسات تسبب لحامليها التهاب البروستات لأنها جوازات مرور الى التقاعد المزمن قبل دخول الحياة العملية.

ولسبب لا أفهمه حتى الآن قررت وزارة التربية رفع سنوات الدارسة في التعليم الثانوي الفني إلى أربع سنوات، بدلا من ثلاث، كما هو الحال في التعليم الثانوي العام، بمعنى انه صار على الطالب في التعليم الفني أن يجلس لامتحان الشهادة الثانوية متأخرا سنة كاملة عن نظرائه في المدارس الأكاديمية، وأثار ذلك سخط طلاب مدرسة التجارة التي كنت

أعمل بها وقتها، فنظموا سلسلة من الاحتجاجات ورفعوا العرائض إلى وزارة التربية، وبحكم أنني كنت أحد ضباط "الداخليات"، وهي السكن الطلابي في محيط المدرسة، وبالتالي مقيما ببلاش في سكن قريب منها، فقد كنت لصيق الصلة بالقيادة الطلابية التي تقود تلك الاحتجاجات، وبما أنني كنت مقتنعا بأن قرار رفع سنوات الدراسة الى أربع ظالم، فقد كنت أتواصل مع اثنين من عقلاء القيادات الطلابية لتنظيم الاحتجاجات وكتابة المذكرات الى الوزارة، واقترحت عليهم ان يطرحوا على الوزارة فكرة رفع سنوات الدراسة إلى خمس على أن يمنح الخريج بعدها "دبلوما"، وله بعدها ان يقرر ما إذا كان يريد ان يواصل تعليمه العالي أم لا، ولكن اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلاب بالمدرسة تمسكت بمطلب واحد: أن تصبح سنوات الدراسة ثلاث سنوات كما هو الحال في التعليم الثانوي العام.

وذات صباح فوجئنا بمظاهرة طلابية هادرة تتجه الى مكتب مدير المدرسة أبوبكر سكوري، ولم يكن للرجل يد في القرار الصادر عن الوزارة، وتحولت الهتافات الى عنف حيث قام الطلاب بتكسير نوافذ مكتب المدير ونائبه، وتدخل عدد من المدرسين، كنت أحدهم لاحتواء العنف، ونجحنا في ذلك بعد أن تلقى كل منا كذا ضربة طائشة، ثم طلبنا نحن المعلمين المتعاطفين مع الطلاب دعوة للاجتماع مع وزير التربية، الدكتور محمد محمد خير، وهو تربوي معتق، وكان فارق السن بيني وبين "أصغر" أعضاء الفريق الذي كنت واحدا منه لا يقل عن خمس وعشرين سنة، ودخل أحد الزملاء في حديث مطول عن التعليم التجاري لم يكن يخلو من بكش، ففاض بي الكيل وقاطعته قائلا: السيد الوزير.. نستنكر سلوك الطلاب العنيف، ولكننا نعتقد ان قرار رفع سنوات الدراسة إلى أربع خاطئ وظالم و.. وتلقيت ركلة في ساقي من زميلي عوض حجاز، وبكل عفوية سألته: مالك؟ فهم الوزير أن حجاز أراد مني أن أسكت أو أن أتكلم بلغة أكثر دبلوماسية، فضحك ثم طلب مني مواصلة الحديث، وتحاورنا بشكل ودي لنحو ساعة ووعد الوزير بإعادة النظر في القرار، ولكن دون ان يعطينا وعدا بإلغائه.

وتم تعطيل الدراسة لنحو ستة أشهر، تم خلالها إيفادي الى مدرسة الطلحة الزراعية، التي كانت مشمولة بالقرار الذي كنت اعتبره جائرا، وكان طلابها قد دخلوا في إضراب عن الدراسة لعدم وجود مدرس لغة انجليزية.. وأقمت في تلك المدرسة شهرا، نهش خلاله البعوض لحمي، ولكنني استمتعت بكل دقيقة قضيتها هناك لأن اهل البلدة عاملوني كضيف، ورغم ان المدرسة تكفلت بإسكاني وإطعامي إلا أن الأهالي تولوا تلك المهمة، وفي مدرسة الطلحة سمعت لأول مرة بمرض جنون البقر.. كان هناك معلم لمادة الإنتاج الحيواني رأى بقرة تعاني بشكل أو آخر وقرر إبعادها عن القطيع المملوك للمدرسة، وجاء بيطري وأكد إصابة البقرة بالجنون وتم إعدامها وحرقها ودفنها في حفرة عميقة، وإخضاع بقية الأبقار لفحوصات مكثفة انتهت بإعدام ثلاث منها

الجن طاردني في الخرطوم ولندن

خلال عملي مدرسا للغة الإنجليزية في مدرسة التجارة الثانوية بالخرطوم، نعمت بفترة خصبة مارست خلالها التثقيف الذاتي المكثف، فقد دخل طلاب المدرسة في إضراب عن

الدراسة بسبب رفع سنوات الدارسة فيها من ثلاث إلى أربع، وظلت المدرسة مغلقة طوال نحو ستة أشهر، وبحكم أنني كنت ضابط داخلية (أي أحد المشرفين على السكن الداخلي للطلاب)، فقد كنت أتمتع بسكن مجاني في حرم المدرسة، كان بيتا فخما أقام فيه الضباط الإنجليز خلال الحقبة الاستعمارية وبه حديقة واسعة وجميلة، كان احمد الشيخ مدرس الرياضيات يقيم في أحدها، وكان صاحبنا هذا شخصا منظما ومرتبا، وبالتالي كان من الصعب علي مشاركته السكن في نفس الغرفة، واخترت وزميلي صلاح يحيى الفضلي السكن سويا، في "الصالون" الذي جعلناه أقرب الى حظيرة للأبقار، وكان كل شبر من الأرضية مغطى بالأوراق والكتب، وكأنما إعصار كاترينا مر بالغرفة، ولم تأت فرق الإغاثة لنجدة المقيمين فيها، فقد كنا نصحو ثم يمسك كل واحد منا بكتاب ونظل نقرأ دون ان نتبادل كلمة، إلى أن يشكو أحدنا من الجوع ونتدبر أمر الوجبة، وظللنا على هذا الحال نحو 4 أشهر، وذات "عصرية" رمى صلاح الكتاب الذي كان ممسكا به بقوة نحو السقف وصاح: إيه العباطة دي؟ نقرأ ليل نهار ثم ما النتيجة؟ الذين لم يقرأوا حرفا منذ مغادرة مقاعد الدراسة ماسكين كل شيء، ونحن نرهق عيوننا وعقولنا ولا نجد قوتا سوى سندويتشات الفول! ثم خرج من الغرفة وحسبت انه سيجلس في الحديقة فواصلت القراءة، وبعد نحو ساعتين، أدركت أن سكونا داويا ومزعجا يحيط بالمكان.. كان البيت في المنطقة الفاصلة بين وزارة التربية و"سلاح الأسلحة" التابع للقوات المسلحة، وخلف السكن الجامعي المسمى بالبركس وكانت كل تلك المباني خالية لحلول الليل ولكون الدراسة معطلة في الجامعة وخرجت من الغرفة ولم أجد أحدا في البيت، فعدت مواصلا القراءة.

كنت اقرأ رواية إكزورسِيست The Exorcist(طارد الأرواح الشريرة) وجميع وقائعها عن الشياطين والأشباح وعمايلها المهببة،.. وسرت الرعدة في أوصالي عندما رأيت أشباحا على حائط الغرفة.. تخيل نفسك في منطقة مساحتها نحو 100 ألف متر مربع وليس حولك آدمي في نحو العاشرة ليلا، وهناك نحو ألف شجرة بلوط عملاقة وآلاف الشجيرات الأخرى التي تشكل ملاذات آمنة للجن.. وتذكر أنني من جزيرة بدين حيث في كل حي خرابة تعسكر فيها الشياطين.. وتناهت الى أذني هسهسات ووشوشات أوراق الشجر الجافة وكأنها دوي مدافع.. خرجت من الغرفة على أطراف أصابعي وقد سقط قلبي من صدري والتصق بمثانتي ضاغطا عليها، ولم تكن الطرق الموصلة الى حيث بني البشر في الشارع العام توحي بالطمأنينة، فقد كانت محاطة بالأشجار ومباني حقبة الاستعمار بمعمارها الكئيب .. وتحولت الى بطل أولمبي ولكن وقع خطواتي المرتكبة زادني خوفا.. وتعثرت وسقطت كذا مرة.. ثم انتبهت الى ان الكتاب اللعين ما يزال في يدي فرميت به بعيدا فاطمأن قلبي بعض الشيء، وأخيرا وصلت الى الشارع الموصل الى كوبري النيل الأزرق ورأيت كائنات من بني البشر، فنفضت الغبار عن ملابسي وأصلحت هيئتي، وركبت سيارة تاكسي وانطلقت الى بيت أقاربي في الخرطوم بحري، وبعد دخول البيت انتبهت إلى أنني كنت حافيا

تعرضت لتجربة مماثلة وأنا في لندن في أواخر سبعينات القرن الماضي عندما كنت أقرأ مجموعة كتب للعالم الأنثروبولوجي الأمريكي كارلوس كاستنيدا، وأولها "تعاليم دون خوان The teachings of Don Juan عن تجاربه بين هنود امريكا الوسطى واللاتينية والهلوسات الناجمة عن تعاطي أعشاب معينة ولأن الكتب تتعلق بأمور وقعت وليست من نسج الخيال فقد كان محتواها مرعبا وصرت لا أقرأ تلك السلسلة إلا وأنا في القطار بين بني البشر تفاديا لغارات الأشباح.

أبو الجعافر المسطول رغم أنفه

طالعت ذات يوم إعلانا في الصحف عن رغبة السفارة البريطانية في الخرطوم في توظيف ضابط إعلام/ مترجم، وتقدمت للوظيفة وفوجئت بأنهم لا يريدون مني شهادات أو إفادات، بل قالوا بصريح العبارة أن كل ما يهمهم هو ان يكون الشخص مؤهلا للوظيفة وان يجتاز الامتحان التحريري والشفهي حتى لو كان يحمل الشهادة المتوسطة،.. وجلست للامتحان، وبعدها بكذا يوم ابلغوني أنني "نجحت" وحددوا لي موعدا للانترفيو، وعشية اليوم المحدد قمت باختيار أحسن ما عندي من ملابس، واستعرت ربطة عنق (كرافته) من فاعل خير.

وفي صباح اليوم المحدد للمقابلة (الإنترفيو) جاءني صديق يقول إنه سمع بأن الاختيار لوظيفة السفارة وقع على شخص مسنود من قبل شخصية سياسية معروفة، فلعنت خاش الخواجات الذين انتقل إليهم فيروس المحاباة، وتوجهت مع ذاك الصديق الى سكن لبعض العزاب، فوجدنا نحو ثمانية أشخاص يجلسون في غرفة مغلقة الباب والنوافذ مشبعة بالبخور بدرجة تؤدي الى ضيق في التنفس، لأن رائحة البخور اختلطت مع رائحة التبغ الذي كان قسم منهم يدخنه بشراهة، وبعد نحو ساعة سألني أحدهم عن موعد الانترفيو في السفارة البريطانية فأخبرته بحكاية الشخص الذي فاز بالوظيفة بالواسطة، ولكن معظمهم قال إن ذلك أمر لا يُصدّق، وألحوا علي كي أذهب الى السفارة لإجراء الانترفيو، "وفي كل الأحوال لن تخسر شيئا بذهابك الى هناك"، وبما ان العودة الى بيتي لارتداء الملابس التي جهزتها للانترفيو كانت ستؤخرني عن الموعد المضروب لها، فقد استعرت قميصا وحذاء من شلة العزاب، وتوجه ثلاثة منهم معي الى السفارة كي يضمنوا أنني سأجري الانترفيو ولن "أزوغ" منه بسبب ما سمعته عن إسناد الوظيفة لشخص مسنود.

صعدت مبنى السفارة وجلست قبالة المستشار والملحق الثقافي ورددت على أسئلتهم بعفوية شديدة وأنا "على راحتي"، لأنني كنت في أعماق تجاويف قلبي وأمعائي مقتنعا بأن الانترفيو شكلي وان الوظيفة طارت سلفا .. وهكذا جلست أبادلهم القفشات والدعابات وفوجئت بانتهاء الانترفيو بالمستشار يقول لي: كنت صاحب أفضل نتيجة في الامتحان التحريري ونحن نعرض عليك الوظيفة وشروطها ومزاياها كذا وكذا،.. ولما سمعت رقم الراتب خرجت عيني اليسرى عن محجرها (يعني إحوليت يا رجالة)،

وخرجت من السفارة وأبلغت رفاقي أنني فزت بالوظيفة فصاروا يصيحون: يييهووو! وعدت الى بيت العزاب وأمضينا بضع ساعات في الضحك المتواصل.

بعد التحاقي بالعمل في السفارة بنحو اسبوعين سألني المستشار: ليه دمك تقيل بينما كنت خلال الانترفيو مرحا وصاحب دعابة.. أفشيت له السر: العزاب الذين وجدتهم جالسين في غرفة يملأها البخور.. كان منهم نحو أربعة يدخنون البنقو (يكتبها المصريون البانجو) وكان دور البخور "التغطية" على رائحة البنقو الكريهة، ولأن الغرفة كانت صغيرة ونوافذها مغلقة فقد انسطل ابو الجعافر بنظام التدخين السلبي passive smoking يعني شفطت الهواء الملوث بالبنقو.. عرفت هذه الحقيقة من قرناء السوء أولئك في نفس اليوم الذي انسطلت فيه لأنني أصبت بصداع فظيع بعد مجالستي لهم بساعات، وقالوا لي إنني إن انبساطي والضحك والتهريج الذي مارسته في ذلك اليوم كان فوق العادة بتأثير ذلك المخدر.. وتذكر أيها القارئ أنني لم أفز بتلك الوظيفة لأنني كنت مسطولا، بل لأنني كنت في كامل قواي العقلية عندما جلست للامتحان التحريري، ولو جلست للامتحان وأنا تحت تأثير الانسطال السلبي لأجبت على السؤال: ما هي اليونسكو؟ بأنها نوع من القهوة، وأن اليونايتد نيشنز United Nations فريق في الدوري الإنجليزي

طفرة طبقية أعقبها الطرد

التحقت بالسفارة البريطانية في الخرطوم كضابط إعلام/ مترجم، ولم يطلبوا مني أي شهادة أو مستند، وبعد التحاقي بالعمل، وجدت أنني سأحل محل العم أحمد النقر الذي بلغ سن التقاعد، وتقرر أن ألازمه لشهرين لتعلم "الصنعة" منه، ولكن حقيقة الأمر هي أن عم أحمد "عقدني" من الترجمة، فقد كان يطبع ما يترجمه فورا على الآلة الكاتبة، أي أنه لم يكن يترجم على الورق ليتولى الطباعة موظف تابع لقسم الترجمة والإعلام، كما كان يفعل معظم المترجمين، بل كان يترجم ويطبع بسرعة فائقة، ولم يكن عم أحمد يحمل درجة حامعية، لأنه لم تكن هناك جامعة في البلاد، في زمانه، ولكن البريطانيين كانوا يحتكمون إليه عند الشك في دقة مصطلح او مفردة ما، وكان رئيسي المباشر هو أحمد (أنور) توفيق، وكان رجلا أنيقا في كل شيء: في المظهر والعبارة والجوهر، ولأنه كان نوبيا مثلي فقد كنا (أنا وهو) نتخاطب بالنوبية معظم الوقت، خاصة إذا كان هناك بالقرب منا دبلوماسي بريطاني لا نريد له ان يفهم فحوى حديثنا، وكان جميع الدبلوماسيين في السفارة يتكلمون العربية بدرجة أو بأخرى

عشت العز في السفارة البريطانية: العطلة يومان في الأسبوع، والراتب؟ 100 جنيه، أي والله العظيم مائة جنيه كاملة، أي أكثر من ضعف الراتب الذي كنت أتقاضاه كمعلم لغة إنجليزية، وبسبب الطفرة الطبقية جمعت أصدقائي - وكان معظمهم من الكحيانين ماديا - ووزعت عليهم ملابس "عصر التدريس"، وبراتب شهر واحد اشتريت تشكيلة من الملابس "اللائقة" لأن طبيعة عملي كانت تحتم المشاركة في حفلات كثيرة يؤمها كبار القوم ورجال الإعلام، وكان الشق المتعلق بكوني "ضابط إعلام" يتطلب قيامي بإعداد نشرة صحفية يومية ألخص فيها الأخبار والتقارير المحلية المهمة التي تنشرها الصحف

السودانية، ليتم توزيعها على عدد من الجهات، وإعداد تقارير عن بريطانيا لتنشرها الصحف المحلية، وفي تلك الفترة كرهت الأميرة آن ابنة الملكة اليزابيث الثانية ملكة بريطانيا الحالية، فما مرّ يوم إلا وكان هناك تقرير عن قيامها بزيارة بلد ما او عن سقوطها من على ظهر حصان أو إصابة حصان لها بالبواسير.. وكان سر الاهتمام بها أنها كانت تتأهب لزيارة السودان.. سبحان الله بعدها بسنوات صارت آن تلك أخف أعضاء الأسرة الحاكمة في بريطانيا على قلبي لكونها تكره الأضواء وتتصرف بنضج ومسؤولية وتقوم بنشاط خيري في صمت

وكان أكبر مكسب خرجت به من عملي في السفارة البريطانية الإطلاع المنتظم على الصحف البريطانية، ومن فرط إعجابي بتلك الصحف صرت حجة حتى في الشؤون الداخلية في بريطانيا، والأهم من كل ذلك أنني فهمت معنى ومغزى ان تكون الصحافة حرة وصادقة وأمينة.. وعندما خضعت لإنترفيو للالتحاق ب"بي بي سي" بعدها بسنوات تعجب الخواجات في لجنة الانترفيو من إلمامي بمجريات الأمور في بريطانيا، بل وعندما كلموني عن الراتب الذي سأتقاضاه فاجأتهم بقولي إنه راتب بسيط ولكن الزيادة قادمة لأن نقابات الصحفيين في بي بي سي أمهلت "أمس" الإدارة ثلاثة أشهر لتحسين الرواتب وإلا فالإضراب عن العمل.. وتعجبوا لكوني كنت متابعا حتى للنشاط النقابي في بريطانيا، وما زلت الي يومنا هذا مدمنا للصحافة البريطانية، ومجلتي تايم ونيوزويك الأمريكيتين... يعني ما تزال العمالة للغرب تجري في دمي.

انتهت فترة عملي بالسفارة بالطرد.. طردوني لأن وزارة الخارجية رأت أنني شخص مشبوه بحكم أنني دخلت السجن كمعارض لحكم نميري، وكانت في هذا تفكر بعقلية: كل من يعارض حكومة صديقة فهو عدو لبريطانيا.. حاولت أسرة السفارة إقناع الخارجية بأن جعفر "ابن ناس" وأنه معارض محترف ولم يؤيد حتى الحكومات المنتخبة ديمقراطيا، ولكن الخارجية قالت: آوت يعني آوت.. وهكذا طلعت آوت، وعدت مدرسا للغة الإنجليزية في وزارة التربية والتعليم.. وكان ذلك من حسن حظي وطالعي فقد أدى فقداني لوظيفتي في السفارة الى حصولي على بعثة دراسية في بريطانيا

من التدريس الى التلفزة

بعد أن فقدت عملي في السفارة البريطانية في الخرطوم، صرت مدرسا للغة الإنجليزية في مدرسة الخرطوم بحري الثانوية الحكومية، وسعدت بذلك كثيرا لأن الخرطوم بحري هي أحب مدن عاصمتنا المثلثة إلى قلبي، ليس فقط لأنني ولدت فيها، ولكن لأن معظم أهلي وأصدقائي كانوا يقيمون فيها، ولأنها مدينة وادعة ليس فيها ضوضاء وصخب ضلعي المثلث الآخرين: الخرطوم أم درمان.. وكانت علاقتي بالطلاب أكثر من ممتازة، وكنت أشرف على عدد من الأنشطة اللاصفية (غير الأكاديمية)، وكان بالمدرسة مجموعة رائعة من المعلمين ما تزال علاقتي بمعظمهم مستمرة، وحتى بعد تركي التدريس بسنوات طويلة ظللت أزور المدرسة، للقاء عم عبد المجيد وقريبه عبد الله (وكانا فراشين بالمدرسة) وذات يوم تم استدعائي الى مكتب مدير المدرسة، وطلب مني الذهاب الى وزارة التربية لأنني مرشح لبعثة دراسية في بريطانيا، قلت للمدير، عبد الله

علي عبد الله: بلاش هزار.. فضحك وقال: المسائل دي ما فيها هزار وليس من الوارد أن أعفي مدرسا من جدول الحصص ليذهب الى الوزارة كنوع من الدعابة او "المقلب".
وذهبت الى الوزارة واكتشفت ان المسألة جد في جد، ولكنني ظللت متوجسا: كيف يرشحني أنا المدرس الشاب قليل الخبرة، أشخاص لا أعرفهم للذهاب الى بريطانيا بينما هناك مئات المدرسين الأكفاء والمسنودين؟ قالوا لي إنني سألتحق بإدارة التلفزيون التعليمي وأنني سأتوقف عن التدريس فورا وأتوجه الى مدينة ود مدني للتدرب في "تلفزيون الجزيرة".. آآآخ لو كانت إدارة ذلك التلفزيون قد سجلت كلمة "الجزيرة" باسمها!! كانت ستتوصل الى تسوية بالملايين مع قناة الجزيرة الفضائية التي أعمل بها حاليا نظير استخدام ذلك الاسم، وكنت سأخرج من الصفقة بعمولة طيبة ك"وسيط".
تجربة تلفزيون الجزيرة ينبغي ان تُدَرَّس لفرادتها، فقد كانت برامجها مخصصة للمزارعين في مشروع الجزيرة الزراعي، الذي كان عملاقا فتقزّم بفعل فاعل غير مستتر، وكانت في قرى المشروع "أندية مشاهدة" يشرف عليها عريف (مونيتر) يتم تدريبه لاستنباط تقييم برامج المحطة من المزارعين، وموافاة الإدارة بما يسمى بالتغذية الراجعة (فيدباك)، والأهم من كل ذلك ان برامجها لم تكن مرتجلة بل كانت تتم بموجب نصوص محكمة (سكريبت) تخضع للمناقشة الجماعية، وكان العاملون في تلك المحطة مرتبطين أيضا بالتلفزيون التعليمي.. نعم كانت بالمدارس الثانوية في العاصمة تلفزيونات يتلقى الطلاب من خلالها دروسا في اللغة الإنجليزية.. أين فرسان تلك الحقبة: عباس التوم ومحمد عثمان اسماعيل ومحمد علي وحسن كوكو وعبد العزيز محي الدين ومختار ويوسف والبوشي وسعاد وعبد المحمود
كانت لدينا مكاتب منفصلة في مبنى التلفزيون السوداني الرسمي، وكان يشرف على نظافة وترتيب تلك المكاتب عامل من غرب السودان اسمه حامد، ولأنه كان ذكيا ومحبا للاطلاع، فقد تناوبنا على تدريسه مختلف المواد حتى اجتاز امتحان الشهادة الثانوية بجدارة، وكان يستخدم مكاتبنا مهجعا له ليلاً، وفي ذات يوم كانت هناك محاولة انقلابية فاشلة، معظم قياداتها من غرب السودان وكان المشاركون في المحاولة يرتدون الملابس المدنية، واعتقل الجنود الموالون للرئيس نميري، أخانا حامد لأنهم حسبوه ضمن القوة التي حاولت الاستيلاء على الإذاعة والتلفزيون، وقادوه الى منطقة كان يتم فيها إعدام المتورطين في المحاولة بالجملة، ووجد حامد نفسه يقف على حافة خندق ضمن مجموعة من الرجال – حسب روايته لاحقا- والجنود يتأهبون لإطلاق النار عليه وفجأة جاء رقيب وأخرجه من طابور الإعدام.. لحسن حظ حامد كان الرقيب ممن حرسوا مداخل التلفزيون لعدة أشهر وسبق له أن رأى حامد عدة مرات وأدرك أن اعتقاله تم خلال الهوشة والهوجة وهكذا أنقذه من الموت.
الخروج من شرك "الاشتراكي"
تتصرف الأنظمة الديكتاتورية أحيانا بغباء، مرده سوء الظن بالمواطنين عامة، ولكون الدكتاتور يرخي أذنيه فقط لمن يقولون له نوع الكلام الذي يريد سماعه، وقد دخلت السجن في ظل حكومة جعفر نميري، وخرجت منه وعدت الى وظيفتي الحكومية

كمدرس في المرحلة الثانوية، ثم رشحتني وزارة التربية والتعليم "الحكومية" لدارسة الإنتاج البرامجي التلفزيوني في بريطانيا، وتم تحويل أوراقي إلى جهاز الأمن للحصول على عدم ممانعة على سفري الى لندن، ولم يعترض الجهاز، ولكن أوراقي ظلت معلقة في مكان ما حسب إفادة المسؤول عن استخراج تذاكر السفر في وزارة المالية، وبعد البحث والمتابعة اتضح ان أوراقي مركونة لدى "أمانة المهنيين" في الحزب الحاكم الذي شكله نميري (الاتحاد الاشتراكي)، وشأنه شأن التنظيمات المفبركة "من فوق"، كان الاتحاد الاشتراكي عبارة عن جهاز بيروقراطي ضخم به جيوش من الموظفين، ولم يكن واردا أن أدخل مبنى التنظيم حتى لو طارت البعثة الدراسية، ثم جاءني من يبلغني ان عز الدين السيد، وكان من قيادات الاتحاد الاشتراكي يريد مقابلتي، فأدركت على الفور أن هناك من أبلغه بأمر احتجاز أوراقي لدى الحزب الحاكم، وكانت علاقتي بعز الدين وما تزال جيدة لكونه رجلا ودودا حبوبا وذا مروءة، وصاحب أياد بيضاء على المئات من أبناء منطقتنا في شمال السودان وبلدتي وبلدته بدين بالتحديد، ورغم تباين مواقفنا السياسية كنت أكن له احتراما شديدا لأنه لم يكن من النوع الذي يقطع العلاقات الاجتماعية مع من يخالفونه الرأي والمواقف، وما زلت اعتبره نموذجا للشخصية العصامية، فقد بدأ حياته العملية مدرسا بالمراحل المتوسطة ثم شق طريقه في وزارة التربية بدأب، جعله يفوز ببعثات ودورات دراسية في الخارج، ولما قرر دخول المجال السياسي وترشح في الانتخابات البرلمانية اضطر إلى بيع سيارته الفولكس واجن بيتل (الخنفساء) الكحيانة أصلا لتمويل حملته الانتخابية، ثم أسس واحدة من أكبر شركات التأمين وإعادة التأمين في السودان وقادها من نجاح الى نجاح

المهم ذهبت الى عز الدين في مكتبه في الشركة، وسألني عن مصير سفرتي الى لندن فأخبرته بأمر الأوراق المحتجزة لدى "أمانة المهنيين" في الحزب الحاكم، فأمسك بسماعة الهاتف وقال لمن كان في الطرف الآخر: يا الرشيد.. هل في معارض يمكن يجي الخرطوم من لندن على دبابة ويقلب الحكومة؟.. ودار بينهما حوار قصير عن حكايتي، ختمه عز الدين بقوله: طيب كلم الجماعة يرسلوا الأوراق لمكتبي فورا.. وكان الرجل الذي على الطرف الآخر هو رئيس الوزراء الرشيد الطاهر الذي كان واضحا انه استهجن بدوره حرمان شخص ما من الدراسة في الخارج لكونه كان معتقلا سياسيا (دون ان يواجه تهمة أو إدانة).. لم يحدث كل ذلك لأنني شخص مهم ولكن لأن المجتمع عموما كان محكوما بمنظومة قيم لا تسمح بالتشفي والانتقام.. وما تزال فينا بعض خصال حميدة تجعل بعضنا يسمو فوق الخصومات السياسية.. ولعل قراء الصحف السودانية تابعوا مقالي الذي شرشحت فيه وزير الدفاع الحالي (على الأقل حتى كتابة هذه السطور) الفريق أول عبد الرحيم محمد حسين لأنه دعاني الى عقد قران ابنه بمسج على الموبايل.. وقلت في المقال انني وعبد الرحيم لا نتفق حتى حول كروية الأرض، وفي نفس اليوم الذي نشر فيه المقال التقيت بالوزير في مقابر فاروق في الخرطوم لدفن جثمان عزيز راحل، فأمسك بي من يدي وقادني الى حيث كان يقف الرئيس السوداني المشير عمر البشير الذي صاح مهللا: أهلا أبو الجعافر ود حلتنا (ابن حيّنا).. عفارم..

مسحت بقريبك الأرض .. وتبادلنا حديثا ضاحكا.. والشاهد هو ان البشير كان يعرف ما أعنيه بأنني لا أتفق مع وزير دفاعه حتى حول كروية الأرض، ومع هذا لم ير بأسا في التبسط في الحديث معي (ولا شك ان جماعة الأمن من حولنا كانوا مندهشين لأمر ذلك الشخص النكرة الذي يرفع التكليف مع الرئيس).. ذلك بعض من طبع شعبنا ارجو له ان يتعزز.

إنقلاب فاشل في توقيت خاطئ

تغلبت على كل العراقيل التي كانت تحول دون سفري الى بريطانيا لدراسة الإخراج والإنتاج البرامجي التلفزيوني، وتخلصت من 90% من ملابسي لأنها لم تكن "تليق" بلندن، وبدأت حفلات الوداع، وذهبت الى مدينة ود مدني لوداع زملائي في "تلفزيون الجزيرة الريفي" وأعددت العدة للعودة الى الخرطوم في عصر ذات يوم، عندما فوجئنا بالرائد أبو القاسم محمد إبراهيم، والرائد زين العابدين محمد احمد عبد القادر يقتحمان "المحطة" ويطالبان بتشغيلها فورا (كانت برامج محطة الجزيرة الريفية لساعات محدودة في المساء).. كان الرجلان من شركاء نميري في الانقلاب الذي أوصله الى الحكم، وكانا وقتها ما يزالان يشغلان مناصب حكومية رفيعة.. خير يا جماعة!! في شنو؟ قالوا إن هناك محاولة إنقلابية في الخرطوم وأنهما يريدان مخاطبة الشعب للوقوف خلف الحكومة، وقلنا لهما: على بال ما المحطة تسخن وتكون جاهزة للتشغيل يكون الانقلاب نجح او فشل.. وأن إرسال المحطة لا يصل الى الخرطوم مربط الفرس أو الحمار، فغادرا المحطة فورا

وبدوري توجهت الى الخرطوم فورا مع نفر من العاملين في قناة الجزيرة الريفية، الذين كانوا يريدون الاطمئنان على أحوال عائلاتهم في الخرطوم في ظل المحاولة الانقلابية التي كان قوامها مدنيون من أعضاء ما كان يسمى بالجبهة الوطنية، الذين انطلقوا من أثيوبيا وليبيا،.. ودخلنا الخرطوم وكان الرصاص يلعلع في معظم شوارعها،.. وبات واضحا ان أنصار نميري استردوا زمام المبادرة بعد ان فوجئوا في بادئ الأمر بسيطرة الانقلابيين على بعض المواقع.. تركنا المايكرو بص الخاص بالقناة أمام أحد المنازل في أطراف الخرطوم، وتقرر أن يدبر كل واحد منا أموره كي يصل الى أهله، ولا أذكر كيف تسنى لي عبور الكوبري من الخرطوم الى الخرطوم بحري، ولكني أذكر تماما أن دورية عسكرية أوقفتني على مقربة من محطة السكك الحديدية في الخرطوم بحري، وكانت قوات نميري قد حسمت المعارك لصالحها وفرضت حظر التجوال ولم أكن أعلم بذلك وشرحت لعساكر الدورية بكل أمانة عن رحلتي من ود مدني، فأخلوا سبيلي ونصحوني بتجنب الشوارع الرئيسية حتى لا أتعرض للاعتقال او ربما الضرب بالرصاص، لأن كل من شاركوا في المحاولة الانقلابية كانوا يرتدون ملابس مدنية.

في لحظات الخوف تنتاب الانسان نوبة "بجاحة".. قلت للضابط الذي كان ضمن الدورية إن بيتنا بعيد وأنني لا محالة سأعتقل أو سأقتل، فما كان منه إلا أن ضحك وقال: اركب، ثم أضاف ما معناه: الأمور جايطة ولا تعرف قيادتنا أين موقعنا، وعلى الأقل نكون عملنا عمل خير وسط الهوجة هذه... وأصلوني الى البيت

أدى فشل انقلاب الجبهة الوطنية الى مذابح بشعة، فقد استبسل الانقلابيون في القتال، ولو لم تخذلهم بعض قياداتهم ربما لما اندحروا، وجرت عمليات إعدام كثيرة بعضها جزافي وبلا محاكمات، ونقلت إذاعة بي بي سي أنباء المذابح فخرجت قيادات الحكومة في مظاهرات تهتف بسقوط بي بي سي (كيف تسقط إذاعة بالهتاف أو بغيره؟ الله أعلم).. ولكن المصيبة جات على دماغي، فقد صدرت بيانات عدائية من الحكومة تجاه بريطانيا، وتم تجميد الرحلات الجوية إليها، فراودني الشك بأن المحاولة الإنقلابية جرت لمنعي من السفر الى بريطانيا.. نعم كنت اتمنى سقوط حكومة نميري.. بس ده مش وقته.. يعني لو صبرتم حتى أسافر وبعدها قمتم بالمحاولة!! ولكن وبكل صدق سيظل عالقا بذاكرتي مشهد الأسد العميد محمد نور سعد وكاميرا التلفزيون تنقل صورته وهو محبوس في زنزانة.. فارع القوام ورابط الجأش بوجه يكسوه الغضب وليس الخوف، وبالتأكيد كان يتذكر من "خذلوه"، ويعرف أنه سيساق الى الموت.. وتأخر سفرنا الى لندن إلى ما بعد بدء الدورة الدراسية التي كان مقررا ان نلتحق بها.

طالما لندن بعيدة فليكن الزواج

كان قد تقرر ابتعاثي وخمسة آخرين لدراسة فنيات العمل التلفزيوني في لندن، ولاقيت شخصيا الكثير من العقبات وأنا استكمل إجراءات السفر، ولكن الطامة الكبرى كانت حدوث محاولة انقلابية قبل سفرنا بأيام قليلة، أدت إلى موجة عداء في الخرطوم تجاه بريطانيا لا لسبب سوى ان بي بي سي بثت تقارير عن عمليات قتل وإعدام جماعية، وهكذا تم تعليق الرحلات الجوية بين الخرطوم ولندن، ولم نعد نعرف متى وكيف نسافر، وكم كان ذلك محبطا: لندن عاصمة العروبة ومركز الدنيا بوصفها حاضنة خط غرينتش الذي هو خط الطول صفر الذي يُحسب الوقت في كل مكان في الدنيا قياسا عليه.. لندن بمسارحها ومتاحفها وبرلمانها العتيق.. كيف أصبحت بعيدة وقريبة المنال في آن؟

كنت وقتها قد خطبت فتاة وقطعت شوطا طيبا في الاستعداد لتوفير تكاليف الزواج. من باب الأمانة يجب ان أقول إنها من تولى مسؤولية توفير تلك التكاليف، ليس على نفقتها، بل بأن جعلتها مسؤولة عن إدارة شؤوني المالية، كانت لدي ثلاثة موارد مالية: الراتب الشهري من وزارة التربية ومكافأة شهرية من التلفزيون ودخل إضافي من التدريس في فصول إتحاد المعلمين المسائية، فصرت أسلمها شهريا مبلغا معينا لأنني كنت سبهلليا في الشؤون المالية ولا أعرف الادخار ولا أتعامل مع البنوك، وكان الاتفاق هو أن تصل المبالغ التي أسلمها إياها سقفا معينا فنستكمل اجراءات الزواج، ولما "تعكّست" سفرة لندن بسبب عقابيل الانقلاب الفاشل قررنا عقد القران، وبس.. يعني نتزوج شرعا ثم نواصل بعد الفاصل، أي نحدد تاريخا لاحقا للزفاف، وفي حفل عائلي جاء المأذون وكتب الكتاب وتناول الضيوف الطعام على عجل وبدأوا في الهرب الى بيوتهم، لأن حظر التجوال كان ساريا، لأن الحكومات العسكرية تفقد توازنها مع كل تحرك ضدها فتعاقب سكان العاصمة جميعا بشل حركتهم من مطلع كل مساء الى مطلع الفجر، وبعد انتهاء الحفل تحركت بسيارة صديق وأنا مدرك بأنني ك"عريس جديد" قد

أقضي ليلتي حبيسا في مركز للشرطة او الجيش،ولكن ربك ستر ولم تعترض طريقنا دورية إلى أن أوصلني صاحبي الى البيت

وظللت لعدة أيام أفكر في ما إذا كان قراري بالزواج سليما!! لم أفكر في الأمر من زاوية ما إذا كان اختياري للزوجة موفقا، بل من زاوية: هل أنا قادر على تحمل مسؤولية زوجة وعيال؟ ذلك أنني كنت أعرف أنني لا أصلح لدور الزوج التقليدي الذي يعود الى البيت عند انتهاء كل يوم عمل حاملا الصحف وبطيخة وكيسا به الجرجير والطماطم والبندول، وكانت لي علاقات اجتماعية واسعة وأساهم في الكثير من النشاطات الثقافية، ومسيسا بدرجة قد تعيدني الى السجن مجددا، وكان الزواج يعني إعادة رسم خريطة حياتي بحيث تصبح الزوجة هي مركز الدائرة وأن تكون تلك الدائرة صغيرة المحيط، حتى لا تستغرق العودة الى المركز وقتا طويلا.. المهم أنني مثل معظم الناس من الجنسين حديثي العهد بالزواج، ظللت لفترة طويلة لا أصدق أنني أصبحت "متزوجا"، وفي حالتي طالت تلك الفترة لأن المجتمع يرى أن الزواج الشرعي لا يكفي بل لابد من زفاف وزيطة وزمبليطة، وكان قد تقرر تأجيل تلك الأشياء إلى ما بعد عودتي من لندن، ولم يضايقني ذلك لأنني لم أكن أملك الموارد للمضي قدما في إجراءات الزواج، وسيعني السفر الى لندن أن يبقى راتبي الشهري كاملا في السودان، لأنني سأتقاضى نفقات الدراسة والإعاشة في لندن على حساب حكومة ألمانيا (الغربية) التي كانت من قدم لنا المنحة الدراسية في إطار الدعم الذي ظلت تقدمه للتلفزيون السوداني منذ إنشائه

فضيحة في هيثرو

وأخيرا فُرجت، ووجدنا أنفسنا في المطار: شخصي ومصطفى البوشي ويوسف جاد الله ومختار عثمان وسعاد، كان مختار دفعتي في كلية الآداب بجامعة الخرطوم، وتعرفت على الآخرين خلال فترة التدريب في تلفزيون الجزيرة الريفي، وكانت سعاد حديثة العهد بالزواج، وفي المطار أوصاني زوجها بأن "أأخذ بالي منها لأنها تخاف ركوب الطائرات"، فقلت له "ولا يهمك"، في حين أن الرد الأمين على ذلك الطلب كان ينبغي ان يكون: انت تستعين بعبد المعين الذي هو بحاجة الى من يعينه.. في القسم الأول من الرحلة الى لندن كانت فرحة السفر قد أنستني ولهتني عن الخوف الكامن في تجاويف قولوني من الطائرات، ثم أعلن الكابتن اننا سنهبط لفترة قصيرة في مطار فرانكفورت في ألمانيا، ومددت رأسي لأملأ عيني من تلك المدينة التي سمعت عنها كثيرا، عبر النافذة، فارتد إلى البصر خاسئا وامتلأت رعبا.. رأيت الطائرة تشق تلالا صخرية داكنة اللون، ورأيت أضواء تخطف البصر تشع من جناحي الطائرة التي بدأت تهتز وتعلو وتهبط كما شاحنة في طريق جبلي غير ممهد، وكان ما حسبته صخرا كتلا من السحاب المتجهم الذي يجعلك لا ترى أبعد من أرنبة أنفك، وأحسست بصعوبة في التنفس ثم انتبهت الى ان سعاد ممسكة بتلابيبي، كانت ترتعد ولسانها مشلول، قلت لها يا بنت الناس شدي حيلك فكل نفس ذائقة الموت ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.. لا إله إلا الله محمد رسول.. ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرضٍ سواها.. لا أجزم بأنني

نطقت بتلك الكلمات بصوت مسموع، ولكن من المؤكد أنها رأت أن خوفي أضعاف خوفها، فأرخت قبضتها على عنقي وصارت تتلو ما تيسر لها من الذكر الحكيم،.. ثم سمعنا أصواتا مرعبة وأيقنا أنها "النهاية": جيك... ززززيك... إيييك.. ثم خفضت الطائرة سرعتها وقررت إلقاء نظرة وداع على الدنيا وفوجئت بأننا على الأرض ومن حولنا مباني مطار فرانكشتاين المسمى زورا فرانكفورت.. وانفتح باب الطائرة وهبط منها بعض الركاب وسرت وراءهم إلى رأس سلم الهبوط فسألني مضيف ما إذا كانت تلك نهاية رحلتي، فأجبت بالنفي وقلت له إنني فقط أريد وضع رجلي على أرض ألمانيا حتى يتسنى لي الزعم بأنني زرت ألمانيا عندما أكتب ال"سي. في" لاحقا

ثم انطلقنا الى مطار هيثرو في لندن، وواجهنا عند الهبوط فيه نفس الأهوال: مطبات هوائية تقاذفت الطائرة وجعلتني أردد مجددا: ما دائم إلا الله. ولكننا هبطنا بسلام، دون أن نكون مستعدين للتعامل مع أهوال القرن العشرين في المطار، وكان أولها السلم الكهربائي،.. فشلنا في العثور على وسيلة غيره تقودنا الى حيث نقاط الجوازات والأمتعة وبوابات الخروج.. وتوكلنا على الله ووضعنا أرجلنا على العتبة الأولى من السلم.. كانت مشكلتي ان صديقا لي كلفني بتوصيل كيس به منقة هندية (منقه هو الإسم هندي الأصلي لهذه الفاكهة ولكن معظم العرب يأخذ بالتسمية الإفرنجية "مانجو") إلى شخص في لندن، وكنت ممسكا بالكيس بيدي اليسرى وبحافة السلم بيدي اليمنى ولكنني فشلت في الاحتفاظ بتوازن جسمي، ولسوء حظي كانت أمامي مباشرة سيدة سودانية ضخمة الجثة صار الثوب الفضفاض الذي تلف بها جسمه يطير ويغطي وجهي، فقد كانت بدورها تتأرجح، ثم أوشكت على السقوط على ظهري وبكل قلة حياء مددت يدي اليسرى مستنجدا بتلك السيدة فانفلت الكيس الذي به المنقة (المانجو) وفجأة وجدت نفسي وتلك السيدة نشكل كومة على أعلى السلم الذي انبعثت منه رائحة عصير المنقة الشهي، وصدرت عن السلم الكهربائي شهقة ثم شخر ثم توقف عن العمل.. وبكل براءة تسللت مبتعدا عن السلم وأنا موقن بأنه سيتم تحميلي تكاليف صيانة السلم الذي "ضربت" أسلاكه بعد ان تشبعت بعصير المنقة

الصومالي الذي أخرجنا من ورطة

كنا خمسة سودانيين مبتعثين إلى لندن لدراسة إعداد وإنتاج البرامج التلفزيونية، وعند وصولنا الى مطار هيثرو كانت الدراسة قد بدأت، لأن مجموعتنا تأخرت في الوصول الى لندن بسبب محاولة إنقلابية استهدفت حكومة المشير جعفر نميري، وأدت الى أزمة بين الخرطوم ولندن، وخرجنا من المطار ونحن لا نعرف "منين يودي على فين"، فما كنا نعرف موقع المكان الذي سنتلقى فيه الدراسة، ولم يكن هناك أحد في استقبالنا، وبالتالي لم نكن نعرف اين سنقيم.. فكان ان قررنا التوكل على الله والبحث عن فندق يؤوي خمستنا، ولكن كيف؟ لم تكن هناك سيارة تاكسي تتسع لخمسة ركاب مع أمتعتهم، وكنا حريصين على التحرك والإقامة سويا، وكنا جميعا نسيء الظن بالخواجات وبالتالي ما كان واردا ان نتحرك بسيارتي تاكسي منفصلتين خاصة ونحن لا نعرف ما هي وجهتنا، وفجأة وقف أمامنا رجل أسمر نحيف وسألنا ما إذا كنا بحاجة الى وسيلة نقل،

ثم قال لنا إن لديه "فان" تتسع لنا جميعا، وأنه سيساعدنا على العثور على فندق "على قد حالنا"، ولما رأى الشك في عيوننا من نواياه، قال لنا إنه صومالي فانفرجت أساريرنا، وركبنا سيارته وانطلق بنا الى وسط لندن ودخلنا منطقة بادينغتون، فصار يتوقف ويدخل كل فندق على الطريق ثم يخرج إما لأن الأسعار مرتفعة، و إما لعدم وجود غرف كافية.. للأمانة يجب ان أقول إننا كنا نبحث عن غرفتين فقط: واحدة تضمنا نحن الأربعة شبان وخامسة لزميلتنا سعاد، من باب ترشيد الإنفاق.. وأخيرا عثر على فندق بالمواصفات التي نريدها وأنزل أمتعتنا وتقاضى منا مبلغا اكتشفنا لاحقا أنه أقل من رمزي.. لهذا يقال ان الجنس على الجنس رحمة.. في عام 2007 كنت متوجها مع عائلتي من لندن إلى غلاسغو في اسكتلندا بالقطار، وفي محطة كنقز كروس، لم يوضع رقم قطارنا على اللوحة رغم أن موعد المغادرة صار وشيكا، وتوجهت إلى عامل بالمحطة آسيوي الملامح وسألته عن الرصيف الذي يقف عليه قطارنا، فأتى بعربة كهربائية رفع عليها أمتعتنا وركبنا معه فتوقف بنا أمام عربة الدرجة الأولى في القطار، فقلت له إن تذاكرنا على الدرجة العادية، ولكنه واصل رفع الأمتعة ثم طلب مني وأفراد عائلتي الصعود وقال: هذه عربة أضيفت للقطار في آخر لحظة وليست عليها حجوزات وستبقون فيها بمفردكم طوال الرحلة بل لن يمر عليكم مفتش التذاكر، ولأنني وبحكم التجارب كنت أعرف أن العاملين في محطات القطارات والمطارات يتوقعون منك البقشيش نظير أي خدمة يقدمونها لك، فقد أدخلت يدي في جيبي ولكنه نظر إلى بغضب وقال: دونت دو ذات براذر.. لا تفعل ذلك يا أخي.. أنا مسلم كيني من أصل هندي واسمي عبد..... ويسعدني أن أقدم خدمة لعائلة مسلمة

بعد تجربة أول زيارة للندن للدراسة، زرت العديد من البلدان في الشرق والغرب، واكتشفت أنه ويعكس ما يتخيل الكثيرون فإن الإنسان يزداد تمسكا واعتدادا بأصله ودينه كلما كان غريبا في بلد ما،.. الذين تجرفهم الثقافات والسلوكيات الأجنبية قلة قليلة،.. فمثلا رغم أنني أردد كثيرا أنني عربي بالتجنس والاستنساخ القهري، إلا أنني أؤكد انتمائي لكل عربي وكل ما هو عربي عندما أكون في بلد غربي او آسيوي خارج منطقة الشرق الأوسط.. والروابط بين المسلمين في المهاجر لا تعترف بالجنسيات أو اللون او العرق.. وعندما حتمت الظروف ان تنتقل عائلتي للعيش معي في لندن في عام 1994، كان جاري مسلما من تنزانيا، وكرس الساعات الطوال لمساعدتي في تسجيل عيالي في المدارس ثم شراء وترخيص سيارة.. وخلال أول زيارة لي الى لندن للدارسة وعندما عانينا من مشكلة الطعام لخوفنا من لحم الخنزير عرفنا مجددا كيف ان الجنس على الجنس رحمة، من مصريين في منطقة فينسبوري بارك، فقد كانوا يديرون مطعما لدجاج كنتاكي الذي كان بالنسبة لنا أهم اكتشاف في لندن، وصرنا زبائن دائمين فيه، لأنهم لم يكونوا يعطوننا سوى القطع الممتلئة لحما.. صدور وأفخاذ وفي أحيان كثيرة قطعة أو قطعتين "بونص" فوق البيعة، وذات مساء دخلت عليهم وهم يصدد الإغلاق فأعطوني نحو عشر قطع دجاج مجانا لأن المحل - حسب قولهم - يرمي الدجاج المطبوخ غير

المباع بنهاية كل يوم عمل فعملت الزيارة المتأخرة للمحل "شغلانة" ونعمت بوجبات مجانية كثيرة.

السيدة الوقحة والحمامات الفاضحة

قضينا ليلتنا الأولى في فندق، واستيقظنا مبكرين للبحث عن موقع المعهد الذي سنتعلم فيه فنون العمل التلفزيوني، وكان معنا رقم هاتف المعهد، فاستخدمنا هاتفا عموميا يعمل بالقطع المعدنية، وتوليت أنا الاتصال، ورد علي صوت نسائي بادرته بالتحية، ولكنها لم ترد على التحية وواصلت الثرثرة، وكتمت غيظي إلى ان توقفت عن الحديث، وقلت لها إننا المجموعة السودانية المقرر التحاقها بالمعهد .... ولكنها لم تجعلني أكمل بل قاطعتني وصارت تتفوه بكلام لا أفهمه، فقاطعتها بدوري غاضبا: اسمعي يا ست انت.. نحن لا نعرف موقع المعهد... ولكنها واصلت الكلام ولم تتوقف لسماع ما أقوله.. وما أن صمتت حتى عاودت شرح موقفنا لها، ولكنها قاطعتني مجددا ففقدت القدرة على الكلام من فرط الغضب.. فصمتت برهة ثم واصلت الكلام، وأصغيت.. فإذا بها تردد بعد كل فترة صمت ان المعهد مغلق لأن "اليوم هو السبت" ثم تحدد ساعات العمل.. أصبحت مثل السمسمة من فرط الخجل، بعد ان أدركت انني كنت استمع الى تسجيل صوتي، وأنه فات علينا ان العطلة الأسبوعية في بريطانيا يوما السبت والأحد.. وقد ذهبت الى بريطانيا وأنا مدرك أنني أجيد الإنجليزية، ولكنني اكتشفت ان "إنجليزي لندن" حاجة تانية خالص.. مثلا في لندن عندهم حساسية مع حرف الإتش، وبالتالي لا ينطقون "الهاء" في معظم الكلمات ودرسونا في المدرسة ان "يدي" بالإنجليزية هي "ماي هاند" ولكنها في لندن تصبح "مي آند" والزبادي في إنجليزي المدارس "يوقرْت" ولكنه في لندن "يوقا" ولأنهم لا ينطقون الراء في معظم أواخر الكلمات فقد صار اسمي في لندن "جافا" وهي التسمية الإنجليزية لمدينة يافا الفلسطينية (سابقا!!)، وبما ان متاجر لندن كانت ممتلئة بعصائر وبسكويت جافا (يافا) فقد صار اسمي موضع تندر

وبعد ان تمكنا من الوصول الى المعهد في ثالث يوم لوصولنا الى لندن، سارت أمورنا بسلاسة، وتم نقلنا من الفندق الى "بيت الشباب الكاثوليكي" في منطقة فينسبوري بارك، بالقرب من محطة مانر هاوس لقطار الأنفاق على خط البيكاديللي، في موقع قريب من نادي آرسنال الرياضي، وصرنا أنا ويوسف جاد الله في غرفة ومختار عثمان ومصطفى البوشي في غرفة أخرى، بينما تم إسكان زميلتنا سعاد مع عائلة سوداء في منطقة قريبة منا، وكعادتنا فكرنا في الاستحمام في مساء يومنا الأول هناك، ونزلنا أنا ويوسف الى حيث الحمامات تحت سطح الأرض، وكدنا نسقط هلعا لهول ما رأينا: شباب بيض وسود وصفر يستحمون في حمامات متقابلة بلا أبواب، ومن ينتظرون الدور يقفون عراة يتجاذبون الحديث وعلى أكتافهم بشاكير (فوط) الاستحمام.. طيب يا أولاد ال.... فيها إيه لو لففتم البشاكير حول خصوركم لتغطوا عوراتكم.. تقهقرنا مذعورين وأعدنا المحاولة صباح اليوم التالي، ولكن الوضع كان سيم سيم من حيث قلة الحياء و"انكشاف الحال".. أظن أنني لم استحم لنحو عشرة أيام، وكانت مجموعتنا قد أدمنت دجاج كنتاكي لأن الدجاج والسمك وحدهما كانا بعيدين عن شبهة الانتماء لفصيلة الخنازير، وذات يوم وأنا

متوجه الى محل كنتاكي الذي كان يديره مصريون "يتوصون" بنا ويعطوننا القطع الكبيرة، وأحيانا يطعموننا بلا مقابل، سمعت الأغنية التي يبدو أنها كانت رائجة في ذلك الزمان ولم أكن قد سمعت بها: الطشت قال لي/ يا حلوة يللي/ قومي استحمي/ حلفت ما استحماش يا.... ولأن الحرامي على رأسه ريشة أو بطحة ولأن المريب يكاد أن يقول خذوني، فقد حسبت ان المصريين "أولاد الذين" علموا بأمر عدم استحمامي لأيام طوال وشغلوا تلك الأغنية للتريقة علي

ولم نمارس الاستحمام طوال فترة بقائنا في بيت الشباب الكاثوليكي إلا في نحو الثالثة فجرا والخلق نيام، ولكن "للضمان" بالمايوه.. وفوق كل هذا كنا نفتح صنابير المياه الساخنة في الحمامات التي من حولنا حتى تتشكل طبقة من الضباب الكثيف تجعل الرؤية متعذرة حتى وأبواب الحمامات مفتوحة، أو بالأحرى بلا أبواب أصلا.

أيام العز في لندن

كان العام الدراسي الذي قضيته في لندن (1976-77)، من أمتع فترات حياتي، فقد كان الأمر يتعلق بتفانين العمل التلفزيوني، والهوم ويرك أي الواجب المنزلي يكون غالبا مشاهدة برامج تلفزيونية معينة لمناقشة محتواها وتقنياتها في اليوم التالي، وكنا طلاب من دول مختلفة: هولندا والبرازيل وايران والسعودية وكينيا وفولتا العليا (التي صار اسمها لاحقا بوركينا فاسو)، ولكن السودانيين كانوا يشكلون أكبر مجموعة بين الدارسين، واكتسبوا بين المدرسين والمعلمين في المعهد سمعة طيبة كطلاب منضبطين وجادين، وبالتالي كان تقليدا ثابتا فيه أن يلقي كلمة الخريجين بنهاية كل عام دراسي، أمام "وزير التنمية في ما وراء البحار" البريطاني طالب سوداني.. كان غريبا ان استمتع بالدراسة لأنني كنت قد قررت فور تخرجي في الجامعة أنني نلت كفايتي من التعليم، وذات عام خضت تجربة الامتحانات والمعاينات للفوز بوظيفة سكرتير ثالث في وزارة الخارجية، وتم قبولي، ولكن ما أن أبلغوني بأنه يتعين علي الالتحاق بمعهد التنمية الإدارية لستة أشهر لدراسة الإدارة واللغة الفرنسية حتى قلت: ما بدهاش.. خلَّصت حصتي و"كوتتي" من القراءة، ولست مستعدا لخوض تجربة الدراسة والامتحانات مجددا، وتركت وزارة الخارجية قبل أن ألتحق بها

كانت متعة لا تعادلها متعة مشاهدة برامج تلفزيون بي بي سي وآي تي في،.. نشرات أخبار ذات صدقية عالية وبرامج حوارية يلعن فيها المتحاورون خاش الحكومة بقلب جامد، وكان الرئيس السوداني جعفر نميري وقتها يقدم بنفسه برنامجا شهريا اسمه "بين الشعب والقائد"، ولم تكن للبرنامج مدة معلومة: قد يستمر ساعتين وقد يستمر أربع ساعات، وكان التصور الأصلي للبرنامج ان يتلقى فيه شكاوى ووجهات نظر الجمهور حول مختلف القضايا، وفي تقديري فإنه لم يكن ليمانع في تلقي مكالمات تنتقده او حتى تشتمه، فقد كان صاحب شخصية انفعالية ولا يتردد في رد الصاع صاعين لمنتقديه في المنابر العامة، وبعنف وحدة أحيانا، ولكن شلة المنافقين كانت ترتب مكالمات كلها بكش ومدح وثناء أو استفهامية "بريئة"، وعلى مرِّ تاريخه منذ بدء إرساله في مطلع ستينات القرن الماضي ظلت نشرات الأخبار في التلفزيون السوداني تفتقر الى الموضوعية

والمصداقية لكونها مثل سائر محطات التلفزة العربية تخضع لتوجيهات "الحاكم بأمره"، ويبدو ان الرئيس الفنزويلي الحالي هوغو شافيز سمع بتجربة نميري التلفزيونية، فصار يقدم برنامجا يوميا يبرطم فيه على كيفه ومزاجه آمنا مطمئنا بعدما أسكت جميع محطات البث الإذاعي والتلفزيوني المستقلة

وكانت مجموعتنا في لندن مرفهة من الناحية المادية، فقد كنا نتقاضى رواتب أسبوعية عالية على نفقة حكومة ألمانيا الغربية التي قدمت لنا المنح الدراسية، وفوق ذلك كنا رتبنا لتحويل قسم من رواتبنا في السودان الى لندن، وكان الجنيه السوداني يساوي وقتها قرابة جنيهين إسترلينيين، ولم يكن الجنيه السوداني وحده هو الذي يرفع الرأس، بل كان كوننا نحمل شهادات من جامعات سودانية يجعلنا موضع احترام البريطانيين العاملين في المجال الأكاديمي،.. ذلك زمان كان فيه خريج جامعة الخرطوم يقدم أوراقه لجامعات مثل كيمبردج وأوكسفورد للدراسات العليا فيتم قبوله بالمزيكة، وكنا أثناء الدراسة هناك نتناول وجباتنا بترتيب خاص في مطعم يتبع لجامعة لندن، التي كان بها عدد من القانونيين السودانيين خريجي جامعة الخرطوم، كدارسين ومحاضرين وكانوا بفئتيهم يحظون بتقدير الطلاب والأساتذة.. وفي يومنا هذا وفي ظل التصنيف الحالي للجامعات العربية عموما فإن حامل البكالريوس منها يعامل في بريطانيا كحامل فيروس إنفلونزا الخنازير.

أبو الجعافر كفيل الخواجة اليهودي

طبعا كان أصدقاء السوء يتوقعون منا ان نعود من لندن ومعنا ملفات ضخمة عن غزواتنا العاطفية، فقد كان من الشائع وقتها – وما زال بعض الأفارقة والعرب يعتقدون – أن بنات الخواجات على الهبشة، والواحدة منهن "ما تصدق" تلقى إشارة أو غمزة من زائر غريب، حتى تفقد صوابها وثيابها وتتبعه كظله: شبيك لبيك، كرستينا بين يديك، أنا الدجاجة وأنت الديك!! لم نصادف هذا الصنف من البنات ولم نسع لمصادفته فقد كنا مبهورين بكل شيء في لندن.. وطفنا بحدائقها ومتاحفها وميادينها التاريخية.. ووجدت بين اخوتي السود في جنوب لندن نشاطا سياسيا مخلصا وصادقا لتعرية نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وكانت حكومة بريتوريا العنصرية قد قتلت المناضل الأسود الشاب ستيف بيكو في ضاحية سويتو في جوهانسبيرغ، وعمت معظم عواصم العالم مظاهرات غاضبة تطالب باسقاط النظام العنصري في جنوب أفريقيا، ووجدت نفسي منغمسا مع البريطانيين السود في التعبئة العامة ضد ذلك النظام، وأوصلتني الى ذلك مساعدة مدرس بالمعهد الذي كنا ندرس به فنون العمل التلفزيوني، كانت جوان دُران ذات تركيبة عجيبة فقد ولدت في كوبا، وقضت شطرا من عمرها في الولايات المتحدة ثم إسبانيا وكان أبوها مقاتلا في صفوف الجمهوريين خلال الحرب الأهلية في إسبانيا ضد عصبة الدكتاتور فرانكو، وكانت شديدة الحماس لقضايا التحرر في العالم الثالث، وزرنا والدتها ذات مرة في كيمبردج، وكانت مقعدة تستخدم كرسيا متحركا، ووجدناها "ثورية" تعرف كل كبيرة وصغيرة عن التحولات في افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ولديها صلات بالحركات الثورية في تلك القارات

ذات مرة قررت تصوير لقطات تتعلق بدراستي في منطقة بريكستون في جنوب لندن، وكان مهندس الصوت في المعهد بريطانيا يهوديا، وأبدى رغبته في الذهاب معي الى تلك المنطقة التي يخيل إليك أنها في الكونغو لكثرة عدد السود فيها، ولم تكن هناك وقتها حساسيات شديدة بين السود والبيض في بريطانيا، ولكن كان الحذر واجبا من جانب البيض عندما يدخلون مناطق معظم سكانها من السود، فاصطحبته وذهبنا الى مركز ثقافي للسود، كنت أعرف القائمين على أمره وقلت لهم: هذا الرجل أبيض ويهودي.. إما أن يهتف بسقوط إسرائيل هنا أو يكون لنا معه "تصرف آخر".. ضحك أصدقائي وأحس اليهودي بالحرج ولكنه استجمع شجاعته وقال: لن أهتف بسقوط اسرائيل هنا لأنني مرفوض من قبل التجمعات اليهودية في لندن، لأنني لا أعترف أصلا بحق اليهود في إقامة دولة اسرائيل على أرض فلسطين"، وكنت أعرف أنه صادق.. وكنت أعرف سلفا أنه يهودي "قِشرة" كما نقول في السودان عن الشخص ضعيف الانتماء الى شيء ما.. يهودي بحكم المولد، ومتعاطف مع الفلسطينيين وكل الشعوب المقهورة

وكان هناك اثنان من اساتذتنا: مايكل باريت وجون كلهار، عاشقين لأفريقيا بحكم أنهما عملا طويلا في دولها، وكان كلهار "صائعا" من الدرجة الأولى.. ضارب الدنيا صرمة كما يقول المصريون، ودعاني ذات يوم لتناول الغداء على نفقته وقادني الى مطعم بائس الأثاث وفقير الإضاءة، من النوع الذي تراه في أفلام الرعب، وبكل بجاحة قلت له إنني جئت من السودان هربا من المطاعم الركيكة، وإنني لست متخلفا بحيث أتناول طعاما في مطعم قذر كذاك، فكان رده أنه عندما ذهب الى زامبيا لأول مرة أصيب باضطرابات هضمية كادت ان تقتله، وشيئا فشيئا اعتاد على أكل الطعام حيثما اتفق وشرب الماء من نهر زمبيزي مباشرة، وأنه وبعد ان عاد الى بريطانيا صار يعاني من حساسية من "الأكل النظيف المفلتر".. ونصحني: لا تدلع بطنك.. ولا يغرك منظر الأكل في المطاعم الراقية.. خليك في المطاعم الشعبية وستعقد بطنك هدنة مع الجراثيم والباكتيريا.. وتصبح صحتك حديد!

ووقعنا في المحظور والحرام

تحدثت عن الورطة التي وقعنا فيها لأن الحمامات في بيت الشباب الكاثوليكي الذي وفروا لنا سكنا رخيصا فيه كانت بلا أبواب، ولأن المقيمين في ذلك البيت من الطلاب من مختلف القارات كانوا عديمي الأدب وقليلي الحياء، فلم يكونوا فقط يستحمون وهم يتسامرون بل كان بعضهم يتوجه وهو عارٍ تماما، من الطابق الثاني (مثلا) الى الحمامات التي كانت في الطابق تحت الأرضي، ثم واجهنا مشكلة "كيفية تفادي لحم الخنزير" ووجدنا الخلاص المؤقت في الكورن فليكس، وحتى البيض قلنا بلاش منه، لأن هناك من قال إن بعض الخنازير تبيض ولا تلد.. ثم فرجها علينا صاحب الفرج باكتشاف محل لدجاج كنتاكي في سوق فينسبوري بارك، وكان جميع العاملين فيه من المصريين (وبالمناسبة فإن هناك علاقة مريبة بين المصريين ومحلات دجاج كنتاكي فحتى في ماليزيا وواشنطن وجدت نصف العاملين في تلك المحلات هناك من المصريين).. وكانوا يعطوننا قطعا من الحجم الكبير، وفوقها قطعا إضافية، وبعد ان

ذقت دجاج كنتاكي في لندن لأول مرة، بت مقتنعا بأنه لا يوجد على ظهر الأرض طعام أطيب منه، وكانت من ثم فرحتنا باكتشاف ذلك المحل لا توصف، فأكل الدجاج كان في تلك الأيام وقفا على القطط السمان من البشر، بيوتنا لم تكن تعرف لحم الدجاج إلا عند عودة مسافر أو للعريس في أيام الزفاف الأولى أو المريض المشرف على الهلاك.. استغفر الله.. كانت والدتي تذبح لنا الدجاج أحيانا، ولكن لحمه لم يكن ينضج على النار ما لم يتم ضربه وهو نيئ بيد الهاون، حتى يصبح طريا الى حد ما، وبعدها يوضع على النار مع طن من الكربونات، والسر في ذلك ان والدتي وغيرها من النساء لم يكنّ يذبحن أي دجاجة إلا بعد ان ينقطع عنها الطمث وتتوقف عن التبييض، أو لإصابتها بإعاقة بسبب عامل السن

ولكن ابن آدم "مفتري"، فاليوم ما من شيء أثقل على نفسي أكثر من لحم الدجاج، بل صار أكل لحم الدجاج يسبب لي نفس الضيق الذي تسببه لي صورة فاروق الفيشاوي. أذكر أن شقيقي محجوب كان – أثناء إقامتنا سويا في الخرطوم بحري - يقترح علي أحيانا شراء دجاجة من الشواية، على أن نأكلها في نفس "المحل"، ولكن كان ذلك زمان يعتبر فيه الأكل في الشارع العام "عيب"، وكنت ألح عليه ان نحمل الدجاجة المشوية معنا الى البيت، فيقول: حتشوف.. أول من ندخل البيت.. كل قرايبنا واصدقاءنا حيشموا ريحة الدجاج ويقتحموا البيت، ولو طلعت بجناح أكون محظوظ.. ومرة تلو الأخرى صدقت تكهناته.. نحمل معنا دجاجة مشوية أو محمرة فنجد بضعة ضيوف في البيت فيهمهم محجوب "دي مش حاسة شم، دي حاسة سادسة"!!

وكما يقولون فإن الحذر لا يمنع القدر، فقد حرصنا أشد الحرص على تفادي تناول أي شيء فيه شبهة الانتماء الى جنس الخنازير، وكان المعهد الذي ندرس به قد رتب لنا دخول مطعمين أحدهما تابع لجامعة لندن والآخر يتبع لوزارة الدفاع، وقال لنا أحدهم أن مطعم وزارة الدفاع يقدم سجقا بقريا شهيا، فصرنا نتناول ذلك السجق عدة مرات اسبوعيا، وذات يوم سألني طباخ أسود في المطعم: آر يو مسلم براذر؟ أجبته: نعم مسلم ونص يا أخي، فسألني مجددا: ولماذا تأكل السجق هنا؟ فسألته بدوري: ولم لا؟ فأجاب: لأنه ليس فقط من لحم الخنزير بل ان اللون الأحمر الذي يميزه يعزى لوجود كميات من دم الخنزير فيه.. الله يخرب بيت وزارة الدفاع وكمان وزارة البتاع.. هل يستطيع الانسان الاستفراغ بأثر رجعي؟.. انسدت نفسي من الطعام طوال نحو اسبوع .. حتى اللبن صار يسبب لي القرف: ما الذي يمنع الخواجات الملاعين من تعليب وبيع لبن الخنازير؟

فضيحة وشتائم مستحقة

كان الجو العام في بيت الشباب الكاثوليكي الذي أقمنا فيه خلال الفترة الأولى من التحاقنا بمعهد وسائط الإعلام التابع للمجلس الثقافي البريطاني، كان جوا مريحا وبهيجا، فقد كان به طلاب من نحو ثلاثين دولة مختلفة يعيشون في تجانس وانسجام، وكان كثيرون مثلنا نحن المجموعة السودانية لا علاقة لهم بالكاثوليكية (وهي على كل حال مذهب مسيحي قليل الأتباع في بريطانيا التي تمردت كنيستها على الفاتيكان قبل قرون وصارت تسمى بالكنيسة الأنقليكانية.. نعم تُنطق "أنقلكانية" بالقاف العامية او اليمنية وليس بالجيم) وكنا

نحن السودانيين كما أسلفت مرفهين مقارنة بطلاب العديد من الدول فقد كانت منحنا المالية عالية، وكنا نشرب الشاي الطازج فيأتي طلاب غلابة ويستخدمون أكياس الشاي التي نتخلص منها لإعداد الشاي لأنفسهم، وكانت بالمقهى الذي كان يديره رجل صيني ماكينات قمار بأذرع slot machines تضع قطعة معدنية وتسحب الذراع إلى أسفل وأنت وحظك.. فإذا ظهرت ثلاث صور متطابقة تكون قد أصبت الجاكبوت أي الجائزة الكبرى وتفوز بمبلغ كبير، وطبعا تلك الماكينات "محسوبة" بحيث تشفط كميات كبيرة من أموال المقامرين، وتعطي جوائز صغيرة بالقطارة و"عيش يا حمار" إلى ان يحرز أحدهم الجاكبوت.. وتعرفنا هناك على جزائري اسمه حسن يحمل الجنسية الفرنسية، ولا يعرف من العربية سوى "السلام عليكم"، وحتى هذه العبارة كانت تخرج من فمه "السأم أليكم".. كان حسن كثيرا ما يفوز بالجائزة الكبرى مع تلك الماكينات وسألته عن السر، فقال إنه يستخدم نظرية الاحتمالات: يجلس يراقب اللاعب تلو الآخر وهم يخسرون أو يفوزون بمبالغ بسيطة وفي لحظة معينة يرى أن ضمير الماكينة سيستيقظ بعد ان "مسّختها" بسحب نقود الطلاب الغلابة، ثم تلفظ الجائزة الكبرى، وانتبه الصيني إلى أن حسن الجزائري سيخرب بيته فمنعه من اللعب، فصار حسن يجلس بعيدا عن الماكينة ولما يحس بأن ضميرها سيستيقظ يستأجر طالبا مسكينا ليلعب نيابة عنه نظير مكافأة.. واضطر الصيني الى سحب الماكينات نهائيا من الكافتيريا لأن حسن كان ينشف ريقها في معظم الأمسيات

بعد وصولنا الى بريطانيا كان أكبر همنا شراء ملابس "لائقة".. شخصيا لم أحمل معي من السودان سوى بنطلونين وثلاثة قمصان، وخلال الأسبوع الأول من وصولنا الى لندن عاد أحد زملائنا من جولة تسوق في المنطقة، وقال إنه عثر على متجر يبيع الملابس "ببلاش تقريبا"، فحمل كل واحد منا كمية من الاسترليني وتوجهنا معه الى المتجر، وفوجئنا بتشكيلة مذهلة من القمصان والبنطلونات والجاكيتات بأسعار أقل من رمزية: الجاكيت بثلاثة جنيهات وبنطلون الصوف بجنيه ونصف الجنيه والقميص بجنيه واحد،.. كنا أربعة.. وطفقنا نتخاطف قطع الملابس ونكومها فوق أذرعنا ونضعها أمام صاحب المحل ثم نعود لنأخذ المزيد، وفي خاتمة المطاف كان لكل واحد منا تل من الملابس ووقفنا ننتظر قيام صاحب المتجر بحساب الأسعار لكل كوم، ولكنه نطق بكلمة واحدة: ريسيتس!! قلنا له: وات: قال: ريسيتس.. شرحنا له أننا لم ندفع بعد ثمن الملابس التي قررنا شراءها، وان عليه هو ان يعطينا الريسيتس التي هي الإيصالات.. أغمض الرجل عينيه لنحو دقيقتين ثم صاح: وات؟ يو باي وات؟ تشترون ماذا؟ قلنا له أننا ن"باي" الملابس، فأغمض عينيه مرة أخرى وخمنت من التعابير التي على وجهه انه كان "يلعن إبليس".. حاول ان يتحلى بالهدوء وسألنا: هل هذه الملابس تخصكم؟ لم نفهم السؤال، وشرحنا له اننا نريد شراءها،.. تحدثت معه قدر استطاعتي بإنجليزية لندن ال"كوكني"، لأنني حسبته جاهلا لا يفهم الإنجليزية الفصيحة التي كنا نتكلمها.. وبدلا من ان يلعن إبليس استعان الرجل بإبليس الذي زوده بذخيرة ضخمة من الشتائم البذيئة.. شتائم لو سمعها لبناني لسد أذنيه بحجر

بصراحة كان معه حق، فقد كان محلا للغسيل الجاف، وكانت المبالغ المثبتة على كل قطعة هي كلفة/فاتورة الغسل والكي.. وما فعلناه هو أننا لخبطنا وخربطنا عليه ترتيب الملابس، فملابس كل زبون تكون موجودة داخل كيس بلاستيكي واحد عليه رقم متسلسل، ونحن سلسلنا تلك الأكياس وسحبنا ما راق لنا من ملابس كيفما اتفق،.. باختصار خربنا بيته، ولو لم نركض هاربين لربما كان قد قطع رقبة أحدنا!! شفت التخلف؟ يعني لم نكن نستطيع التمييز بين الملابس المستعملة والجديدة.. إيه يا دنيا
****

الحمد لله أن زوجتي لم تكن معي

في أواخر أكتوبر من عام 2010، نشرت صحيفة "المصري اليوم" حكاية مهندسة بترول، طلبت الطلاق بعد شهر واحد من الزواج، وكانت هذه السيدة قد جلست مصادفة خلال رحلة جوية جوار رجل اتضح انه مهندس، فكانت نظرة فهمسة فلمسة، وبعدها بأسبوع حدث الزواج.. الحب "في طيارة" لا يختلف كثيرا عن الحب عبر فيسبوك، بل إن الحب من خلال فيسبوك يستغرق عادة شهورا وربما سنوات، وعندما ينتهي حب كهذا بالزواج، ينتهي الزواج في معظم الأحوال بالفراق، وهكذا تكون عادة نهاية الحب الترانزيت.. يا جماعة أحيانا يتزوج طرفان بعد تعارف ولقاءات متكررة وتزكيات من الأقارب والأصدقاء ثم يتضح أن أحد الطرفين أو كلاهما كان يجيد "التمثيل"، ويظهر على حقيقته بعد الزواج، فما بالك بزواج ينجم عن ونسة داخل طائرة ثم تتواصل الونسة عبر التلفون وبعد سبعة أيام يقرر المتونسان الزواج، وما بالك بزواج ينجم عن علاقة الكترونية عبر الانترنت، يرسم خلالها كل طرف صورة زاهية لنفسه ويتم تبادل عبارات من نوع: سبحان الله.. أنا وأنت نتفق في الطباع والعادات والمزاج.. ويتم تبادل أرقام الهواتف و: سبحان الله.. صوتك يطابق صورتك.. ثم تأتي مرحلة الاتفاق على لقاء ولو تطلب ذلك الضرب على أكباد الإيرباص أو البوينغ.. وعند اللقاء: يا سلام.. شخصيتك الحقيقة أحلى من شخصيتك الافتراضية (اقرأ العبارات أعلاه وأدناه بصيغتي المذكر والمؤنث).. ثم يقرران التصعيد والحصول على التصديقات والموافقات الرسمية: أنا لقيت شريك الحياة اللي كنت بحلم به، ومش حتنازل عنه أبداً مهما يكون.. أبداً .. "أبدن"، ولكي لا أستمر في هذا السيناريو الافتراضي تعالوا نسمع من مهندسة البترول المصرية لماذا طلبت الطلاق من رجل عشقته من أول كلمة ونظرة:

يا حضرة القاضي، إحنا متجوزين من شهر، وأحلف لك أن جوزي ما استحماش ولا مرة واحدة من تاريخ الجوازة المهببة دي.. قال إيه؟ قال عندي حساسية من الميّه! بالذمة ده اسمه كلام؟ يعني الميه بتعمل له حساسية لما تلمس جلده وما بتعملهاش لما يشربها؟ طنطنت ونقنقت عشان اقنعه يستحم بس مفيش فايدة.. قال لي بصريح العبارة: ديه عادتي.. ما بحبش استحم!! ولما طلبت منه الطلاق، رفض، وأديني قدامك يا سعادة القاضي طالبة الطلاق للضرر الذي أصاب جيوبي الأنفية وسبب لي عسر الهضم! تخيل لما نكون على تربيزة السفرة ويرفع إيده عشان يتناول حاجة.. ييبع .. ييبخ .. بروح في

غيبوبة!ولما اعترف الرجل أمام القاضي بأنه يكره الاستحمام صدر الحكم بالتفريق بينهما

بعد أن قرأت حكاية السيدة التي اتضح لها انها تزوجت رجلا من فصيلة التيوس (لو عندك مخ ستستنتج أن الرجل لا يصلي!! أخذا في الاعتبار أن الزوجة لم تذكر في شكواها منه أمراً يتعلق بالحرمان من حقوق الفراش الشرعية!!).. المهم أنني وبعد ان قرأت تلك الحكاية حمدت الله على أنني عقدت قراني ثم سافرت الى لندن لدراسة فنون العمل التلفزيوني دون ان اصطحب زوجتي معي!! ولو كنت أيها القارئ قد تابعت هذه السلسلة من المقالات، قد تذكر ما كتبته عن إقامتي في سكن طلابي كانت فيه أماكن الاستحمام بلا أبواب، فمكثت 10 أيام أو أكثر بلا استحمام طلبا للستر الذي هو أهم من النظافة في مثل تلك المواقف! وتخيل حالي لو كانت معي زوجة، .. فضيحة خلع في محاكم الخواجات!! لا أفهم لماذا يستحم الخواجات وهم عرايا أمام آخرين عرايا؟ غزوا الفضاء واخترعوا كل الضروريات والكماليات وينفقون التريليونات على الأسلحة لقتل مواطني الدول الغلبانة ولكن عندما يتعلق الأمر بالستر وتركيب أبواب للحمامات يقولون: لابد من ترشيد الإنفاق

حان حِمامي* في الحمام المستور

لأن الحمامات في "بيت الشباب الكاثوليكي" الذي أسكننا فيه معهد الوسائط الإعلامية الذي ابتعثنا لدراسة فنون العمل التلفزيوني فيه، كانت بلا أبواب، وكنت والسودانيين الأربعة نضطر الى الاستحمام في نحو الثالثة فجرا بعد ان يهجع قليلو الحياء الذين كانوا يقاسموننا السكن، ولم يكونوا يرون بأسا في الاستحمام عراة أمام بعضهم البعض،.. لم يكن بد من الرحيل الى موقع آخر للسكن، واختار لي الجماعة في المعهد السكن مع عائلة في منطقة كامدن تاون وبالتحديد قرب محطة تافنيل بارك لقطار الأنفاق (التيوب). واستقبلتني سيدة البيت مسز وايت، ببشاشة وترحاب، وكانت وايت اسما ولونا أي بيضاء، خواجية "حُرة"، وكان لديها ولد شاب وبنتان صغيرتان.. التقيت بولدهما مرة واحدة، بينما نشأت مودة عميقة بيني وبين الطفلتين، رغم أن أمهما كانت تزجرهما كلما صاحتا فرحتين كلما دخلت البيت في أول المساء

كانت غرفتي في الطابق العلوي من البيت، وكانت واسعة لأنها تضم مطبخا صغيرا، ولم تكن به ثلاجة، وكان الوقت شتاء عندما انتقلت للعيش مع آل "وايت"، وكان أهم انجاز لي في العيش في غرفة مستقلة خارج بيت الشباب الكاثوليكي أنني صرت قادرا على طبخ بعض الوجبات بنفسي.. أي قروي سوداني اضطرته الظروف للعيش في المدينة يجد نفسه مضطرا لتعلم بعض أساسيات فن الطبخ، لأنه غالبا ما يعيش في بيوت العزاب المنتشرة في المدن السودانية، وهكذا كان أبو الجعافر يطبخ لنفسه طعاما شهيا خاليا من أي شبهة للانتماء الى نسل الخنازير: بيض مسلوق وبيض مقلي وبيض مفروم وبيض محمر وبيض بالبخار وبيض بالساونا وبيض "أبو عيون".. وعدس.. كنت اطبخ حلة/ طنجرة/ قدراً من العدس يكفيني لاسبوعين على الأقل دفعة واحدة، وأضعها على الشباك حيث كنت أضع اللبن والعصير وكل ما يحتاج الى تبريد، وكان طقس لندن يقوم

بتلك المهمة في غياب الثلاجة، ويشهد لي كثيرون بالمهارة في طبخ العدس رغم أن طريقة إعداده معقدة للغاية: تضع العدس في إناء به ماء وترمي فيه بصلة واحدة مقشرة او غير مقشرة و.. خلاص.. وإذا أردت ان تتفلسف فإنك تضيف اليه الملح والفلفل والكمون وبالهناء والشفاء.. ولم أكن أذوق اللحم إلا في بيوت الأسر السودانية التي كنا نزورها بين الحين والآخر، ولم يكن الإضراب عن اللحم من باب التقشف فهذه الكلمة لم تكن معروفة في ذلك الزمان، ولكنني صرت أخاف من كل ما يتعلق بالبهائم بعد ان اكتشفت ان السجق الذي كنت اطفحه في مطعم قرب المعهد الدراسي الذي كنت ملتحقا به، كان من لجم الخنزير بن الكلب.

في أول يوم لي في منزل آل وايت، رتبت أشيائي القليلة ثم توجهت للحمام وأنا أقفز من فرط السعادة: أخيرا سأستحم في حمام به باب يستر كامل جسمي، و"وزنت وضبطت" الماء حتى صار مائلا للدفء وطفقت أغني مستمتعا بالماء الفاتر، وغسلت شعر رأسي سبع مرات أحداهن بالحجر المخصص للأقدام.. كنت أردد النشيد الوطني المعروف: يا نيلنا/ يا ارضنا الخضراء يا حقل السنا/ يا مهد أجدادي ويا كنزي العزيز المقتنى/.. وفجأة تحول النشيد الى: يا يمة.. يا أبوي.. يا مسز وايت.. هيلب.. الحقوني.. النجدة، فمن حيث لا أدري نزل على جسمي ماء قطبي.. ثلج سائل.. وصار جسمي يختلج: هببب .. افففف .. وجاءت مسز وايت منزعجة وصاحت عند باب الحمام: آر يو أولرايت؟ لا يا ستي أنا أولرونق.. الماء الدافئ تحول الى ثلج.. طلبت مني يان الف جسمي جيدا وأخرج من الحمام وأجلس قرب المدفأة.. ففعلت.. وشرحت لي الأمر: كلما أردت ان تستحم ادخل قطعة معدنية من فئة عشرة بنسات أو أكثر في عداد الحمام، وما حصل هو أنك استحممت ببقايا ماء دافئ، ظلت في الماسورة بعد استحمام أحد عيالي، ولما "خلصت الفلوس" تحول الماء الى ثلج.. المهم شكرتها وتدثرت جيدا ونمت، ثم استيقظت وجسمي كله يهتز من البرد فصحت مجددا: يا يمه.. يا مسز وايت، فجاءت مذعورة ولكنها أدركت سر الصرخة، وشرحت لي ان المدفأة أيضا بحاجة الى تغذية بالقطع النقدية وعندها أدركت خطأ إرسال شخص ينتمي الى عصر البخار الى بلد كان يقود نهضة القرن العشرين.

* الحِمام بكسر الحاء، يعني الموت

فضائح القفز الى القرن العشرين

كان الذهاب الى لندن في عام 1976، نقلة كبيرة من العالم الثالث عشر الى العالم الأول، وخلال شهوري الأولى هناك لم يكن يمر يوم دون أن أرتكب هفوة بسبب الجهل بوسائل العصر، وقد كنت مثلا لا أسافر داخل لندن إلا بقطار الأنفاق، لأنه ينزلك في مكان معلوم خلال مدة معلومة، وقد تغير القطار في محطة ما للوصول الى الوجهة التي تقصدها، بينما كان استخدام الحافلة (البص)، يتطلب معرفة رقمها الصحيح من بين عشرات الحافلات التي تمر بك، وأن تعرف مسارها ولونها، وغالبا ما يتطلب السفر الى مكان ما بالحافلة النزول والصعود المتكرر.

في أيامنا الأولى في لندن لم نكن نعرف ان ركوب قطار الأنفاق يتطلب الحصول على تذكرة مسبقا، وكنا نحسب أن الكمساري سيمر بنا ونشتري منه التذاكر، وهكذا سافرنا عدة مرات ببلاش، إلى أن جاء يوم داهمنا فيه مفتش تذاكر،... انتبهت الى ان معظم الركاب كانوا يحملون تذاكرهم، ووقف المفتش امام شاب لم يكن يحمل تذكرة وفرض عليه غرامة مالية كبيرة، ولما جاء الدور عليّ، أصبحت من ذوي الاحتياجات الخاصة.. قال لي المفتش: تِيكِت.. فجاءه الرد: مي نو إنجليش.. لجأ الرجل إلى لغة الإشارة كي يشرح لي معني "تيكِت/تذكرة"، فكان ردي: مي نو تكيت.. مي سودان.. آفريكا.. فهز الرجل رأسه وانصرف بعد أن قرر عدم إضاعة الوقت مع شخص يعاني من تخلف عقلي ولغوي، وفجأة انتبهت إلى أنني ممسك بصحيفة إنجليزية وأن الركاب من حولي ينظرون إلي بازدراء فأمسكت بالصحيفة بالمقلوب
تذكرت حكاية قرأتها للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، عندما زار لندن في أربعينات القرن الماضي، فقد رأى طابورا طويلا من البشر يزحف ببطء صوب نافذة معينة، فسأل عن الأمر فقيل له أنهم من يتقاضون معاشات تقاعد أو إعانات اجتماعية.. وانتبه الطنطاوي فجأة إلى أن كلبا يقف في الطابور وحول عنقه سلة صغيرة، ولاحظ ان الكلب يتقدم خطوة خطوة مع الطابور، فسال عن أمر الكلب فقيل له إن صاحبه مقعد لا يتحرك وأنه يرسل الكلب الى مكتب الإعانات وفي السلة رقم بطاقته، وأن الكلب يقف كل اسبوع في الطابور منتظرا دوره إلى أن يصل الى النافذة المطلوبة، فيتسلم الموظف البطاقة من السلة ثم يعيدها إليه مع المبلغ المقرر للرجل القعيد صاحب الكلب.. ونظام المواصلات العامة في لندن يعتمد على "ذمة" المواطن واحترامه للقانون والنظام، ومن ثم لا يوجد كمساري في أي بص او قطار، بل يكتفون بحملات تفتيش متقطعة بين الحين والآخر،.. هم حسبوها كما يلي: لو وضعنا كمساريا في كل بص أو قطار فسنحتاج الى كذا ألف كمساري ومفتش تذاكر وهؤلاء سيتقاضون رواتب بالملايين.. وهب أن هناك خمسة ركاب لم يقطعوا التذاكر في قطار يحمل 300 راكبا، سووات؟ راحت على الجهة التي تدير القطار 15 أو 20 جنيها؟ ما تفرق، فهذا مبلغ قد يكون أقل من راتب يوم واحد للكمساري الواحد.
ذات مرة كنت في منطقة في شرق لندن، وفي أطراف المدينة يتحول قطار الأنفاق الى قطار سطحي، وسألت شخصا في المحطة عن القطار المتجه الى مركز المدينة فقال لي إنه على الرصيف المقابل، وكانت تفصلني عنه بضعة أمتار تتخللها قضبان على مستوى منخفض فأنزلت رجلي لأعبر المسافة، فإذا بالصيحات تتعالى وإذا بالرجل الذي دلني على الرصيف الصحيح يمسك بتلابيبي، وعيونه جاحظة.. ما لم أكن أعرفه هو أن تلك القضبان بها تياركهربائي يشوي الفيل في نصف ثانية.. أحاط بي نفر من الخواجات وصاروا يخاطبونني بلطف، وانتبهت إلى أنهم كانوا يقولون كلاما من نوع: أنت شاب ولا داعي لليأس، والحياة حلوة.. حسبوا أنني كنت أريد الانتحار.. فقط ذلك الرجل الذي دلني على الرصيف "الصحيح" كان ينظر إلي وملامحه تدل على ذهول ممزوج بالاحتقار.. معذور، فقد استنتج أنني غبي، ولم يكن على خطأ تماما.

وتعرضت للغزو النسائي

طوال الفترة التي سبقت سفرنا الى لندن، كان هناك نفر من الأصدقاء يكررون مقولة: بختك.. بنات الخواجات يهبلوا.. وصيد سهل... ومثل هذا الفهم "الأهبل" ما زال سائدا في الدول العربية، فقياسا على ما نراه على شاشات التلفزيون والسينما، فإن كثيرين منا يعتقدون أن بنات الغرب سائبات ورهن إشارة كل طالب متعة.. وقد زرت العديد من الدول الأوربية والولايات المتحدة ولم أشاهد في شوارع مدنها وأسواقها تلك الأصناف التي نراها على الشاشات، بل أجزم بأن غالبية النساء في الغرب يملن الى الاحتشام.. والاحتشام نسبي.. فلبس المرأة للشورت في الغرب لا يعتبر تبرجا وقلة أدب، ولكن الغربيون عموما ينظرون باستياء وسوء ظن لكل امرأة تمشي وثيابها الداخلية ظاهرة بسبب البلوزة او الفستان الشفاف، وبالمقابل فقد صرنا نرى في بعض المدن العربية نساء عربيات معظم بضاعتهن الحساسة معروضة: خصور وصدور مكشوفة، بل صار هناك شباب (رجال) يتعمدون خفض البنطلون بحيث تظهر الأجزاء العلوية من مؤخراتهم الكريهة!! ماذا يتوقع شاب يفعل ذلك؟ أن تستوقفه فتاة وتقول له: يااه.. أنت فتاك

كنا في المعهد الذي درسنا فيه فنون العمل التلفزيوني من الجنسين ومن كل القارات، والحياة اليومية في أي بلد غربي تجعلك تتعامل مع نساء ورجال من كل صنف وفئة عمرية، ولم أصادف طوال وجودي في لندن فتاة تحرشت بي، او أعارتني مجرد نظرة عابرة، ولم يكن ذلك يحز في نفسي لأنني لم أكن سيء الظن بهن، ولا أصدق مقولة أنهن يتهاوين أمام كل شاب عربي أو أفريقي، وذات أمسية كنت مدعوا لحفل نظمته لجنة التضامن مع شعب جنوب أفريقيا، التي كانت تتألف في معظمها من السود (وكنت أشارك في أنشطتها كما ذكرت في مقال سابق)، وبعد بعض الكلمات القصيرة عزفت الموسيقى وبدأ الرقص.. رقص من نوع يد على الكتف واليد الأخرى "أنت وذوقك"، وكنت أقف في ركن من الصالة وحولي شباب كان من الواضح أنهم لم يكونوا يملكون مؤهلات تقنع أي امرأة بمراقصتهم.. وفجأة وقفت أمامي امرأة سوداء من فصيلة وحيد القرن، وخاطبتني: دانس؟ فقلت لها: ثانك يو.. نسيت أن أقول "نو" قبل "ثانك يو"، ومن ثم اعتبرت عرضها من مقبولا وسحبتني من يدي، حتى صار وجهي على بعد قدم من وجهها، فأصبت بدوار.. كانت اسطوانية الشكل وتفوح من مسامها رائحة خمر مخلوطة برائحة التبغ.. تصنعت الابتسام وقلت لها إنني لا أعرف الرقص ولكنها قالت: نو بروبليم.. سأعلمك الرقص.. قلت لها إنني مسلم، ولكنها نو بروبليمتها مرة أخرى، وطوقتني بذراعيها وغاص رأسي في تل من الشحوم الرجراجة.. رجاء لا تسيء الظن بي وتقول:على مين يا ابو الجعافر.. اعترف انك استسلمت بعد ما قررت عدم إضاعة الفرصة!! أي فرصة؟ أقول لك كانت في حجم وحيد القرن، ولا تعرف مقدمتها من مؤخرتها!! هل هي مقبلة أم مدبرة؟ وتخيل رأسك مدفونا في طفاية سجائر بها بقية من خمر

لا أعرف لِكم من الوقت جرجرتني، فقد دخلت في غيبوبة لانعدام الأوكسجين، ولحسن حظي توقفت الموسيقى قبل ان أصاب بموت دماغي، ولما تركتني فقدت توازني وسرت مترنحا اصطدم بالناس والأثاث.. كان ذلك يا جماعة حظي من الغزوات النسائية في لندن.. أنا الذي تعرضت للغزو.. أنا الذي كنت الضحية والخاسر.. وبعد تلك التجربة جمدت نشاطي ضد نظام الفصل العنصري الأبيض في جنوب أفريقيا.. كيف أتعاطف مع سود ذلك البلد وسيدة سوداء كادت ان تقتلني باسم الرقص؟

وفزت بقُبلة

كانت لندن مدينة آمنة في سبعينات القرن الماضي، ولم تكن اعتداءات الشوارع والسطو فيها معروفة كما هو الحال اليوم، وبالتالي كنا نتسكع في شوارعها كما نشاء ليل نهار، ولكن ما كان يعكر علي صفو التسكع ذاك هو أنك لا تكاد تخطو عشر خطوات دون ان تجد كلبا في حجم العجل أمام بيت او متسكعا مثلك على الرصيف، ولم يكن هناك وقتها قانون يلزم أصحاب الكلاب بتزويدها بطوق ومقود كما هو الحال اليوم، وهكذا كنت أمشي بضع خطوات فأرى كلبا ابن ستين كلب ينظر إلي ويحمحم، فانتقل الى الرصيف المقابل، وهناك أجد كلبا آخر يشبه أبي الهول يرمقني بحقد، وهكذا صار سيري في الشوارع داخل الأحياء السكنية بطريقة سبعة ـ ثمانية أي زقزاق، ولاحظ صديق كان مقيما في لندن منذ مدة طويلة تهربي من كلاب الأرصفة وقال لي: ما تخاف من عضة في لندن ما لم تكن من شخص عربي أو أفريقي، وبما أنني "عربيقي"، فقد كان معنى كلامه أنني مسعور بينما كلاب لندن معافاة من السعر.

وفي منطقة تافنيل بارك التي أقمت فيها عدة أشهر كان هناك رجل عجوز يبادرني بالتحية كلما رآني أمر أمام فناء بيته، وكنت أرد على تحيته بأجمل منها ولكن من بعيد لبعيد لأنه كان يملك كلبا بوليسي الملامح، وذات يوم التقيت به في محطة القطار فعرفني بنفسه وحكى لي عن سنوات خدمته في الجيش البريطاني في مختلف أنحاء السودان ومصر، ودعاني لتناول الشاي في بيته، وقبلت الدعوة على الفور، لأن الرجل كان "جراب حكاوي"، وكنت تواقا لسماع ذكرياته عن السودان، وفي الموعد المحدد ذهبت الى بيته وقرعت الجرس فجاءني صوت راعد: هااااااووو.. عندها فقط تذكرت أمر الكلب، وتراجعت مبتعدا بخطى مسرعة، ولكن صاحبنا ناداني: هاي.. ويلكم.. welcome ولكن عقلي الباطن نطق كلمة الترحيب تلك "ويْلكم" أي الويل لكم، وبخطى مرتعدة توجهت نحوه والكلب الى جانبه، ولما لاحظ خوفي من الكلب زجره فابتعد عن الباب،.. صافحني ويدي ترتعش وقادني الى كرسي والكلب يقوم بعملية مسح شامل لملامحي، وكان واضحا ان "شكلي" لم يكن يدعوه الى الاطمئنان.. واقترب مني الكلب فرفعت رجلي على الكرسي، فضحك العجوز وقال لي: لا تخف إنه كلب طيب، فقط طبطب على رأسه وسيصبح صديقك، ثم أشار للكلب ليقترب مني، ولم أجد الشجاعة للطبطبة عليه، ولكنه بدأ "يشمشمني" حتى أصبحت من مستحقي البامبرز، وقلت لنفسي: لعله يحل عني ويتركني في حالي إذا طبطبت على رأسه.. وفعلت ذلك، وإذا به يقفز على حِجري ويجلس ثم يمد لسانه ويلحس خدي، وصاحبه مبسوط و"انا أعيط"، ويبدو

أن قولوني أصدر كركرة تنذر بكارثة بيئية، لأن الكلب قفز مبتعدا عني فتنفست بارتياح نسبي، ومددت يدي بحذر لمسح أثر لعابه اللزج على خدي.. حسرة عليك يا ابو الجعافر.. أصحابك في الخرطوم ينتظرون الحكاوي عن غزواتك في الوست إند، والقبلة التي ظفرت بها بعد طول إقامة في لندن جاءتك من كلب.. يعني حتى ولا "كلبة" أنثى
لا أظن أنه يوجد بيت في أوربا ليس فيه كلب او قط أو أرنب أو فأر مستأنس، فبالخواجات ولع غريب بالحيوانات، ولكن بينهم نسبة لا يستهان بها تكره البشر من شاكلة جعفر.. بمعنى أنهم عنصريون يكرهون الشعوب غير البيضاء ويحبون الحيوانات "من طرف".. بعد زيارتي الأولى للندن بسنوات عدت إليها مع عائلتي، واستأجرت بيتا في شمال المدينة وكانت بالحديقة أشجار تفاح وكرز وكمثرى، ولاحظت أن ثعلبا يقتحم الحديقة يوميا ويتناول الفواكه المتساقطة، واستشرت جاري الإنجليزي في أمر التخلص من غارات الثعلب، وفوجئت به يصيح محذرا: يا ويلك إذا تم ضبطك وأنت ترميه ولو بحجر صغير.. الثعالب هنا تحظى بحماية ولو لم يعجبك وجودها ارحل الى منطقة أخرى في المدينة

الحمام والانتقام

ولا يجوز أن تزور لندن دون أن تتوقف طويلا في ميدان ترافلقر، حيث تماثيل المشاهير، وحيث الحمام الودود الذي يرك على الأكتاف، وحيث العديد من محلات بيع الحبوب لتقديمها للحمام (تم قبل بضع سنوات تطفيش الحمام نهائيا من ذلك الميدان بعد ان صار مصدر تلوث لنوافذ البنايات القريبة).. ذهبت أكثر من مرة الى ترافلقر، واشتريت الحبوب بالعملة الصعبة وقدمتها للحمامات، ويا ما استأجرت مصورا كي ينتظر اللحظة التي تحط فيها حمامة على كتفي او ذراعي ليلتقط لي صورة، ولكنني فشلت المرة تلو المرة في إقناع ذلك الحمام العنصري العنجهي بأن يرِك على أي جزء من جسمي.. نثرت القمح على كتفي وشعري ولكن الحمام كان يلتقطه ويطير مبتعدا.. بل إن إحداها عملت "عملة مش كويسة" على كتفي وهي تحلق من فوقي
أعرف أن كثيرين يعافون لحم الحمام، وهؤلاء لا يعرفون أن لحمه من أطيب لحوم الطيور.. ذات مرة دخلت مطعما في القاهرة وطلبت ثلاث حمامات مشوية فسألني الجرسون: نأخر الطلب شوية على بال ما جماعتك يوصلوا؟ قلت له إنه "مفيش جماعة حيوصلوا" وأنني سأتناول الطعام بمفردي! وبانت الدهشة على ملامحه: هتاكل تلات حمامات لوحدك؟ قلت: نعم.. قال ضاحكا: ياه باين عليك جعان أوي، فقلت له أنني مش جعان أوي وأن ثلاث حمامات "فيها تشبعني وفيها أطلب زيادة"
وبعد أن جرح حمام ترافلقر سكوير كرامتي، صرت حاقدا على الحمام، وحريصا على الفتك به محمرا ومشويا ونصف استواء، ولك ان تتخيل مقدار فخري وسعادتي عندما سمعت بحكاية السوداني الذي كان يسكن في وسط لندن، وكان ينثر الحبوب يوميا على بلكونة شقته، فيجتمع الحمام بالعشرات ليلتهمها، وصار صاحبنا محبوبا من قبل الجيران الذين أكبروا فيه حبه للحمام، خاصة بعد أن وضع بعض صناديق الكرتون في البلكونة وصار الحمام يتناول وجباته هناك، ثم يأخذ "تعسيلة" داخل الصناديق عندما يشتد الحر

او ينزل المطر، وشيئا فشيئا رفع الحمام التكليف وحول تلك الصناديق إلى عنابر ولادة، يعني صار يبيض ويربي صغاره فيها، وحقيقة الأمر هو أن ذلك السوداني البطل كان قد أعد خطة إجرامية لاستدراج الحمام الى البلكونة و"إقناعه" بوضع البيض وتربية الصغار فيها، وكان كلما بلغت الحمامات الصغيرة الحجم المثالي ل"الأكل" تسلل ليلا الى البلكونة وحملها وذبحها وطبخها وتخلص من آثار الجريمة بالتخلص من الريش والأحشاء عبر شبكة الصرف الصحي... يجلس كل مساء في دورة المياه مسلحا بمقص، ليقطع الريش والأحشاء إلى قطع صغيرة لا تسبب انسدادا في شبكة الصرف الصحي، يستوجب الاستعانة بسباك قد يأتي ويكتشف سبب الإنسداد، وتكون النتيجة أن يتم إهدار دمه ، وعاش صاحبنا في تلك الشقة سنتين وهو يأكل الحمام يوميا، وجيرانه معجبون بالأفريقي ذي القلب الرقيق الرحيم، ولو عرفوا حقيقة أمره لمزقوا قلبه بأسلوب غير رحيم.. إلحاق الأذى بشخص أسود "تعبير ديمقراطي عن موقف سياسي" ولكن أن تصيب حمامة أو كلبا بأذى فتلك جريمة لا تغتفر.
هل تذكرون ما كتبته عن الثعلب الذي اكتشفت انه يقيم في حديقة بيتي في منطقة بارنيت في شمال لندن، ولما استشرت جاري البريطاني عن طريقة للتخلص منه قال لي إنه لو تم ضبطي وأنا "أنهر" الثعلب، فسيكون عقابي أليما ثم نصحني: إذا لم تكن تحب الثعالب فارحل الى منطقة أخرى.. الثعلب حر في ان يقيم في بيتي وأنا أدفع الإيجار، ولست حرا في طرده من بيت يقيم فيه بغير وجه حق.. إنهم – أمريكيين وعراقيين متنفذين - يستخدمون نفس المنطق في العراق.. لا سبيل أمام أهل البلد إلا أن يطفشوا منه لتبقى الثعالب الضالة حرة فيه
****

العودة الى حضن الحبيب الأسمر
أكملنا الدورة الدراسية في معهد الوسائط الإعلامية في لندن، وقلنا لهم باي باي، قالوا: يا جماعة حفل التخرُّج بعد 4 أيام ووجودكم ضروري، فقلنا لهم نحن السودانيين الخمسة: أرسلوا الشهادات بالبريد أو بلوها واشربوا مويتها، فقد فارقنا وطننا قبل ثمانية أشهر ولن نستطيع تمديد مدة فراق الحبيب الأسمر لأربعة أيام إضافية، ولم يكن من سبيل لإقناع أي منا بالبقاء لساعة إضافية في لندن حتى لو حرمونا من شهاداتنا.. كانت تلك أول تجربة لي في فراق الوطن، وكانت بي لهفة عجيبة لملامسة ترابه واحتضان أهلي وأحبابي.. اشتقت للوجبات الجماعية والنوم في الحوش والهرج والمرج في بيتنا: منذ الصباح والناس تدخل وتخرج، ولا أحد يستأذن في الحالتين، لأن الباب لم يكن يغلق إلا في ساعة متأخرة من الليل، لا أذكر أن ستة أشهر مرت علينا في بيتنا دون ان يكون أحد الأقارب مقيما معنا بصفة دائمة، إما بغرض متابعة التعليم او بحثا عن علاج أو عمل.. كانت بيوت كل السودانيين في المدن كذلك: يفد عليها الأقارب من الأرياف لأيام أو لأشهر قد تمتد لسنوات، وقدح الطعام يتسع للعديد من الأيدي

لم تكن في بيوتنا تلفونات، وهبطت طائرتنا في الخرطوم في نحو الخامسة صباحا، وبالتالي دخلت على أهلي قبل طلوع الشمس وضجوا بالصراخ الفرِح، وفتحت حقائبي ووزعت عليهم الهدايا.. وكان السودان وقتها كثير الخيرات وكل شيء فيه في متناول الناس العاديين، بالطبع كانت هناك سلع كمالية لذوي اليسار، ولكن كان كل مواطن عادي قادرا على الحصول على متطلبات الحياة الأساسية، وبالتالي لم تكن الهدايا التي أتيت بها باذخة، بل أشياء ذات "طابع بريطاني" لا وجود لها في السوق السوداني، ولاحظت أن عيون أهلي تتساءل عن شنطة ضخمة لم أفتحها أمامهم، فشرحت لهم أن بها ملابس العروس... هذه من بلاوي الزواج في السودان، فلا أعرف مكانا في العالم يتكفل فيه العريس بكسوة العروس بالكامل وبكميات تجارية، ف"هدوم" العروس من أكبر الأعباء التي يشيل كل سوداني راغب في الزواج همها.. المهر عرفناه وقبلناه.. تكاليف الحفلات؟ أمرنا لله.. لكن ماشي.. رسوم الكوافير؟ الكوافير تصغير كافر ولكن اللهم لا اعتراض! ولكن أن يكون إتمام مراسيم الزواج رهنا بأن يأتي العريس بملابس جديدة من كل لون لزوجة المستقبل؟ هذا بصراحة: عيب.. يفترض أن العروس لم تكن "عدمانة" الملابس قبل الزواج، وطالما ان الزواج يعني الفرح والفرح يعني لبس الجديد فمن المنطقي والواجب أن يزودها أهلها (ولآخر مرة) بالملابس الجديدة.. والمصيبة عندنا هي ان الأمر لا يتعلق بالقدرة المالية للعريس أو العروس، بل كلما كانت العروس من عائلة ميسورة الحال، كلما صار العريس مكسور الحال، لأنه يصبح مطالبا بتزويدها بملابس تليق بمستواها الإجتماعي، فلو كان العريس الكحيان – مثلا – مطالبا بشراء نصف دستة/ درزن من كل صنف من الملابس فإن عريس بنت الذوات يكون مطالبا بأربع دستات من كل صنف

ولعلي لم أكن سأنجح في شراء ربع الملابس التي قدمتها لعروسي لو لم أذهب الى لندن، فصارت لدي مدخرات من راتبي الشهري بالجنيه السوداني والمنحة الدراسية بالاسترليني، ومع هذا فقد خرجت على مألوف تقاليد هدوم العروس السودانية التي تقضي بأن تكون هناك 6 أو 8 أو 12 أو 24 قطعة من كل صنف.. لخطبت وخربطت الدنيا: ثمانية من هذا وعشرة من هذه وخمسة من تلك، ووضعت في ثنايا الثياب "طقم شاي" وأكواب عصير، وملاعق وأشياء أخرى لا علاقة لها بكسوة العروس، ولكنني رأيت أنها ستكون مفيدة لنا في بيت الزوجية.. ومن العادة أن يقوم أهل العريس من النساء بتوصيل هدوم العروس ولكنني فعلت ذلك بنفسي ومن وراء ظهور أهلي، لأنني كنت أعرف أنهم سيقولون إنني ارتكبت بدعة "معيبة لم يسبقني إليها أحد" بتقديم أكواب وأباريق شاي لعروسي.

جعفر عباس وليس "نميري"

فور عودتي من لندن عملت في التلفزيون السوداني، وكان به أساطين وأساتذة في كل فنون العمل التلفزيوني الذين تلقوا التدريب في اليابان وهولندا وألمانيا وبريطانيا، وكنت من الناحية الرسمية أعمل في "التلفزيون التعليمي" وأعد وأقدم برامج لتعليم الإنجليزية، مع شيخنا الخواجة والفقيه محمد عثمان إسماعيل، والحبيب عبد العزيز محي الدين،

وكان زملاء آخرون يعدون برامج في المواد الأكاديمية الأخرى، ولكننا كنا في حقيقة الأمر نعمل بمنطق "كله عند العرب صابون"، ونشارك في تقديم البرامج الثقافية والترفيهية، وكان من أجمل مساهماتي في تلك المرحلة أنني شاركت الأستاذ محمد عثمان في تسجيل عدة حلقات تلاوة للشيخ الراحل عوض عمر، وكان كلانا مفتونا بصوته، وكان رحمه الله مقرئا رحب الصدر يعلم القرآن ويشجع محبي كرة القدم من تلاميذه، كما شاركت الصديق الفاتح ابراهيم في تسجيل اول حلقة ظهر فيها المطرب العملاق مصطفى سيد احمد، (ودارت الأيام ووجدت نفسي بعدها بسنوات أمينا على الأموال التي جمعناها لإعاشته وأهله في العاصمة القطرية الدوحة التي جاءها زائرا ومكث بها إلى أن توفاه الله، حيث اتضح انه مصاب بسرطان الجلد وشفي منه تماما ولكن العلاج الكيمائي تسبب في فشل الكلية التي سبق له ان زرعها في موسكو، وكان لدينا المال الكافي لزرع كلية جديدة له في أي بلد ولكن الموت كان أسرع من ترتيباتنا)

لسبب أو لآخر وجدت نفسي لحين من الزمان الوحيد المكلف بإعداد وتقديم برامج تعليم الإنجليزية عبر التلفزيون، وكانت كل حلقة تبث مرتين في الأسبوع، وكان ذلك مثار قلق لوالدتي التي كانت تقيم وقتها في كوستي، فقد باتت تعرف موعد بث برنامجي ولكنها ولسبب يخصها كانت تفترض أنني لابد أن أظهر يوميا على الشاشة، وكلما انتهى البث دون ظهوري أمامها كانت تقلب الدنيا: أكيد جعفر عيان.. في شي حاصل لجعفر... ما من عادته أن يتلاعب في عمله.. ولم يكن من سبيل لإقناعها بأن جعفر ولدها ليس جعفر نميري حتى يظهر في التلفزيون "على كيفه وكي تطمئن أمه عليه"، واضطررت الى السفر الى كوستي لأبلغها بأن هناك جدولا زمنيا لبث كل برنامج، ولما عجزت عن إقناعها بذلك، وطالبتني بالظهور اليومي على الشاشة، قلت لها: قصري الحِجة يا حَجة، وتعالي معي الى الخرطوم، ورافقتني على مضض لأنه لم يهن عليها أن تترك إخوتي في كوستي، وظلت تقوم بجولات مكوكية بين المدينتين حتى طفشت (انا) من السودان نهائيا مهاجرا الى منطقة الخليج

وفي تلك الظروف قررت إتمام مراسيم الزواج، وبسبب غياب زميليَّ في قسم برامج اللغة الإنجليزية، لم أجد مناصا من تسجيل نحو سبع حلقات من برنامجي، لأنعم بإجازة زواج بالأونطة لقرابة 50 يوما، واستمرأت البطالة وعدت بعد الزواج وسجلت نحو خمس حلقات واختفيت مرة أخرى،... ثم عدت وسجلت حلقتين واختفيت نهائيا، لأنني حصلت على عمل في شركة أرامكو في الظهران بالسعودية براتب "خرافي": 4821 ريالا، وكان الجنيه السوداني وقتها يعادل نحو عشرة ريالات سعودية.. يعني كان راتبي نحو 480 جنيها سودانيا في الشهر! يا ألطاف الله.. كان الراتب الرسمي للوزير في السودان وقتها نحو 250 جنيها.. والله لم يكن ذلك في أعقاب الحرب العالمية الأولى، ولا في ستينات القرن الماضي بل في نهاية السبعينات وبداية الثمانيات.. وقبل شهر أعطيت طفلا متسولا في الخرطوم جنيها واحدا من نافذة السيارة فألقى به في وجهي مستاءً

****

دوامة الزواج

كنت قد عقدت قراني على الشابة سعيدة الحظ في ظروف استثنائية، بالتحديد في ظل محاولة إنقلابية (فاشلة) للإطاحة بحكم الديكتاتور جعفر نميري، وظلت الخرطوم تخضع لحظر التجوال، وكنت قد أعددت العدة للسفر الى بريطانيا بعد ان فزت بمنحة دراسية على نفقة حكومة ألمانيا الغربية، وعدت من لندن وأنا أحسب أن وضعي المالي مريح وأنني بالتالي جاهز لتحمل نفقات الزواج، ولكنني لم أكن أعرف تعقيدات طقوس الزواج السوداني، وبعد أن عرفتها (إلى حد ما) لم أكن أستسيغها ولا أنا أستسيغها إلى يومنا هذا، ولم يكن الأمر يتعلق بتكبد نفقات في أمور ما زلت أجدها سخيفة وعبيطة، بل في كوني كعريس مطالبا بالخضوع لطقوس لم أكن مقتنعا بها.. قالوا لي "لازم تتحنن"، وأجلسوني على سرير ووضعوا الحناء في يدي وقدمي، وفي صبيحة اليوم التالي قالوا إن الحنة ليست سوداء بالدرجة المطلوبة، ولطخوني مجددا بطبقات من الحنة في اليدين والقدمين، حتى صرت أشبه الراقصات الهنديات (مع فوارق بسيطة هنا وهناك).. وما زال السودانيون الذين يعملون في الخليج والجزيرة العربية يعانون من موضوع الحناء عند الشروع في الزواج، لأنه إذا رأى أهل تلك المناطق رجلا يضع الحناء في أي جزء من جسمه اعتبروه "مو رجل"، بينما نعجب نحن السودانيين من كون بعض رجال الخليج يكحلون عيونهم

المهم دخلت في دوامة من الطقوس، والمراسيم، واصطحاب العروس من الكوافير الى الستوديو، وكان مفخرة ستوديوات الخرطوم هو "فارتي"، وفي الستوديو صار المصور يقترح علي أمورا سخيفة: ضع يدك على كتفها!! مش حأضع يدي على كتفها!! طيب أمسك يدها اليمنى بيدك اليسرى.. قف بهذه الزاوية وانظر اليها دون ان "ترمش".. سمع مني المصور كلاما.. لو كان يتحلى بأي قدر من الكرامة لاعتزل المهنة!! وعدنا الى حيث مكان الحفل، ولم تكن وقتها قد شاعت موضة القاعات وصالات الفنادق، بل كانت حفلات الزواج تقام في صيوانات في الشوارع العامة، ووجدت نفسي جالسا قرب العروس في كرسي وثير وكان الإرهاق قد نال مني وكنت متوترا وجوعانا، والناس من حولي يأكلون ثم يحيطون بي: مبروك ويرددون الموال السخيف: منك المال ومنها العيال!! لماذا لا يكون ولو قسم من المال منها؟ ثم كيف منها العيال؟ سيكون العيال انتاجا مشتركا مناصفة بيننا فلماذا لا يكون المال أيضا مناصفة بيننا؟. اقترب مني صديق مهنئا فهمست في أذنه: أنا عايز أكل فاذهب الى مطعم "الخيام" وهات طعاما جيدا واتركه في سيارتك.. والله هذا ما حدث بالضبط.. أتى بالطعام فتسللت من "الكوشة" وجلست داخل سيارة صديقي و"تعشيت مزبوط".. ربما أكون أول وآخر عريس في التاريخ يشتري أكلا في يوم حفل زفافه، ويتناوله سرا، بينما المئات يأكلون على حسابه أمامه

ثم طفح بي الكيل عندما طلبوا مني في اليوم التالي لحفل الزفاف، استئجار بضع حافلات؟ لماذا؟ قالوا: السيرة!! وتعني ان يركب المدعوون في الحافلات ويطوفوا بالشوارع والبنات يغنين، والعريس والعروس في مقدمة الركب حتى الوصول الى موقع معين على النيل فينزل الثنائي ليغتسلا بماء النيل.. قلت لهم: هاكم فلوس الحافلات لكن

علي بالطلاق لن أركب في أي منها.. قالوا إنني لن أنجب ما لم اغسل وجهي بماء النيل.. قلت لهم إن أهلي النوبيين تركوا ديانتهم القديمة وتقديسهم للنيل واعتنقوا الاسلام.. تركوني وخرجوا في "السيرة" وعادت إحدى أخواتي بكوز فيه ماء النيل الأغبش لأغسل وجهي به فدلقته على الأرض،.. ورزقني الله ببنتين وولدين رغم – وربما بسبب - "عقوقي" للنيل

اعتذر للقراء... ونواصل *

(كتبت هذا المقال بعد انقطاع عن الكتابة لسبب تجدون شرحه أدناه):

توقفت عن الإرسال لعدة أيام، لأسباب وجيهة، من بينها أنني كنت على سفر لأمرين مهمين، الأول يتعلق بالصيانة الطبية، والآخر بحضور حفل نيل بنتي مروة للماجستير من جامعة أبردين في اسكتلندا، وليس من عادتي التوقف عن كتابة المقالات بحجة السفر، بل وقبل كل إجازة تنشط عندي غدد الكتابة، فأضخ عددا كبيرا من المقالات تغطي فترة السفر، ولكن هذه المرة وبسبب ضعف غدد الحساب والرياضيات عندي "حسبتها غلط"، واستنتجت بالتالي ان المقالات التي كتبتها تغطي فترة الإجازة الطارئة.

ولله الحمد كانت الصيانة الطبية ناجعة ومطمئنة، وكان حفل تخريج مروة "مهبباً"، ولو كنت مصريا لقلت إنه كان متنيلا بستة وستين نيلة، (بالمناسبة النيلة هي زهرة الغسيل الزرقاء التي تضفي جمالا خاصا على الملابس البيضاء، وأصلها هندي "نيلم"، وفي عصور ما قبل الصناعة كانت النيلة تباع كأحجار ويتولى الناس طحنها او يشترونها كبودرة/ مسحوق، وكانت النساء المصريات يهلن النيلة على رؤوسهن تعبيرا عن الحزن عند موت عزي بينما كانت نساء السودان يمارسن ترشيد الإنفاق في المآتم ويهلن الرماد على رؤوسهن عند موت عزيز.. وبالتالي فإن "جاتك نيلة" دعاء بأن تحل عليك كارثة مفجعة).. المهم كان يوم تخرج مروة كذلك لأنه جاء في عصر يوم قطبي غطت فيه الثلوج الشوارع، وتعذرت فيه حركة البشر والسيارات، ونجحنا بطريقة أو بأخرى في الوصول الى مكان الحفل، واستغرق المشوار من سيارة التاكسي الى قاعة الاحتفال نحو ربع ساعة، رغم ان المسافة التي قطعناها لم تزد على مائتي متر، فبسبب الجليد كان لابد من حساب كل خطوة: تضع قدمك اليمني أمام اليسرى وتتوقف لتتأكد من أنك "ثابت" ولم تفقد توازنك، وكانت معي أم المعارك، ومن هواياتها التزحلق على الجليد، أي ان لها سوابق كثيرة في التزحلق غير المتعمد والسقوط والتعرض للكدمات والبلل،..

في عام 1996 كنا نتسوق في تالي هو كورنر في منطقة فينشلي في لندن، وكنت أتقدمها ببضع خطوات (كالعادة)، وبعد دقائق التفت الى الوراء فاكتشفت أنها اختفت، ولم يكن بالمكان خلق كثير فحسبتها قد تسللت الى متجر، فلعنت خاشها في سري، وعدت أبحث عنها وأنظر داخل المتاجر عبر الواجهات الزجاجية،.. ثم انتبهت الى خلق تجمعوا في نقطة معينة، فتوجهت نحوهم فإذا بالأيدي تمتد لتجر المدام وهي تصيح: أييي آآآي.. وهيلا هوب.. أوقفناها على قدميها وهي تترنح وعرضت عليها صاحبة متجر قريب ان تدخل المتجر لتجلس قليلا وتتدفأ، ثم ذهبت الى خلف المتجر وعادت بكوب فيه مشروب أحمر وقالت لي: ذِس وِِل ميك هار فيل قود.. قلت لها في سري: الله يقِد راسك.. ثم

شرحت لها أن زوجتي مسلمة ولا تتعاطى النبيذ.. تَلَت وسبقت تلك الحادثة "وقعات" كثيرة في الجليد، ومن ثم صرت كلما اضطرتني الظروف لاصطحاب زوجتي الى بلد أوربي أحرص على ان يكون ذلك في الشتاء لأن الخوف من السقوط في الجليد يشلُّ حركتها فلا تفكر في التسوق

جامعة أبردين التي نالت منها مروة الماجستير عمرها 514 سنة، وجرت مراسيم حفل التخريج وأنا جالس مجرد تنبل لا أفهم شيئا مما يدور لأن كل الكلام كان باللغة اللاتينية.. ومن فرط الغيظ قلت لزوجتي: إيه رأيك تطلقي زغرودة قوة 400 ديسيبل، عندما ينطقوا باسم مروة (ما لم يكونوا قد اختاروا لها اسما لاتينيا من نوع: مروارتم جافريستا أباستم)، ولكنها كانت أعقل مني وقالت إن ذلك قد يعتبر هتافا إرهابيا، وقد تفسره الشرطة على أنه نداء جهادي مشفّر

كانت حفلات التخريج على أيامنا في جامعة الخرطوم في منتهى الأبهة والتنظيم، وكنا نتسلم الشهادات من رأس الدولة، وعندما فرغ أبناء وبنات دفعتي من تسلم الشهادات من (الرئيس) جعفر نميري، انطلقت الحناجر بالهتاف: الى الجحيم يا نميري.. فترد مجموعة أخرى: نميري أمل الأمة.. واختلط الحابل بالنابل ولحسن الحظ لم يكن ممكنا ان تضربنا الشرطة لأن المكان كان يعج بمئات الأمهات والآباء.. وتم تهريب نميري عبر طريق خلفي.. واكتشفت فجأة أن شهادتي ضاعت في الزحمة.. نعم، وإلى يومنا هذا لم ار تلك الشهادة الأنيقة وظللت مسلحا بشهادة مطبوعة على الآلة الكاتبة

* كانت هذه السلسلة من المقالات تنشر يوميا ثم توقفت عن كتابتها للأسباب الموضحة في هذا المقال مما يبرر عنوانها العجيب المريب

خطوات الزواج المتعثرة

أعود إلى أهم محطة في حياتي، وهي الزواج، فقد انتهت المراسيم المعقدة وصرت زوجا، ونالت خطيبتي ترقية من آنسة الى سيدة، واكتشفت ان الحياة الزوجية أكثر تعقيدا من طقوس الزواج، وبعكس ما هو حادث مع جيل الشباب الذي يقيم المآتم بعد "حفلات" الزواج، بسبب الإنهاك المادي وتراكم الديون والعجز – بالتالي – عن توفير مستلزمات الحياة في بيت الزوجية، لم أخرج من تجربة الزواج مرهقا من الناحية المادية، فكعادة أهلنا قدم الأقارب والأصدقاء وزملاء العمل مساهمات مالية، جنبتني الخسائر والديون، كما أن دخلي الشهري كان مرتفعا نسبيا فقد كنت أتقاضى راتبين أحدهما من وزارة التربية والثاني من التلفزيون وكان هناك دخل إضافي من التدريس في الفصول المسائية التي يديرها اتحاد المعلمين

الإرهاق كان في "الالتزام والانضباط": التحول من شاب صايع وقته ملكه، يطلع وينزل كما يشاء، إلى "رجل" يعود الى البيت ويغادره في أوقات معلومة، ولكن ما هو أصعب من كل ذلك أن الزوجة تصبح رفيقا في معظم مشاويرك.. تقول لها: رايح أزور أمي!! فتقول لك: أوكيه نروح سوا.. بعد نحو شهر من الزواج كنا نزور شقيقتي، وكانت بنتها البكر "هالة" شديدة التعلق بي، وكنت معتادا بالتالي على زيارتها يوميا، وبعد سويعات غادرت بيت شقيقتي متوجها الى الشارع الرئيسي لاستقلال أداة مواصلات، فإذا بصوت

زوج شقيقتي يتناهي الى أذني مطالبا إياي بالتوقف، فتوجهت نحوه منزعجا: خير .. في شنو؟ قال لي: يا جعفر بن عنتر.. عندي زوجة الله يقدرني عليها فارجع واصطحب زوجتك.. واحسست بخجل شديد!! نسيت أنني متزوج ونسيت أن اصطحبها معي عند مغادرة بيت شقيقتي، وعدت ووجدت بوزها وقد تمطى حتى صار يشبه خرطوم الفيل، فكان لابد من كذبة بيضاء: رحت الأجزخانة (الصيدلية) لشراء دواء!! فجاء الرد: الأجزخانة أصلا في سِكّتنا.. الفضيحة الأكبر هي أنني وبعد 25 سنة زواج كنت مسافرا معها الى جدة في السعودية ونزلت من الطائرة وتوجهت نحو منفذ الجوازات، وهناك ربت شاب سعودي على كتفي قائلا: الزولة هاذيك مو تبعك؟ كانت المسكينة تقف عند بوابة الدخول حائرة لا تعرف ماذا حدث لزوجها "الشهم"، ولم يسعفني دماغي حتى بكذبة بيضاء أبرر بها تصرفي الأخرق

نعم الزواج ينظم حياتك ويهذب سلوكك الاجتماعي، ولكنه مثل ضرس العقل، يعكنن حياتك ومزاجك بين الحين والآخر، ثم "تنساه" لبعض الوقت، خاصة في السنة الأولى، ولي نصيحة لكل شاب يريد الزواج: اشترط على أهل العروس إخضاعها لفحص طبي شامل، وإذا اتضح أن بها علة تستوجب المتابعة الطبية، تخصم كلفة تلك المتابعة من المهر، فالنساء ماكرات.. تكون الواحدة منهن خلال فترة الخطوبة وردة نديانة، تنضح عافية، وبعد الزواج يتضح أنها فاشوش و"مضروبة".. بعد أسبوع من الزواج "بالكثير" يكتشف معظم الأزواج أن تلك الورود النديانة، تعاني من عيوب هيكلية، وبحاجة الى التشحيم وتغيير الزيت والفلاتر بشكل منتظم، ويعرف كل رجل متزوج أن زوجته قد تكون "مدَبِّرة" أي غير مسرفة أو مبذرة، إلا في شيئين: الأول حشو جيوب الأطباء بالمال (وعموما فالنساء غير ميالات للمستشفيات الحكومية المجانية) والثاني.. الأحذية.. نعم فالحذاء عند المرأة ليس من الكماليات.. طبعا الحذاء من الضروريات عند النساء والرجال ولكن الأحذية تأتي في المرتبة الثانية – بعد المجوهرات- في قائمة اهتمام المرأة.. ونصيحتي لكل رجل حديث عهد بالزواج هي أنه إذا أغضب زوجته وأراد ترضيتها أن يدخل عليها ب"الجزمة".. لا يا متخلف.. لا أقصد استخدام الجزمة كسلاح لحسم الخلافات بل تقديم جزمة كهدية لها، وستكتشف أن للجزمة سحرا يحول التكشيرة الى ابتسامة.

الزواج وحظر التجوال

يمثل الزواج نقلة كبيرة في حياة الإنسان، لأنه يعني – في ما يعني – أن تؤائم طوعا مزاجك الشخصي ورغباتك وعاداتك مع مزاج وعادات ورغبات شخص آخر، وهذا تنازل كبير لأي شخص، ويعني بالضرورة أن يكون قسم كبير من وقتك الخاص مخصصا لشريك الحياة، مما يعني ان تكف عن قضاء أوقات أو سهرات مفتوحة مع الأصدقاء،.. مثلا كان من عادات أهل بلدتنا (بدين) المقيمين في العاصمة - حيث انتهى بي المطاف -.. (بالمناسبة نحن السودانيون فقط نقول "العاصمة" عند الحديث عن حاضرة بلدنا فلا المصري ولا السوري ولا الصيني يقول مثلنا: ذاهب الى العاصمة .. وأخي في العاصمة... بل يتحدثون عن القاهرة ودمشق وبيجينغ التي كان اسمها بكين)

المهم كان من عادات أهلي البدناب، الاجتماع في بيت هذا أو ذاك كل يوم جمعة لتناول الوجبة الشعبية النوبية المعروفة بالتركين في وجبة الإفطار، ويصنع التركين من صغار السمك بعد تمليحها ثم غليها واستخلاص عصارة منها، وإذا طبخ التركين في بيت سيء التهوية فإن كل من يدخل ذلك البيت يصاب بالتهاب الجيوب الأنفية والبروستات، ولكنه لذيذ الطعم خاصة إذا تناولته مع البصل والشطة (مع التسلح بمناديل من الورق او القماش لإزالة الدموع المنسكبة من العين والأنف والأذن والحنجرة)، وطالبت زوجتي "الجديدة" بأن يكون يوم الجمعة مخصصا لها لأنه يوم العطلة الوحيد في الأسبوع، خاصة وأنني كنت أعمل صباحا ومساء، وكنت أدرك انها محقة في مطلبها، ولكن التضحية برفقة الأهل والأصدقاء والتركين مرة واحدة في الأسبوع كان أمرا صعبا عليّ.. ومن باب سد الذرائع تعلمت زوجتي طبخ التركين، (ثم تشكو من أنه يسبب له نوبات ربو).. ولأن الممتع في التركين هو أكله مع جماعة فقد توصلنا الى حل وسط هو أن أتناوله خارج بيت الزوجية مرة كل أسبوعين

والشاهد هو ان الزواج يحدث تغييرا كبيرا في نمط وأسلوب الحياة، والبنت في مجتمعاتنا تكبر وهي مهيأة نفسيا لقبول تبعات ومسؤوليات الزواج، بينما الشاب الذي ينشأ عادة متمتعا بحرية الصياعة والصرمحة، يجد صعوبة في تحمل تلك التبعات والمسؤوليات، وكما يعرف كل متزوج فإن الشابة الممتلئة عافية طوال فترة الخطوبة تتحول بعد الزواج، إلى شخص على الهبشة من الناحية الصحية: نزلات برد متكررة ومغص معوي والتهاب اللوزتين والزائدة الدودية والمريء والمصران أبو عين واحدة، وما يفاقم الوضع بالنسبة للزوج هو ان النساء وبعكس الرجال شديدات الثقة بالأطباء، فالرجل لا يذهب الى الطبيب إلا محمولا على الأكتاف، أي في طريقه الى القبر، أو متكئا على عكازة، بينما تطالب المرأة باستدعاء الإسعاف لأنها تعاني من دوخة: طبيعي يا بنت الناس أن تحسي بالدوخة لأن الدنيا رمضان وأنت صائمة منذ 25 يوما وترفضين تناول السكريات، حفاظا على رشاقتك!! ووسط طوفان من الدموع يأتيك الرد: لو مش عايز توديني الدكتور وديني بيت أبوي.. فتلعن خاش الطب و"خاش بيت أبوها"

على المستوى الشخصي كانت عروسي "صاغ سليم" عند الزواج، ولكن وخلال سنوات معدودة كان الأطباء قد جردوها من نحو 20% من مكونات جسمها: اللوزتان والمرارة والزائدة الدودية واضراس العقل والطحال والأذن الوسطى و، و،.. ولست واثقا مما إذا كان لديها اليوم كبد وكلاوي ورئتان وقرنية وشريان أورطي، لأن الأطباء ينتزعون جزءا من جسمها كل بضع سنوات.. ولا أقول هذا من باب الشكوى، بل من باب الإعجاب بها، فهي – الله يعطيها العافية – طالعة ونازلة في أمان الله، وما زالت تهتم بشؤون بيتها وأفراد أسرتها.. بالذمة أليست ام الجعافر امرأة فلتة و"معجزة"

يحلو لنا معشر الرجال ان نتهكم على النساء بوصفهن دائمات الشكوى وكثيرات اللجوء الى الأطباء، ولكننا ننسى أنهن وبرغم كل ذلك يبقين ركائز البيوت ودعاماتها، ورغم الشكوى من قيود والتزامات الزواج إلا أنني اعترف بأن الزواج جعلني أكثر تحملا للمسؤولية وأكثر انضباطا في حياتي العامة والخاصة، رغم أنني – مثل كثيرين من

الرجال – أحس بان الزواج يكتم الأنفاس، خاصة بعد ظهور الهاتف الجوال الذي يجعل الزوجة مثل الموت "يدركك أينما كنت"

بداية موسم الاغتراب الطويل

تلقيت دعوة من رابطة الصيادلة السودانيين في قطر للمشاركة في ندوة حول "الاغتراب الى متى وأين"، يوم 10 ديسمبر 2010، وجاءتني الدعوة بوصفي مغتربا محترفا، لأنني قضيت حتى الآن 31 سنة خارج السودان، معظمها في منطقة الخليج، وأسال الله ان يمد في أيامي وأن يلهم أهل القطر الصبر عليّ حتى أشهد منافسات كأس العالم التي تستضيفها قطر في عام 2022، وما زلت أكاد لا أصدق أنني عشت كل تلك السنوات خارج السودان، لأنني سوداني متطرف، وأحب كل ما هو سوداني، ولم أكن أتخيل أنني سأتحمل العيش خارج السودان، لأكثر من بضعة أشهر، وقد ذكرت في مقال سابق كيف أنني والمجموعة التي كانت معي في لندن في أواخر السبعينات لدراسة انتاج وإعداد البرامج التلفزيونية رفضنا تأجيل عودتنا الى السودان لأيام معدودة لحضور حفل التخريج، فقد ضقنا بلندن بسبب الحنين الجارف للوطن.

ولكن وبعد الزواج بأشهر ستة، ظهرت أعراض الحمل على زوجتي، فانقسم عقلي الى شطرين اليساري منها يقول: خليك راجل وتحمل المسؤولية ودبِّر أمورك وأمور الطفل المرتقب زيك وزي بقية خلق الله حولك، والشطر اليميني يقول: بلاش هبل وكلام عاطفي.. الحمل يعني زيارات متكررة لعيادات أمراض النساء والولادة، والانجاب يعني البامبرز والتطعيم والحليب الاصطناعي، وهجر أطباء أمراض النساء والولادة الى أطباء الأطفال لعلاج السعال والإسهال.. وفي أول زيارة للطبيب طلب من زوجتي إجراء فحوصات اتضح ان كلفتها ستون جنيها!! وات؟ ستون جنيها؟ سيكستي باوندس؟ نو بروبليم.. ابيع الثلاجة والسرير والساعة؟ ولكن ذلك نوع من "الطلاق"! المهم أنني وعند هذه النقطة فكرت في الهجرة، لأن الحكاية لن تتوقف عند طفل واحد، ولحسن حظي كان مكتب الأمم المتحدة في الخرطوم قد أعلن عن حاجة المنظمة الدولية لمترجمين، وكنت واثقا من انني سأفوز بواحدة من تلك الوظائف، لأنه سبق لي التقدم لها خلال عملي مترجما في السفارة البريطانية في الخرطوم، ونجحت في الاختبارات التحريرية بتفوق، ولكنني امتنعت عن الانترفيو، لأن راتبي في السفارة كان ضخما ولأن فكرة العيش في مكان مثل نيويورك تفصله عن السودان آلاف الكيلومترات كانت تصيبني بقشعريرة

وذهبت إلى مكتب الأمم المتحدة وتسلمت أوراق التقديم لوظائف المترجمين، وتوجهت الى مكتب التعاونيات في محافظة الخرطوم حيث صديقي شيخ ادريس مدني، الذي كان يبعد أمتارا قليلة عن مكتب المنظمة الدولية لملء الأوراق، وفجأة قاطعني صديقي: بالمناسبة شركة أرامكو فتحت مكتب توظيف في العمارة الملاصقة لنا فلماذا لا تقدم أوراقك لديها أيضا؟ وفرغت من تعبئة أوراق الأمم المتحدة وحملتها معي الى مكتب أرامكو، وقابلت هناك مدير المكتب: السيد حسن خضر وسألني عن الوظيفة التي أرغب في التقديم لها فقلت له: مدرس لغة إنجليزية أو مترجم أو مخرج تلفزيوني، فقال لي إن

هناك حاجة ماسة لمترجمين، وسألني عن الموعد الذي يناسبني للجلوس للامتحان فقلت له: هسع (ومعظم السودانيين لا يعرفون ان الكلمة اختصار لعبارة "ها الساعة")، فابتسم وقال إنني بحاجة الى وقت للاستعداد للامتحان فكان ردي أنه ما من كائن يستطيع ان "يذاكر" لامتحان ترجمة.. وفرغت من الامتحان في خلال ساعة ونصف الساعة، فأبلغني حسن خضر أن هناك امتحانا آخر يجب أن أجلس له في يوم آخر، فقلت له: ولماذا لا أجلس له "هسع"؟.. وبعد تردد اقتنع بمنطقي فجلست للامتحان الثاني والأخير، وعندها كان مكتب الأمم المتحدة قد أغلق أبوابه فحملت أوراق الترشح لوظيفة مترجم دولي الى البيت ونسيت أمرها.. وبعد اسبوع بالضبط تلقيت اتصالا من مكتب أرامكو: نجحت في الامتحان وهات جواز سفرك كي تسافر في أقرب وقت ممكن، وهكذا خرجت من السودان ولم أعد حتى الآن إلا كزائر عابر.

البكاء رغم الثراء

ما أن أبلغني مكتب التوظيف التابع لشركة أرامكو النفطية في السعودية باختياري مترجما لديها حتى أجهشت بالبكاء،.. بكيت نوع البكاء الذي يسميه السودانيين "جعير"، وهو البكاء المصحوب بالنشيج المدوي، ولم يكن بكاء فرح بل بكاء حزن عميق، بكيت على نفسي: إيه يا دنيا.. كيف يهون عليك ترك عروس لم تعش معها أكثر من ستة أشهر.. وفي بطنها طفلك في شهره الأول؟ كيف يهون عليك فراق السودان أحب بلاد الدنيا إلى نفسك... وما أن أبلغت زوجتي بنبأ فوزي بوظيفة في أرامكو حتى تهلل وجهها منشرحا، ولكن ما أن قلت لها إنهم يريدون مني ان أسافر إلى الظهران في أقرب وقت، وأنني سأسافر بدونها لأرتب أمور استقدامها، حتى انفجرت بالعويل والنحيب: ملعون أبو الفلوس على أبو أرامكو.. وتحولت غرفة النوم الى بيت عزاء لعدة أيام، ظل مكتب التوظيف خلالها يلاحقني كي استكمل إجراءات السفر.. ثم غالبنا الحزن وجلسنا نفكر في الأمر ب"عقلانية" وقررنا أنه من الخير لنا ولعيالنا المنتظرين أن أجد عملا في بلد يكفل لنا مستوى معيشيا أفضل، وكان الراتب المعروض علي في وظيفة "أخصائي ترجمة" 4821 ريالا، ولم يكن قد سبق لي قبلها التعامل مع الآلاف في دنيا المال، وهكذا حزمت حقائبي وركبت الطائرة

في مطار مدينة الظهران حيث المقر الرئيسي للشركة العملاقة، استقبلني موظف من إدارة العلاقات العامة ليوصلني الى مسكني المؤقت، ثم أعطاني مظروفا بداخله 3000 ريال، أول ما خطر ببالي هو أن أعود فورا الى السودان لاستمتع بتلك الثروة التي نزلت علي من السماء، ولكنني فوجئت بأن الرحلات من مطار الظهران الى السودان مرة واحدة في الأسبوع، وما أن أوصلني الرجل إلى غرفة أنيقة في معسكر صغير حتى أجهشت بالبكاء مرة أخرى: تذكرت السودان والأهل والأحباب: بيني وبينك تستطيل حواجزٌ، جزرٌ/ وينهض ألف باب.. ما زال سقف أبي يظل/ ولم تزل أحضان أمي رحبة المثوى مطيبة الجناب، ثم أنظر الى الآلاف الثلاثة وازداد حزنا: آآخ لو استطيع ارسالها برقا أو جوا الى زوجتي كي تحس بالطفرة الطبقية.. لعلها تنسيها آلام الفراق.. كان حالي

يومها كحالي يوم ذهبت الى المدرسة المتوسطة وعمري 11 سنة لأدرس وأقيم فيها بعيدا عن أهلي فظللت أبكي طوال أشهر

وخرجت من الغرفة لأتعرف على المنطقة المحيطة بمكان السكن ووجدت قاعة طعام مفتوحة وهناك رأيت زولين.. هناك شعوب كثيرة سمراء وسوداء ولكنني أتمتع بحاسة عجيبة في التعرف على السودانيين.. ذات مرة كنت في مبنى وزارة الخارجية الإماراتية لتوثيق شهادات، واقتربت من احد الواقفين في الطابور وقلت له: ممكن قلم يا زول.. ابتسم صاحبنا وسألني: ولماذا افترضت أنني "زول"؟ كان سؤاله وجيها فقد كان ذا بشرة فاتحة جدا، كان من الممكن ان يكون مصريا او شاميا، ولكنني أحسست بأنه سوداني! كيف؟ لا أعرف!! وقد اتضح ان الرجل فعلا سوداني ولكنه كان قبطيا أي من أصل مصري.. ربما هي جينات حب كل من وما هو سوداني تلك التي تجعلني أتعرف على السوداني وسط جيش من السمر والسود وحتى ذوي البشرة الفاتحة من مختلف البلدان

المهم تعرفت على الزولين في قاعة الطعام وسألتهما عن طريقة تحويل النقود الى السودان، ولحسن حظي كان هناك موظف سوداني في أرامكو مسافر الى الوطن في اليوم التالي، وسلمته ألفي ريال ليوصلها الى زوجتي وكان ذلك المبلغ يساوي وقتها نحو مائتي جنيه سوداني أي ان الجنيه كان يساوي عشرة ريالات سعودية.. بينما الريال اليوم يساوي اكثر من 1000 جنيه.. إنه عزيز قوم ذُل